١٩٦٨

مكتبة نوبل

ياسوناري كاواباتا

العاصمة القديمة



ترجمة : صلاح نيازي

العاصمة القديمة

مكتبة نوبل

اسم المـــؤلف : ياسوناري كاواباتا
عنوان الكتـاب : العاصمة القديمة
تـرجـــمـــة : صلاح نيازي
الـنـاشـــــر : المدى
الطبـعـة الأولى : ١٩٩٩

Author : The Old Capital
Title : Yasunari Kawabata
Translator: Salah Niazi
Al- Mada : P. C.
First Edition 1999

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ – ٢٣٢٢٢٧٥ – ٢٣٢٢٢٧٦ – فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

١٩٦٨

مكتبة نوبل

ياسوناري كاواباتا

العاصمة القديمة

ترجمة

صلاح نيازي

نظراً لاختلاف الطقوس الدينية والشعائر والأعراف، التي قد تكون عائقاً عن استملاح القارىء العربي للرواية، فقد اقتضت الضرورة تزويد هذه الترجمة ببعض الشروح لفكّ ما قد يكون مستغلقاً، وهي شروح خلت منها الترجمة الانكليزية.

أقدِّم عميق الشكر والامتنان إلى السيدة «مايومي أوكاتا إلوود» التي هدتني إلى ما كنتُ غافلاً عنه.

المترجم

أزهار الربيع

اكتشفت تشيكو البنفسجتين تتفتحان على جذع شجرة الاسفندان القديمة . «عجباً . لقد أزهرتا مرّة ثانية هذا العام» ، قالت بينما كانت تواجه رقة الربيع .

شجرة الاسفندان إلى حدّ ما ، واسعة لحديقة صغيرة كهذه في المدينة ؛ الجذع أوسع من خصر تشيكو . ولكن هذه الشجرة القديمة بلحائها الخشن المغطّى بالأشنة ليست من الأشياء التي يمكن لأحدٍ من مقارنتها بجسد فتاةٍ بريئ .

جذع الشجرة منحن قليلاً إلى اليمين بمستوى خصر تشيكو تقريباً ، وعلى ارتفاع أعلى من رأسها ، يميل حتى اكثر . فوق الميلان ، امتدّت الأغصان إلى الخارج مشرفة على الحديقة ، أما نهايات الأغصان الأكثر طولاً فقد تدلّتْ بفعل ثقلها .

تحت الميلان الواسع مباشرة ، مكانان مجوّفان نمت في كل منهما بنفسجة . في كل ربيع تُطلعان أزهاراً . ومنذ أبعد ما يمكن أن تتذكره تشيكو ، فإن البنفسجتين موجودتان هناك على الشجرة .

كانت البنفسجة العليا والبنفسجة السفلى ، منفصلتين عن بعضهما بمقدار قدم تقريباً .

«هل ستلتقي البنفسجة العليا والبنفسجة السفلى أبداً ؟ هل تعرفان بعضهما بعضاً ؟» تساءلت تشيكو . وما معنى أن نقول إن البنفسجتين «تلتقيان» أو «تعرفان» بعضهما بعضاً ؟

في كل ربيع ، هناك في الأقل ثلاثة ، وفي بعض الأحيان خمسة براعم في البنفسجتين ، في التجويفين الصغيرين . حدّقت تشيكو إليهما من الرواق الداخلي الذي يؤدي إلى الحديقة ، رافعة تحديقتها من قاعدة شجرة الاسفندان . كانت تشيكو في بعض الأحيان تُستثار من «حياة» البنفسجتين على الشجرة . وفي أحيان أخرى ، تروع «وحدتهما» قلبها .

«أن تُولد في مكان كهذا ، وتمضي تعيش هناك...»

ولو أن الزبائن الذين يجيئون إلى الدكان ، أُعجبوا بشجرة الاسفندان الرائعة إلاّ أن قليلاً منهم انتبه إلى البنفسجتين وهما تتفتحان عليها . باتت الشجرة قوية بمرور الزمن ، وأعطت الأشنات للجذع القديم وقاراً وأناقة . البنفسجتان الصغيرتان الساكنتان هناك ، لم تلفتا الانتباه .

إلاّ ان الفراشات يعرفنهما . وفي اللحظة التي انتبهتْ تشيكو إلى البنفسجتين ، جاءت عدة فراشات بيضاء صغيرة مرفرفة عبر الحديقة قرب البنفسجتين . أشرق بياضها الراقص بآلتماع ، لتباينه عن شجرة الاسفندان التي بدأت للتوّ بفتح براعمها الحمراء الصغيرة .

أزهار وأوراق البنفسجتين ، ألقت ظلا خفيفاً على الآخضرار الجديد للطحالب على جذع شجرة الاسفندان .

كان يوماً مغيماً ربيعيّاً ناعماً .

جلست تشيكو في الرواق ناظرة إلى البنفسجتين على الجذع إلى أن مرّت الفراشات .

«لقد تفتحتما من أجلي ثانية ،» أرادت تشيكو أن تهمس .

عند قاعدة شجرة الاسفندان ، تماماً تحت البنفسجتين انتصبتْ مشكاة حجرية قديمة . قال والد تشيكو مرّة لها إن التمثال الواقف المنحوت على القاعدة هو تمثال المسيح .

« هل أنت متأكد أنه ليس مريم ؟ » سألت تشيكو . « إن تمثال مريم الكبير في معبد « كِيتانو تَنْجِنْ » يشبه تماماً هذا التمثال » .

« إنه المسيح » قال والدها ببساطة . « إنه لا يحمل طفلاً » .

« إي . بالطبع » ، تشيكو وافقتْ . ثم سألتْ : « هل كان يوجد مسيحيون بين أسلافنا ؟ » .

« لا . من المحتمل ان حدائقياً أو حجّاراً وضعه هنا . إنها ليست مشكاة من نوع غير معروف » .

إن هذه المشكاة الحجرية المسيحية ربما صُنِعتْ في الفترة التي كان فيها الدين محرّماً . كان الحجر غير المصقول هشاً لذا فالنقش البارز حُتَّ وانكسر بفعل مئات السنين من الريح والمطر... ما يمكن تمييزه هو الرأس والجسم والساقان فقط . حتى حينما كان جديداً ، فمن المحتمل انه كان نحتاً بسيطاً . كان الردنان طويلين يلامسان الأرض تقريباً . تبدو اليدان متكتّفتين في صلاة... ولكن ما من أحد بقادر على أن يحكم من مجرد

الانتفاخ الصغير عند الساعد . مع ذلك فالانطباع مختلف عن تمثاليْ بوذا أو الآلهة الحارسة .

لا فرق إن كانتْ هذه المشكاة المسيحيَّة في يوم ما رمزاً لايمان أو لا شيء أكثر من حلية قديمة غريبة ، فإنها الآن أسفل شجرة الاسفندان القديمة في حديقة محلّ عائلة تشيكو ، بفضل أناقتها الأثرية . وإذا صادف وأن أثارت انتباه أحد الزبائن ، فإن والد تشيكو سيخبره أنه تمثال المسيح . ولكنَّ قليلاً من الباعة الذين جاؤوا ، لاحظوا المشكاة الداكنة في ظلِّ شجرة الاسفندان الكبيرة . حتى إذا رآها شخص ، فإنه لن ينظر إليها بدقة أبداً ؛ فمشكاة أو مشكاتان في حديقةٍ ، شيء متوقع . غضّت تشيكو نظرتها عن البنفسجتين في الشجرة ونظرت إلى المسيح . وعلى الرغم من أنها لم تدخل في مدرسة تبشيرية ، إلا أنها كانت قد ذهبت إلى الكنيسة وقرأت (العهد القديم والجديد) حتى تكون معتادة على اللغة الانكليزية . إلاّ أنها شعرت أن المشكاة القديمة لا تستحق أن تُقدَّم لها الأزهار أو الشموع المنذورة ؛ ليس هناك من صليب منحوت في أيِّ مكان عليها .

فكرّتْ في بعض الأحيان أن البنفسجتين فوق نحت المسيح على أنهما قلب مريم . مرة أخرى رفعتْ تشيكو عينيها عن المشكاة إلى الأزهار . فجأة تذكرت الجداجد الصرّارة التي كانت تربيها في جرّة .

كانت تشيكو قد بدأت بتربية الجداجد بعد أن وجدت لأوّل مرّة البنفسجتين على شجرة الاسفندان القديمة بزمن طويل . كان ذلك قبل أربع أو خمس سنوات . لقد سمعتها تسقسق في ردهة بيت إحدى صديقاتها الطالبات ، وتسلّمت عدداً منها كهدية .

« مخلوقات مسكينة تعيش في جرّة... » قالت تشيكو . ولكن صديقتها

أجابت أن ذلك أفضل من إبقائها في قفص وتركها تموت فيه . وقالت توجد حتى صوامع رَبّتها بكميات كبيرة وباعت البيوض . يبدو أن هناك كثيرين لديهم ميول متشابهة .

جداجد تشيكو في هذه السنة زادت من عددها .

لديها جرّتان . في كل سنة حوالي اليوم الأول من شهر يوليو/ تموز يفقس البيض ، وفي حوالي منتصف اوغسطس/ آب تبدأ الجداجد بالسقسقة . لكنها وُلدتْ ، سقسقت ، باضت ، وماتت وكل ذلك في داخل جرّة مظلمة مزنوقة . مع ذلك فما دامت تحفظ النوع فربّما هي أفضل من تربية نسل جديد قصير العمر في قفص . ولكن الجداجد قضت كل حياتها في جرّة .

إنها كلُّ الدنيا لها . لقد سمعتْ تشيكو عن اسطورة صينيَّة قديمة « الكون في جرّة » ، وفيها قصر في جرّة مملوءة بالنبيذ الفاخر والأطعمة الشهية من كلا البرّ والبحر . أنها وهي منعزلة عن العالم الخسيس ، مملكة منفصلة ، عالم مسحور . هذه الحكاية واحدة . من كثير من خرافات السحرة والسحر .

بالطبع إن الجداجد لم تدخل الجرّة لأنها قطعت الصلة بالعالم . ربما أنها لا تدرك أين هي ، لذا استمرت تعيش .

ما أدهش تشيكو أكثر من أي شيء آخر ، بشأن الجداجد ، أنها لو لم تُدخلِ الذكورَ المجلوبة من منطقة أخرى لكانت الحشرات التي فقست معوّقة النمو وضعيفة ، نتيجة للاستيلاد الداخلي . ولمنع ذلك ، فإن هواة مربّي الجداجد يتاجرون بالجداجد الذكور . الآن هو فصل الربيع ، ولن تبدأ الجداجد بالسقسقة إلاّ في أواخر الصيف . ومع ذلك فثمة صلة ما بين الجداجد والبنفسجتين في التجويفين في شجرة الاسفندان .

لقد وضعت تشيكو الجداجد في الجرّة بنفسها ولكن لماذا جاءت البنفسجتان لتعيشا في مكان ضيّق كهذا ؟ تفتحت البنفسجتان ، وفي هذه السنة ، أيضاً ، فإن الجداجد ستفقس ، وتبدأ بالسقسقة .

« حياة طبيعيَّة... » .

نسمة رقيقة عبثتْ بشَعر تشيكو لذا دسّت ما نفر منه وراء أذنها . تأملتْ نفسها بالمقارنة مع البنفسجتين والجداجد .

« وأنا... »

كانت تشيكو المنتبه الوحيد للبنفسجتين الصغيرتين في هذا اليوم الربيعي ، اليوم الذي اندلع بحيوية الطبيعة .

دلّت الأصوات من الدكان على أن شخصاً ما ، كان يغادر للغداء . لقد حان الوقت تقريباً ، لأن تتهيأ لتخرج وتشاهد أزهار الكرز .

كان ميزوكي شنيتشي قد زار تشيكو قبل يوم ودعاها لمشاهدة أزهار الكرز في معبد « هيئان » . وكان أحد زملاء شنيتشي في المدرسة يشتغل محصّل تذاكر في مدخل حديقة المعبد لحوالي أسبوعين . سمع شنيتشي من هذا الزميل ، أن الأزهار الآن هي في أوجها .

« يبدو أنه مراقب يقظ . ذلك شيء أكيد » . ضحك شنيتشي برقة . كانت ضحكته ساحرة .

« هل سيراقبنا نحن أيضاً ؟ » تساءلتْ تشيكو .

«انه البوّاب ، أليس كذلك ؟ يُدخل أي واحد .» ضحك شنيتشي ثانية بابتهاج . «ولكن إذا لم تَرُقْ لكِ الفكرة ، فسنذهب على انفراد ونلتقي في

مكان ما ، في الحديقة تحت الأشجار . يمكنكِ مشاهدة الأزهار التي تودين مشاهدتها بمفردك . إنها ليست من نوعِ الأزهار التي تضجرك » .

« إذا كان ذلك صحيحاً ، فلماذا لا تذهب وتراها لوحدك ؟ »

« سأفعل ، ولكن لا تلوميني إذا ما هبَتْ عاصفة ممطرة هذه الليلة وسقطت كل الأزهار من الأشجار... »

« عندئذ سنرى كم تبدو أنيقة هي الأزهار على الأرض » .

« تظنين أن لأناقة الأزهار الساقطة علاقة برقودها وهي منقوعة بالمطر والطين على الأرض... انطباعي عن الأزهار الساقطة هو... »

« لا تكوني مشاكسة » .

« مَنْ ؟ أنا ؟ »

غادرتْ تشيكو البيت مرتدية كيمونو لا تثير الانتباه .

كان معبد « هيئان » معروفاً جداً « باحتفال العصور » . بُنِيَ المعبد عام ١٨٩٥ ، في السنة الثامنة والعشرين من حكم الامبرطور « مييجي[١] » ، إكراماً للامبراطور « كانمو » الذي أنشأ العاصمة « هيئان » في كيوتو قبل ألف عام ، لذا فإن صالة المعبد ليست قديمة جداً . قيل إن البوابة وصالة العبادة قد جُعلتا على طراز الـ « أوتيمون » و« صالة الدولة الكبيرة » ، في العاصمة الأصلية « هيئان » . وقد زُرِعتْ هناك أيضاً حسب العرف شجرة برتقال على اليمين ، وشجرة كرز على اليسار . فكوميئي الذي كان امبراطورا قبل أن تنتقل العاصمة إلى طوكيو ، قد أُودع في المحراب عام ١٩٣٨ ، تقديساً له .

أُقيمت كثير من حفلات القران في مذبح المحراب .

كانت مجموعات أشجار الكرز الحمراء المتهدلة الأغصان التي زَيَّنتْ الحديقة من أروع المناظر في «كيوتو» . «بالتأكيد ما من شيء يمثّل الربيع في العاصمة القديمة أفضل من تلك الأزهار» .

حين دخلتْ تشيكو حديقة المحراب ، تفتّح الكرز المتهدل الأغصان عميقاً في قلبها . «مرة أخرى هذا العام استقبلتُ الربيع في العاصمة» . توقفتْ وحدّقتْ حواليها .

هل كان شنيتشي منتظراً في مكان ما ، أو أنه لم يأتِ بعد ؟ فتشت عنه تشيكو ، وقرّرت بعدئذٍ زيارة الأزهار . سارت بين الأشجار المزهرة إلى المرجة تحت . شنيتشي متمدد هناك ، وقد طوى يديه خلف رأسه . عيناه مغمضتان .

لم تتوقعْ تشيكو أن ترى شنيتشي نائماً ، ظنت رقوده شيئاً مزعجاً .

فمن المفترض أن يكون في انتظار فتاة صغيرة . شعرتْ تشيكو بنفرةٍ من منظر شنيتشي أكثر من ارتباكها من سلوكه السيئ ، لم تتعود تشيكو في عالمها ، على رؤية رجل ، نائم .

من المحتمل أن شنيتشي في الجامعة قام بمناقشات مثيرة كثيرة مع أترابه بينما هو متمدد بارتياح على المرجة ، ناظراً إلى السماء ، أو متكئاً على مرفقيه . إنه اتخذ نفس الوضعية هذا اليوم .

أربع أو خمس نسوان مسنّات يتحدثن أحاديث عرضيَّة قرب شنيتشي ، باسطات غداءهنَّ على المرجة . ربما بسبب شعوره بصلة حميمة مع النساء ، فإنه جلس إلى جانبهنَّ ونام . فكرّتْ تشيكو أن ذلك هو ما حصل ، فابتسمت تقريباً إلا أنها استحتْ خجلاً .

وقفتْ هناك دون أن تنادي عليه لأن يستيقظ . ثمَّ راحت تشيكو تمشي بعيداً عن شنيتشي ؛ لم يسبق لها أن نظرت إلى وجه رجل نائم قطّ .

كان شنيتشي يرتدي بذلته المدرسية ، وشعره ممشطاً مهندماً . أهدابه الطويلة ذكّرتْها بولد صغير . مع ذلك لم تستطعْ النظر إليه مباشرة .

« تشيكو » ، نهض شنيتشي منادياً إياها . شعرتْ تشيكو بإهانة .

« تنام في مكان كهذا . غير لائق . بامكان كل شخص أن يراك » .

« لم أكن نائماً . عرفتُ حينما جئتِ» .

« أنتَ مزعج » .

« ما الذي كنت ستفعلينه ، لو لم أنادِ عليك ؟ »

« هل تظاهرتَ بالنوم حينما رأيتَني ؟ »

« فكرّتُ ، يا لها من فتاة سعيدة دخلت في الحديقة ، وشعرتُ أني حزين . ورأسي يوجعني... »

« أنا ؟ أنا سعيدة ؟ »

لم يُجِبْ شنيتشي .

« هل لديك صداع ؟ »

« لا ، الآن أفضل» .

« لونك ليس على ما يرام» .

« لا . إنني على ما يرام» . أجاب شنيتشي .

« وجهك مثل سيف فاخر» .

لقد سمع شنيتشي ذلك مراراً من الآخرين ، ولكنها المرّة الأولى التي سمعها من تشيكو .

يتكلم الناس عن وجه شنيتشي بصيغٍ كهذه ، حينما يكون شيء ما في داخله على وشك الاشتعال .

« السيوف الفاخرة لا تقتل الناس . عدا ذلك ، فإننا تحت الأزهار هنا » .

رجعتْ تشيكو إلى مدخل الرواق عند قمّة رابية صغيرة . نهض شنيتشي وتبعها .

« أريد أن أرى كل الأزهار قبل أن نغادر » قالت تشيكو .

عند المدخل إلى غرب الرواق ، تجعل أزهارُ الكرز الحمراء المتدلية الأغصان ، الانسانَ يشعر أنَّ الربيع قد حلَّ فعلاً ، فالأزهار المزدوجة الوردية متفتحة على طول المسافة إلى رؤوس أكثر الأغصان المتدلية نحافة . وقد يكون من المناسب ، القول إن الأزهار وُلِدت على الأغصان أكثر من القول إنها تفتحت ببساطة هناك .

« هذه هي أزهاري المفضّلة في الحديقة ، » قالت تشيكو ، مرشدة شنيتشي إلى مكانٍ حيث الممرُّ ينتهي . أغصان شجرة كرز واحدة ، انتشرت على الأخص انتشاراً واسعاً . وقف شنيتشي إلى جانب تشيكو محدّقاً بالشجرة .

« إذا فحصتِها بدقّة فانها تبدو انثى ، » قال شنيتشي ، « الأغصان نحيلة متدلية والأزهار رقيقة وريّانة » .

يبدو أن مسحة ضئيلة جداً من الأرجواني الشاحب انعكست على قرمزية الأزهار .

«حتى هذه اللحظة ، لم أكنْ أدرك أنها أنثوية للغاية ، » قال شنيتشي ، «لون الأزهار ، أناقتها ، سحرها الآسر... »

مبتعديْن عن شجرة الكرز ، سار الاثنان نحو البركة . وعند بقعة ضيّقة في الممشى حيث الكراسي التي تُطوى نُصِبتْ وحيث السجادة الحمراء فُرشتْ ، جلس الزوّار يشربون الشاي .

فتاة نادتْ باسم تشيكو . مرتديةً كيمونو رسمية طويلة الأردان ، خرجت «ماساكو» من غرفة تناول الشاي الـ «تشوشنتي» التي كانت في ظل الأشجار .

«تشيكو ، هل لك أن تساعديني لدقيقة ؟ أنا متعبة للغاية . بحاجة إلى مساعدة مع ضيوف معلمي»

«وأنا مرتدية هذه الملابس ؟ إنه آخر عمل يمكن أن أقوم به في المطبخ» .

«لا يهمّني ذلك . على ما يرام . نعمل الشاي في الخلف هذا اليوم» .

«معي شخص» .

ماساكو ، منتبهة إلى شنيتشي ، همستْ بأذن تشيكو «خطيبك ؟ »

هزّت تشيكو رأسها هزّاً خفيفاً .

«صديق ؟ »

هزّت رأسها ثانية .

استدار شنيتشي وراح يمشي بعيداً .

«لماذا لا تدخلان وتجلسان... معاً ، » اقترحت ماساكو . «المكان خالٍ الآن» . لكن تشيكو رفضت وتبعت شنيتشي .

« إنها جميلة ، أليس كذلك ؟ » تساءلت تشيكو حينما لحقت بشنيتشي .

« شيء عادي من الجمال » أجاب شنيتشي .

« آه ، قد تسمعك » .

أومأت تشيكو برأسها إلى ماساكو التي لوّحتْ لها مودّعة .

بان الممشى أسفل صالة الشاي قرب البركة . وقرب الجرف ، راح السوسن المائي يتنافس فيما بينه بخضرته الفتّية . الزنابق طافية على سطح البركة .

ما من شجرةِ كرز هنا .

سائرين حول الجرف ، دخل تشيكو وشنيتشي ممشىً صغيراً في ظلّ بعض الأشجار . كانت رائحتها خليطاً من أوراق فتية وأرض نديّة . الممشى المظلل الضيق قصير ؛ وفي نهايته ، ظهرت حديقة زاهية بجانب بركة أوسع من البركة السابقة . انعكست أزهار أشجار الكرز الحمراء المتدلية الأغصان في الماء وومضت في عيون الزوّار . بعض السياح الأجانب كانوا يلتقطون صوراً فوتغرافية للأزهار .

لكن في الجانب الآخر من الجرف في غيضة من الأشجار ، أطلعت شجرة « اندروميدا » أزهارها البيضاء بحياء . فكرت تشيكو بالمدينة القديمة « نارا » . هناك أيضاً أشجار صنوبر بأشكال حسنة ، لكنّها ليست طويلة . حتى ولو لم تكن هناك أزهار كرز ، فإن خضرة الصنوبر تبقى تأسر العين . لا ، وحتى الآن فإن خضرة الصنوبر غير الملوثة والماء في البركة تضيء أزهار الكرز الحمراء المتدلية الغصون الحاشدة .

مشى شينيتشي إلى الامام وعَبَرَ البركة فوق الحجارة المرصوفة للعبور ،

وكانت تُعرف بحجارة عبور البركة . إنها اسطوانية مثل بوابة « شنتو » وقد قُدتْ ورُصِفتْ عبر البركة . كان على تشيكو ـ في بعض المواطئ ـ أن ترفع الكيمونو قليلاً حتى تعبر .

نظر شنيتشي إليها وهو في الخلف .

« بودَي لو حملتكِ » .

« سيكون لذلك أثر في نفسي... لو تمكنتَ » .

حتى امرأة عجوز تستطيع عبور تلك الأحجار المرصوفة .

أوراق الزنابق المائية تطفو حول الحجارة . وبينما اقترب تشيكو وشنيتشي من الجرف كانت أشجار الصنوبر الصغيرة منعكسة في البركة .

« عجباً ، هل رُصِفت تلك الحجارة بطريقة تُمثِّل نوعاً من التجريد » قال شنيتشي .

« أليست كل الحدائق اليابانية تجريداً ؟ مثل الطحالب بين أشجار الأرز في حديقة محراب « دايِكوجي » . لكنْ كلما تحدَّث بعضهم عن كم هي « تجريدية » كلما باتت منفرّة » .

« ذلك صحيح . الطحالب على أشجار الأرز تجريدية بالتأكيد . لقد انتهوا من ترميمات معبد « دايكوجي » . هل تحبين مشاهدته ؟... عند رفع الستارة ؟ »

« هل أُعيدَ بناؤه مثل (السرادق الذهبية) الجديدة ؟ »

« من المحتمل إنه طُليَ من جديد . سيكون رفع الستارة ، يوم تكون الأزهار في أوجها . ستكون هناك حشود من الناس » .

« لا يهمّني أن أرى أية أزهار بالإضافة إلى أزهار الكرز هنا » .

عبر الاثنان آخر حجارة العبور إلى الجانب الداخلي من الحديقة ، ووصلا إلى الجرف حيث تقف مجموعة من أشجار الصنوبر . ثم ذهب تشيكو وشنيتشي إلى «الصالة الجسر» . بالضبط كأنها صومعة ألـ (تايهييكاكو) ، ولكنها بالفعل جسر يشبه صالة . كلا جانبي الجسر يشبهان مقعدين منخفضين وذراعاً مسترخية . يجلس الناس هناك ليرتاحوا وليعجبوا بتخطيط الحديقة . بعض الناس الجالسين هناك يأخذون المرطبات ، بينما الأطفال يتراكضون حوالي وسط الجسر .

«شنيتشي! شنيتشي! إجلس هنا...» اتخذت تشيكو مقعداً ، واضعة يدها اليمنى لتحجز مكاناً له .

«سأبقى واقفاً» ، قال شنيتشي . «أو ربّما سأقعد هنا على قدميك» .

«لا ، لا يمكنك» . وقفتْ تشيكو بسرعة وأجبرت شنيتشي على الجلوس . «سأذهب وأشتري بعض الطعام لسمك الشبّوط» .

عادت تشيكو ورمتْ الطعام في البركة . الشبّوط وهو يتدافع نحوه ، تراكم بعضه فوق بعض . طلع بعضه حتى خارج الماء . انتشرت دوائر الأمواج إلى الخارج ، مسببة ارتعاش انعكاسات أشجار الكرز والصنوبر في البركة .

«هل تريد أن ترمي البقيّة ؟» سألتْ شنيتشي ، ممسكة ببقية الطعام .

لم يَقُلْ شنيتشي أيَّ شيء .

«هل ما يزال رأسك يوجعك ؟»

«لا»

جلسا لمدة طويلة . حدّق شنيتشي بسطح الماء بعمق ، وجهه صافٍ .

« ما الذي تفكر فيه ؟ » سألتْ تشيكو .

« همْمْ... أتساءل أنا نفسي . أليستْ هناك أوقات يكون فيها المرء ..عيداً لأنه لا يفكر في شيء بكلِّ معنى الكلمة... ؟ »

« بالطبع . في أيّام كهذه ، مع الأزهار » .

« لا . أعني في صحبة فتاة سعيدة جداً . سعادتك تدفع النسمة مثل الأريج » .

« هل أنا سعيدة ؟ » سألت تشيكو . ومض ظلّ من الكآبة على وجهها . لكنها كانت تنظر إلى الأسفل ، فربما كان ماء البركة منعكساً في عينيها لا غير .

وقفتْ تشيكو . « توجد شجرة كرز أحبّها في الجانب الآخر من الجسر » .

« بإمكاني رؤيتها . إنها تلك . أليس كذلك ؟ »

كانت الشجرة منظراً رائعاً ، مشهورة بأغصانها ، التي تتدلّى مثل شجرة الصفصاف المستحي ، مع ذلك فهي منتشرة بوساعة . وبينما كانت تشيكو واقفة بجانب الشجرة ، سقطتْ تويجات الأزهار حول قدميها وحول كتفيها في النسيم الرقيق .

انبسطت الأزهار مبعثرة على الأرض . تويجات قليلة طفتْ على البركة أيضاً . ولكن لا أكثر من سبع أو ثمان .

الشجرة مدعومة بسقّالة خيزران ، لكن يبدو وكأن الرؤوس الدقيقة لأغصانها ستلمس الماء . خلف البركة ، وأعلى غياض الأشجار في الضفة الشرقية ، كانت الجبال بأشجارها الفتية الجديدة بادية للعيان من خلال شجرة الكرز المزدوجة .

«هل ذلك جزء من «هيگاشياما» ؟ سأل شنيتشي .

«إنه دايمونجياما» أجابت تشيكو .

«حقّاً ؟ دايمونجياما ؟ ألا يبدو عالياً للغاية ؟»

«ذلك لأنكَ تنظر إليه من تحت الأزهار» . قائلةً ذلك ، انضمّتْ تشيكو إلى شنيتشي تحت الشجرة المتفتحة .

غادرا على مضض .

رمل أبيض خشن منتشر حول شجرة الكرز . انتصبتْ إلى اليمين مجموعة من أشجار الصنوبر الجميلة ، عالية نوعاً ما على هذه الحديقة . بجانبهما الخروج إلى حديقة المحراب .

وبينما هما يجتازان البوابة ، قالت تشيكو ، «أريد أن اذهب إلى «كيوميزو»

«صومعة كيوميزو ؟» نمَّ وجه شنيتشي عن عدم اهتمامه .

«أودّ رؤية الغروب على العاصمة من «كيوميزو» لأراقب الشمس وهي تنخفض في السماء فوق «نيشيياما» قالت تشيكو .

أومأ شنيتشي برأسه «لنذهب»

«هل نذهب ؟»

كان الطريق طويلاً نوعاً ما . تَفادَيا القطارات ، آخذيْن الطريق الملتفَ الأكثر مسافة إلى شارع معبد «نازنجي» ، سائريْن خلف معبد «تشيونن» . بعد ذلك مرّا عبر متنزّه «مارولياما» من الخلف ، ماشييْن في الممر الضيق إلى صومعة كيوميزو .

لم يبق من المتنزهين على الشرفة إلاّ بعض التلميذات ، غير أن وجوههن لا يمكن رؤيتها بوضوح .

هذه هي الساعة التي تفضّل فيها تشيكو المجيء . كانت شموع النذور تشتعل في ظلام (الصالة الكبرى) ، بيد أنها مرّتْ دون توقّف ، سائرة من صالة «أمبدا» إلى الحرم الخلفي .

بُنيتْ شرفة الهيكل الخلفي ناتئة من المنحدر الصخري . ومثل سقف بسيط مرتفع مصنوع من لحاء السرو ، بدت الشرفة معلقة بدقة أيضاً . الشرفة تواجه الغرب ، مطلة على العاصمة صوب «نشيياما» .

الأضواء منيرة في المدينة ، إلا أن السماء ما يزال فيها وميض خفيف .

استندتْ نشيكو على السياج وحدّقت صوب الغرب . بدتْ ناسية شنيتشي . اقترب منها .

«شنيتشي . كنتُ طفلة مهجورة ، لقيطة» . تكلمت تشيكو بغتة .

«طفلة مهجورة ؟»

«نعم» .

استحار شنيتشي من هل في كلمتيْ «طفلة مهجورة» معنى سايكولوجي...

«منبوذة» ، همس شينيتشي . «هل تشعرين في بعض الأحيان وكأنما كنت طفلة منبوذة . فإذا كنتِ منبوذة فأنا كذلك... روحياً . ربّما كل الناس أطفال منبوذون . ربما الولادة هي مثل كون الإنسان منبوذاً على الأرض من لدن الله» .

حدّق شنيتشي الى وجه تشيكو جانبياً . لَوَّن احمرار شفق الغروب خدّيها بغموض إلى أبعد حدّ . ربما ذلك بتأثير المساء الربيعي .

« يقولون نحن أطفال الله . ينبذنا هنا ، ومن ثَمَّ ينقذنا... »

لكن تشيكو نظرتْ إلى أنوار العاصمة القديمة ، كأنما لم تسمعْ شيئاً . حتى أنها لم تلتفتْ إلى شنيتشي .

بعد أن أحسَّ شنيتشي بحزن يستعصي على الفهم في داخل تشيكو ، شرع بوضع يده على كتفها . ابتعدت .

« يجب ألا تلمس طفلة منبوذة » .

« لكنني قُلتُ أطفال الله ، كل الناس ، منبوذون هنا ، » رفع شنيتشي صوته .

« ليست المسألة معقدة بتلك الصورة ، لم أكنْ منبوذة من لدن الربَ . والداي البشريّان نبذاني » .

لم يتكلم شنيتشي .

« كنتُ لقيطة تُركتُ أمام باب محلّ « بنگارا » المشبك » .

« ما هذا الذي تقولينه ؟ »

« حقّاً ما أقول . ولكن ما الفائدة من إخباركَ بالقصة . حين أقف هنا في شرفة الكيوميزو ، ناظرةً إلى الغروب فوق المدينة الواسعة ، فإنني أتساءل هل وُلِدتُ هنا في كيوتو » .

« ما هذا الذي تقولينه ؟ أنت مجنونة » .

« هل يمكن الكذب بشيء مثل هذا ؟ »

« لأنك طفلةُ تاجرٍ جملة مدللّة ووحيدة ، وطفلة وحيدة تكون خادمة لأوهامها الباطلة » .

« والداي يحبانني ويعتنيان بي . لا يهمُّ الآن إن كنت لقيطة » .

« هل لديكِ برهان على أنك لقيطة ؟ »

« برهان ؟ الباب المشبّك . أعرف ذلك الباب القديم جيّداً » . بات صوت تشيكو أكثر ودّاً . « كنت في المدرسة المتوسطة ـ كما أظنّ ـ حينما دعتني والدتي وقالت لي إنني لستُ طفلتها هي ، لستُ البنتَ التي سببتُ لها وجع الولادة . قالت إنهما سرقاني . وأنا طفلة وهربا بسيارة . ولكن لأمي وأبي قصة مختلفة عن المكان الذي التقطاني منه . ففي بعض الأحيان ، يقولان في المساء تحت أزهار الكرز في معبد « گيون » ، وفي أحيان أخرى يقولان قرب نهر « كامو » . يظنّان ، لو عرفت بأنني كنتُ منبوذة أمام المحل ، فسأتألّم تألّماً شديداً » .

« أما من طريقةٍ لمعرفة مَنْ كان والداك الحقيقيان ؟ »

« والداي الحاضران يحبانني حبّاً جّماً . ليست لديَّ أية رغبة في التفتيش عن أمي وأبي الأصليين . قد يكونان حتى بين بوذيي مقبرة الفقراء والمجهولين في « أداشينو » بالطبع شواهد القبور هناك قديمة جداً » .

انتشر لون الربيع المسائي الناعم ، مثل ضبابٍ أحمر وانٍ ، من « نيشياما » عبر نصف السماء .

« شنيتشي » لم يستطع تصديق تشيكو بأنها لقيطة ، وأقل من ذلك تصديقه بأنها كانت طفلة مختطفة . كان بيت تشيكو جوار تاجر جملة ، وإذا ما سأل المرء هنا وهناك ، فسيعرف إن كان ما قالته صحيحاً . طبيعي

أن «شنيتشي» لم يُرِدِ التحقق من الأمر . كان حائراً . لماذا قامت تشيكو باعترافٍ كهذا له ؟

هل أتتْ به إلى هنا لكيوميزو لمجرد أن تطلعه على ذلك ؟

أصبح صوت تشيكو صافياً ، وجرت في أعماقه نغمة قوية . لم تبدُ أنها كانت تستغيث بشنيتشي . بالتأكيد إن تشيكو أدركتْ بغموض بأنه يحبّها . هل كان المقصود من اعترافها أنها تكشف عن قلبها إلى الشخص الذي أحبّته ؟ لم يبدُ الأمر كذلك بالنسبة إلى شنيتشي . بالأحرى شعر برفضٍ لحبّه ، حتى لو كانت ببساطة ، قد لفّقت القصة عن كونها لقيطة .

في معبد «هيئان» كرر شنيتشي عدّة مرات أن تشيكو «سعيدة» . ظاناً أنها ستعترض على ذلك ، قال : «بعد أن عرفتِ بأنك لقيطة ، هل كنتِ حزينة ؟ هل شعرتِ أنك منبوذة ؟»

«لا ، لا بالمرّة . فقط حينما أَخبرتُ والدي أنني أريد أن التحق بالكلية ، وقال إن ذلك سيكون عائقاً ما دمتُ سأرِث عمل العائلة ، عند ذاك فقط شعرت بالحزن» .

«هل كان ذلك قبل عامين ؟»

«نعم» .

«هل أنت مطيعة تماماً لوالديك ؟»

«نعم تماماً» .

«حتى وإن تعلّق الأمر بشيء مثل الزواج ؟»

«نعم . أنا عازمة على أن أكون كذلك» . أجابتْ تشيكو بلا تردد .

« وماذا عن نفسك ؟ أليست لديك مشاعرك الخاصة بك ؟ » تساءل شنيتشي .

« حينما تكون للمرء اعتقادات كثيرة ، فإنها كما يبدو تسبب له المصاعب » .

« لذا فانك تكبحينها... تخمدينها تماماً ؟ » .

« لا ، ليست بتلك الدرجة » .

« كلامك لا شيء سوى ألغاز » . حاول شنيتشي أن يضحك بمرح إلاّ أنَّ صوته تلعثم . نظر إلى تشيكو وهو ينحني إلى الأمام على السياج .

« أريد أن أنظر إلى وجه طفلة منبوذة محيِّرة » .

« إنها بالفعل معتمة الآن » . التفتتْ تشيكو ناحيته للمرّة الأولى . ومضتْ عيناها عندما نظرتْ إلى سطح « المبنى الكبير » . يا له من مبنىً مخيف ! » صاحتْ .

بدا وكأن سقف شجرة السرو يضغط إلى الاسفل ، إيذاناً ، بشرٍّ ، مع كتلة مظلمة كئيبة .

الحواشي

(١) امبراطور ميجي (١٨٦٧-١٩١٢) . في بداية حكمه انتهى حكم القواد العسكريين الملقبّين بالشوغان ، وأصبحت السلطة بيد الامبراطور ولو كان ذلك بالاسم فقط . كان الامبراطور في الواقع مجرد رمز ، أمّا الذين كانوا يسيّرون البلاد فعلياً ، فهم المستشارون والسياسيون القدامى المحنكون . وعليهم تقع مسؤولية اختيار رؤساء الوزارات ويكونون مسؤولين أمام الامبراطور وليس أمام الهيئة التشريعية .

صومعة الدير
والباب المشبّك

قبل ذلك ، بثلاثة أيام أو أربعة ، عزل والد تشيكو ، واسمه «سادا تاكيتشيرو» نفسه في صومعة مختبئة عميقاً في ناحية بعيدة من «ساغا» .

إنها صومعة رهبان ، وعمر رئيسة الدير أكثر من خمسة وستين عاماً . الصومعة تاريخية لعلاقتها بالعاصمة القديمة ، إلا أنها صومعة هادئة . المدخل محجوب بغيْضةِ خيزران ، لذا نادراً ما زارها السيّاح . الغرفة المنعزلة عن الصومعة ، ولم تكن معروفة ، تستعمل نادراً فقط في طقوس حفلة الشاي . عند الحاجة ، تترك رئيسة الدير الصومعة لتدريس ترتيب الأزهار .

هل يمكن لأحد أن يقول بأن سادا تاكيتشيرو قد بلغ به الأمر حتى شابه الصومعة التي أجّر فيها غرفة ؟ كان سادا بائع ملبوسات وأقمشة جاهزة بالجملة في حيّ «ناكاجيو» أحد أحياء مدينة كيوتو . لقد جعل مخزنه شركة كما فعل غيره من أصحاب المخازن المجاورين له . تاكيتشيرو هو الرئيس بالطبع ، إلاّ أنه ترك المعاملات التجارية بيد مستخدميه . مع ذلك فقد حافظ على كثير من أعراف العمل التي تذكّر بمخزن تقليدي .

تاكيتشيرو منذ شبابه يمتلك نزعة ربّ عمل . يكره الناس . وكان

يفتقر تماماً إلى طموح القيام بعرضٍ شخصي لأعماله في الحياكة والصباغة ، لكنّها لم تكن لتباع حتّى لو عرضها ، لأنها غير مألوفة للغاية .

راقب والده تاكيتشبي أعمال ابنه بهدوء . لم يفتقر محلّه إلى تصاميم حديثة الطراز ، لأن النماذج والعينّات كان ينقشها مصمم المحلّ الخاص وفنانون آخرون . بيد أن تاكيتشبي حينما أدرك أن ولده ، الذي لم يكن عبقرياً ، قد هبطت مبيعاته ، وبدأ يصنع تصاميم غريبة تحت تأثير المخدرات ، أرسله إلى المستشفى مباشرة .

وبعد أن تولّى تاكيتشيرو المخزن ، أصبحت تصاميمه اعتيادية أكثر ، وهذا ما أحزنه . والسبب في عزل نفسه وحيداً في الصومعة هو استيحاء تصميم سماوي .

لقد تغيرّت تصاميم أردية الكيمونوتغيراً ملحوظاً منذ الحرب . استرجع تاكيتشيرو في ذهنه التصاميم الغريبة . التي استوحاها تحت تأثير المخدرات في سنواته المبكرة ، وتساءل هل انها الآن لا تُعتبر تجريدية منعشة ، لكنه الآن في أواخر خمسيناته .

« هل سأطلع بعيّنةٍ من طراز تقليدي جريء » ، كان تاكيتشيرو يهمس لنفسه في بعض الأحيان ، لكن ذهنه مغمور بعشرات الأطرزة الفاخرة التي تعود إلى سنوات أقدم . كلُّ أطرزة الثياب القديمة وألوانها ملأت رأسه . بالطبع لقد مشى كذلك في المتنزهات الشهيرة ، والجبال وحقول كيوتو للقيام بتخطيطات أوليّة لأردية الكيمونو .

جاءت تشيكو حوالي الظهر .

« يا أبي هل تحبُّ وجبة « توفو » مسلوقة من « موريكا » ؟ لقد جلبت لك شيئاً منها .

« ا ، شكراً . إنني مسرور بجلبك الـ « توفو » ولكنني أكثر سروراً برؤيتك . ألا تبقين حتى المساء لتساعديني في فكّ الأفكار في هذا الرأس... هل أتمكن من ابتكار تصميم جيّد » ؟

بائع الملبوسات والأقمشة الجاهزة بالجملة لا يحتاج إلى رسم عيّنات . ولكن مثل هذا المسعى ، في الواقع ، قد يقف في طريق العمل . بيد أن تاكيتشيرو يجلس في بعض الأحيان نصف يوم خلف مكتبه بالقرب من الشباك المعزول في المخزن ، مواجهاً الحديقة الداخلية ومشكاتها المسيحيّة . خلف المكتب دولابان قديمان مصنوعان من خشب صيني فيهما عينات من ملبوسات صينية ويابانية قديمة . إلى جانبهما خزانات كتب ممتلئة بعينات أقمشة من جميع أنحاء العالم .

في الطابق الثاني لسقيفة الخزن المعزولة عن المخزن يوجد عدد من أزياء مسرح « نو[1] » وثياب الكيمونو الخاصة بالزواج . وقد تمَّ الاحتفاظ بها في حالتها الأصلية . يوجد أيضاً عدد كبير من القماش المطبّع القطني من وسط وجنوب شرقي آسيا .

ورث تاكيتشيرو بعض المواد من أبيه وجدّه ، ولكن حينما كانت تقام معارض للملبوسات والأقمشة القديمة ، ويُطلب من تاكيتشيرو أن يشترك فإنه يرفض رفضاً قاطعاً .

« وفقاً لرغبات والدي فإن الملبوسات والأقمشة لن تخرج من هذا البيت » . كان عنوداً في رفضه .

بيت سادا من الطراز القديم لبيوت كيوتو ، فلذا على المرء أن يمرَّ عبر الصالة إلى جانب مكتب تاكيتشيرو حتى يصل إلى الحمّام . يمتعض بصمت

من تلك الذهابات والايابات ، لكن حين يصبح المخزن مضوضئاً ، يصيح بحدّة ، «ألا تستطيعون أن تكونوا هادئين» .

من عادة المستخدم أن ينحني إلى الأرض . «لدينا زبون من أوساكا»...

«لا يهمني إنْ لم يشترِ شيئاً من هنا . ثمة بائعون بالجملة آخرون»

«لكنّه زبون دائم قديم» .

«يشتري المرء الأقمشة بالعين . وإذا استعمل فمه فليس لديه بالتأكيد حِسٌّ بها . رجل الأعمال الحقيقي يعرف بنظرة... لدينا كثير من الأقمشة الرديئة هنا ، أيضاً» .

«نعم ، يا سيّدي» .

لدى تاكيتشيرو سجّادة أجنبية عتيقة مفروشة على الأرض من مكتبه إلى وسادته ، وتحيط به ستائر من نسيج قطني فاخر . كانت هذه فكرة تشيكو . ومن وقت إلى آخر تغيرّها تشيكو بنمط جديد ، وحين تفعل ذلك ، يدرك تاكيتشيرو رقّة قلبها . يتحدث إليها عن جاوا أو فارس ، عن فترةٍ ما ، في التاريخ أو عن تصميم نسيج الستائر . لا تفهم تشيكو شروحاته المفصلة دائماً .

«هذه صالحة جداً للأكياس وكبيرة جداً لقصّها لأغلفة الشاي . إذا جَعَلْتَها أحزمة للزنارات ، فكم يمكنك القصّ منها ؟» تساءلتْ تشيكو مرّة بينما كانت تنظر حولها إلى النسيج القطني المطبّع الذي يحيط بمكان عمل والدها .

«إجلبي لي ذلك المقصّ» قال والدها .

قصَّ تاكيتشيرو الستائر ، كما هو العهد بخبير .

هذا سيصنع لك زناراً جيداً ، أليس كذلك ، يا تشيكو ؟

جفلت تشيكو . ملأت الدموع عينيها . «آه ، لا ، يا أبي»

«لا يهمّ . لا يهمّ . إذا لبستِ زنّاراً من هذا النسيج القطني المطبّع فربما ستهلّ عليَّ بعض الأفكار الجديدة للتصاميم مرّة ثانية» .

كان ذلك هو الزنّار الذي ارتدته تشيكو للمجيء إلى الصومعة في ساغا . بالطبع ، انتبه تاكيتشيرو إلى الزنّار القطني المطبّع فوراً ، ولكن لم يُعطِه نظرة ثانية . كان الطراز واسعاً ومبهرجاً لتصميم قطني مطبّع ، مع منطقتين ، مظلمة وباهتة . تساءل هل هذا هو الزنّار المناسب لتلبسه فتاة في موسم تفتّح الكرز .

وضعت تشيكو علبة الأكل إلى جانب أبيها .

«ألا تأكل شيئاً ؟ انتظرْ لحظة سأحضّر لك الـ «توفو» .

كان والدها صامتاً .

قامت تشيكو وانعطفت نحو غيضة الخيزران إلى جانب البوابة .«لقد حلَّ فعلاً «خريف شجر الخيزران»» قال والدها . «بدأت الجدران الطينية بالتفتت والميلان . إنها تنهار تقريباً... مثلي تماماً» .

لقد تعوّدتْ تشيكو على سماع والدها وهو يتحدث بطريقة كهذه ، لم تحاول حتى تعزيته . إنها فقط أعادت كلماته «خريف شجر الخيزران» .

«كيف تبدو أشجار الكرز على طول الطريق هنا» ؟ سألها والدها عرضاً .

«التويجات الساقطة تطفو على البحيرة . وتوجد شجرتان ما تزالان متبرعمتين على الجبل بين الأوراق الخضر الجديدة للأشجار الأخرى . تبدو أكثر جمالاً عن بُعْد وأنتَ تمشي .

ذهبت تشيكو إلى المطبخ .بامكان تاكيتشيرو سماع صوت تقطيع البصل وحكّ السمك المجفف . عادت بعد أن أرجعت الأواني التي استعملتها في تحضير الطعام . كان قد جلب تاكيتشيرو من البيت صحوناً كافية لمدة بقائه .

قامت تشيكو على خدمة والدها بطاعة .

«لماذا لا تأكلين شيئاً معي ؟» سألها والدها .

«شكراً ،» أجابت تشيكو .

تمعّن تاكيتشيرو بابنته من الكتف حتى الخصر . «إنه كئيب جداً . إنكِ دائماً تلبسين تصاميمي . ربما أنتِ الشخص الوحيد الذي يفعل ذلك . أنت دائماً تلبسين في نهاية الأمر ، ما لم نتمكنْ من بيعه» .

«لا يهمّ ، ألبسها لأني أحبّها»

«همْمْ . إنها عادية جداًّ» .

«إنها عادية ، لكنْ...»

«ما من عيب بفتاة تلبس ملابس عادية ،» قال والد تشيكو بقسوة غير متوقعة .

«الناس الذين يدقّقون فيها عن كثب يُطرونني» .

بات تاكيتشيرو الآن لا يرسم التصاميم إلاّ كهوايةٍ أو لهوٍ . وأصبح

المخزن يبيع بالجملة ، غايته مجاراة الأذواق العامّة ، لذا فإن رئيس البائعين لا ينتج أبداً أكثر من نموذجين أو ثلاثة من كل نموذج يصنعه تاكيتشيرو ، حتى يحفظ ماء وجه ربِّ العمل . وتشيكو تلبسها دائماً عن طيب خاطر . كان يتمُّ اختيار نسيج أرديتها بعناية .

«ليس من الضروري أن تلبسي تصاميمي فقط ،» قال تاكيتشيرو . «كما لا يستوجب عليك لبس ثياب الكيمونو من محلّنا فقط ، كذلك . يجب ألاّ تشعري بأيّ التزام كهذا» .

«التزام ؟» أُخذتْ تشيكو على حين غرّة . «لا أرتديها بدافعٍ من التزام» .

«إذا بدأتِ بارتداء ثياب كيمونات مزخرفة ، فهل لي أن أفترض أنك وجدتِ لنفسك رجلاً» . ضحك والدها عالياً ، ولكنه لم يبتسمْ .

وبينما كانت تشيكو تقدّم وجبة الـ «توفو» المسلوق ، انتبهت إلى طاولة والدها الكبيرة . ما من شيء هنا يشير إلى أنه كان يصمم نماذج بمادة صبغ ماعدا علبة ورنيش حبر حجرية من نمط عهد «الايدو»[٢] ، ولفّتين هما نسختان طبق الأصل من منتوجات «كوياجيري» ومركونتان في إحدى الزوايا .

تساءلت تشيكو مع نفسها فيما إذا كان قد جاء والدها إلى الصومعة لينسى الشغل في المحلّ .

«ما من وقت متأخر للتعلم مطلقاً ، لذا فأنا أدرس الخطّ ،» ، تكلم تاكيتشيرو ببعض الارتباك . «لكن انسيابية السطر بحروف الـ «فيوجيوارا» تلك ، قد تكون نافعة لي شيئاً ما في تصاميمي» .

كانت تشيكو صامتة .

« ياللتعاسة . يدي ترتجف هكذا »

« ماذا لو رسمتهَا أوسع »

« إنني قد رسمتها أوسع بالفعل »

« ما تلك المسبحة فوق علبة الحبر الحجرية ؟ »

« آ ، تلك ؟ سألتُ رئيسة الدير عنها . أعطتني إياها »

« هل تستعملها في العبادة ؟ »

« إنها ما قد يدعوها الشبان في هذه الأيام « جالبة الحظ » ولكن في بعض الأحيان أشعر برغبة في تكسير خرزها بأسناني » .

« يا لها من فكرة بغيضة . أتصوّرها ملطخة بسنين من طبعات الأصابع » .

« ماذا تعنين « فكرة بغيضة » ؟ إنها طبعات الأصابع لإيمان أجيال من الراهبات » .

شعرت تشيكو وكأنها مستْ حزناً لدى والدها فخفضتْ عينيها بصمت . حملت صحون الطعام المتبقي إلى المطبخ .

« أين رئيسة الدير ؟ » سألت تشيكو حينما عادت .

« ربما ستعود بعد قليل . ما الذي تنوين عمله ؟ »

« سأتمشى حول « ساغا » ومن ثَمَّ أذهب إلى البيت . من المحتمل أنَّ هناك جموعاً من الناس في « أراشيياما » الآن ، ولكنني أيضاً أحبُّ

« نونوميا » و« أداشينو » والطريق إلى صومعة « نيسوئن » لذا سأذهب إلى هناك .

« إذا أحببتِ أماكن مثل تلك في مثل سنّك ، فيمكنني تصوّر ما ستكونين عليه حينما يتقدم بك العمر . لا تحذي حذوي! » قال تاكيتشيرو .

« هل بامكان امرأة أن تحذو حذو رجل ؟ »

وقف والد تشيكو في الشرفة ، يراقبها وهي تسير بعيداً .

رجعت رئيسة الدير بعد ذلك بقليل وشرعت بتنظيف الحديقة .

جلس تاكيتشيرو وراء مكتبه . استحضر في ذهنه لوحات السرخس والأزهار لـ « سوتاتسو »[٣] و« كورين »[٤] . فكرّ بتشيكو التي غادرت للتوّ .

الدير الذي عزل تاكيتشيرو نفسه فيه مختبىء عن طريق القرية بِغيْضةٍ من أشجار الخيزران . وحتى تزور تشيكو معبد « أداشينو » ، صعدتْ الدرجات القديمة حتى وصلت إلى تمثاليْ بوذا الحجريين ، على المنحدر الصخري إلى الشمال ، ولكنها توقفت حينما سمعت أصواتاً لاغطة آتية من بعيد أمامها .

المئات التي لا حصر لها من شواهد القبور المهدمة هناك تدعى (بوذيّو المقبرة) .إن جلسات التقاط الصور في الوقت الحاضر تقام بين الفينة والأخرى هناك ، النساء وهن يرتدين الكيمونات الرقيقة غير المعتادة يتخذن وضعيات بين أحجار الأعمدة المنهارة . واليوم ، فإن الأصوات كانت من المحتمل من تجمّع كهذا .

نزلت تشيكو على الدرجات الحجرية من التماثيل البوذية ، مستعيدة كلمات والدها . حتى لو كان سبب ذهابها إلى « أداشينو » هو مجرد تفادي

سيّاح الربيع في «ارشيياما» ، فإن أماكن مثل «أداشينو» و«نونوميا»لا تناسب بالتأكيد فتاة شابة لزيارتها ، وحتى ملائمة أقلّ من ارتداء فصالات والدها الكئيبة لثياب الكيمونو .

«لا يبدو أن أبي يقوم بأي شيء في تلك الصومعة القديمة» . شعرت تشيكو بحزن قليل يخترق صدرها . «عجباً ما الذي يفكّر به وهو يقضم تلك الخرز القديمة الوسخة» .

تعرف تشيكو كيف أن والدها في المحل ، يحاول في كثير من الأحيان أن يكبح عواطفه التي كانت شديدة جداً لدرجة أنه كان يرغب في سحق تلك الخرز بأسنانه .

«من الأفضل لو عضَّ إصبعي» ؛ همست تشيكو ، هازّة رأسها . ثم حوّلت أفكارها إلى الوقت الذي دقّت فيه مع أمّها الجرس في صومعة «نمبوتسو» . كان برج الجرس قد بُني حديثاً . أمّها صغيرة الحجم ، ومهما حاولت فإن الجرس لم يخرج منه إلاّ صوت ضئيل ، إلاّ أن تشيكو وضعت يدها على يد والدتها ، وبعد أخْذِ نفس عميق دقّتا الجرس معاً . ودوّى عالياً .

«أفلحنا! عجباً إلى أيّ مدى سيكون صداه» كانت أمّها قد ابتهجت .

«ليس بالبعد حينما يدقّه الكاهن . إنه ذو خبرة ،» ضحكت تشيكو .

تذكرت تشيكو تلك الحادثة بينما هي تسير ناحية «نونومبا» . كانت هناك لوحة على طول الطريق ، كُتِبَ عليها : «هذا الطريق يمرُّ عبر أجمة أشجار خيزران داكنة» .

لم تكن هذه الإشارة قديمة جداً ، ولكن ما قد كان في يوم ما ممراً

مظلماً فإنه الآن مضيء ومفتوح . يوجد هناك حتى بائع ينادي على العابرين أمام البوابة .

على أية حال ، إن هذا المقام المقدس لم يتغيّر . لقد وصِف حتى في حكاية « الگنجي »[٥] . إن الأميرات الامبراطوريات اللواتي كنَّ سيخدمنَ في مقام « إيسه » ، يصرفن ثلاث سنوات هنا لتطهير أنفسهنَّ من العالم غير الطاهر قبل الذهاب إلى « إيسه » . كان المقام معروفاً بسياجه الصغير المصنوع من الأغصان المقطوعة ، وببوابة « الشنتو » المصنوعة من الخشب الذي ما يزال اللحاء عليه .

يمرُّ الطريق عبر الحقول من بداية « نونوميا » ، منفتحاً على الرقعة المنفسخة من « أراشييياما » .

صعدت تشيكو إلى حافلة بجانب صفّ من أشجار الصنوبر في الجانب القريب من جسر « توغيتسو » .

« عجباً ما الذي سأقوله لامّي . على الرغم من أنها على دراية تامة ، بأن هناك شيئاً ما غير صحيح مع والدي » .

كثير من البيوت في « ناكاجيو » تحطمت في حريق « تيبو » وحريق « دوندون » قبل عهد الاصلاح الـ « ميبجي » . محلّ تاكيتشرو لم يسلم من الأذى .

وعلى الرغم من أن هناك بيوتاً من طراز « كيوتو » ما تزال قائمة بأبوابها المشبكة ونوافذها المشبكة في الطابق الثاني ولكن لا يزيد عمر أيّ منها عن مائة عام . أما غرفة الخزن خلف المحل فيقال إنها نجت من النيران .

لم يُجدَّد المحل على طراز حديث . ومردُ ذلك جزئياً إلى مزاج ربَ العمل ، لكن قد يكون أيضاً عيب البيع بالجملة الخالي من الروح .

عائدةً إلى البيت ، فتحت تشيكو الباب المشبّك ونظرت عبره إلى خلف البيت . كانت أمّها« شگي » تجلس وراء مكتب تاكيتشيرو ، تدخّن . مسندة خدها على يدها اليسرى وظهرها محنيّ كأنما تقرأ أو تكتب ، ولكن ما من شيء على المكتب .

« ها أنذا عدتُ» . تشيكو اقتربت من أمِّها .

« آ ، شكراً على مساعدتك» بدت « شگي » وقد انتبهت إلى نفسها . « كيف حال والدك ؟ » .

« حسن... ، » جهدتْ تشيكو لإيجاد جواب . لقد اشتريتُ له بعض « التوفو » « من نوع الموريكا » ؟ « من المحتمل أنه كان مسروراً للغاية . هل كانت مسلوقة ؟ »

هزت تشيكو رأسها .

« كيف « اراشيياما » ؟ تساءلت أمّها .

« حشود من الناس خرجوا هذا اليوم » .

« هل ذهب والدك معك إلى « أراشيياما ؟ »

« لا ، لأن رئيسة الدير في الخارج ، فكان عليه أن يبقى ليُعنى بالمكان » .

ثم فكرت تشيكو بجواب . « يبدو أن الوالد يدرس الخطّ » .

« الخطّ ؟ » تكلمت والدتها وكأن الشيء ليس فوق العادة . « آمل أنَ تَعلُّمَ الخط سيهدِّئ من قلبه . لقد درستُ الخطَّ في يومٍ ما أيضاً » .

نظرت تشيكو إلى وجه أمّها المهيب وملامحها الجميلة . لم تكن هناك أية حركة في ملامحها تمكنَ تشيكو من تفسيرها .

« يا تشيكو » نادت أمُها برقّة . « يا تشيكو حينما يحين الوقت ، فليس من الضروري أن تتولي أمر المحلّ » . لم تستجبْ تشيكوَ ، لذا استمرّت « شگي » ، « إذا أردتِ ، فلكِ أن تتزوجي من عائلة أخرى وتتركي البيت » .

حتى الآن ، ما تزال تشيكو صامتة .

« هل أنت تصغين إليَّ ؟ »

« لماذا تتحدثين عن أشياء كهذه ؟ »

« يمكنني أن أخبرك بكلمة ، ولكنَّ عمري الآن خمسون سنة . لقد فكرتُ بماسأقوله لفترة » .

« ماذا لو أنك ووالدي تركتما العمل وتقاعدتما ، يا أمّي ؟ » تندّت عينا تشيكو الجميلتان .

« ليس من الضروري القيام بخطوة كبيرة... » ابتسمتْ والدة تشيكو قليلاً .

« يا تشيكو ، لقد قلتِ يجب أن نترك العمل . هل هذا ما تعتقدينه فعلاً ؟ » لم يكن صوت أمّها عالياً ، ولكنها بدت وكأنها تهاجم ابنتها . أو هل أن تشيكو تخيّلت الابتسامة على وجه أمّها ؟

« هذا ما أشعر به » أجابت تشيكو . خيط من الألم مرَّ عبر صدرها .

« أنا لستُ غاضبة . رجاءً لا تقطبّي هكذا . تعرفين مَنْ قد يكون الأكثر

حزناً بيننا ، الفتاة الشابة التي تقول إن على والديها أن يتركا العمل ، أو المرأة العجوز التي تسمعها وهي تقول ذلك» .

« سامحيني ياأمّي رجاءً »

« إنها ليست مسألة مسامحتك أم لا »

ثم ابتسمت أمّها حقاً . « لا يشبه هذا ما قلته قبل قليل أليس كذلك ؟ »

« لا أفهم ما أريد أن أقوله أنا نفسي » .

« يا أمّي »

« هل أخبرتِ والدك نفس الشيء في « ساغا » ؟

« لا ، لم أقلْ أيَّ شيء لأبي » .

« أخبريه وسترين ما الذي سيقول... رجاءً . إنه رجل ومن المحتمل سيغضب ، ولكنني متأكدة من أنه سيكون مسروراً في داخله» . أسندت أمّها جبهتها على يدها . « كنتُ أجلس وراء المكتب أفكّر بشأن والدك » .

« يا أمّي ، تعرفين ما الذي حدث ، أليس كذلك ؟ »

« ماذا تقصدين ؟ »

كانت الأم وابنتها صامتتين لبرهة . ثم نطقت تشيكو وكأنها لا تستطيع أن تبقى صامتة . « هل أذهب إلى « نيشيكي » لجلب شيء للغداء ؟ »

« إي ، من فضلك» .

قامت تشيكو وذهبت ناحية المحل ، نازلة إلى الأرضية الترابية في مدخل الغرفة . كانت الغرفة في الأصل ضيقة تمتّد بعيداً إلى الخلف . وعلى

الحائط المقابل للمحّل ، انتصبت أجهزة طبخ سوداء مصفوفة . هذا كان المطبخ .

والآن فإن هذه الأجهزة بالطبع لا تستعمل . فلقد نُصِب جهاز طبخ غازي في مدخل الغرفة ووضعت أرضية خشبية . كانت الأرضية الأصلية قد جُصِّصت ، وجعل التيار الهوائي شتاءات «كيوتو» قارسة على وجه الخصوص .

على أية حال بقي الموقد على حاله لم يُمَسّ ، ربما لأن الايمان بـ «كوجن» إله نار الموقد ما يزال شائعاً . علّقت تعويذة «شنتو»(٦) خلف المصطلى كإجراء احتياطي ضد النار . وانتصبتْ ، مصفوفة كذلك التماثيل الكبيرة الكروش ، «لهويتي» إله الحظ ، يشتري الناس تمثالاً واحداً كل سنة ، إلى مجموع سبعة ، في مزار «فوشيمي إناري» في شهر فبراير/ شباط . فإذا وقع موت في العائلة فعليهم إزالة التماثيل والبدء ثانية بتمثال واحد .

سبعة تماثيل آلهة انتصبت على المصطلى في المحل ؛ لم يقع موت منذ سبعة وحتى عشرة أعوام .

وُضعتْ مزهرية بيضاء من الخزف الصيني إلى جانب الآلهة المصفوفة على المصطلى . وكل يومين أو ثلاثة . تغيّر والدة تشيكو الماء ، وباعتناء تمسح الرفّ .

حالما مشت تشيكو في الشارع حتى رأت شاباً على وشك الدخول في الباب المشبّك . إنه من المصرف . فكّرتْ مع نفسها .

لم ينتبه إلى تشيكو .

ما من شيء يدعو إلى القلق إنه نفس موظف المصرف الذي يأتي دائماً . لكنَّ قدميْ تشيكو أصبحتا ثقيلتين وهي تمرَ أمام باب المحل المشبك ، جائلة أصابعها على طول كل سلك من المشبك .

توقفت تشيكو في الشارع ونظرت إلى الخلف ، إلى المحل ، وثمَّ نظرت إلى الأعلى . فلفتت نظرها اللوحة أمام النافذة المشبكة في الطابق الثاني . الظُّلة العليا الملصقة باللوحة علامة لمحل ذي مقام قديم ، ولكنها أيضاً وكأنها نوع من الزخرفة .

تلألأت شمس الربيع الهادئ الغاربة على حروف اللوحة ، تلك الحروف الباهتة التي أبْلَتْها عوامل الجوّ ، مما جعلها تبدو بائسة أكثر . كان لون ستارة باب المحلّ القطنية الثقيلة أبيض حائلاً ، مع خيوط كبيرة متدلية منها .

« حتى أشجار الكرز الحمراء المتهدلة الأغصان في صومعة « هينان » في بعض الأحيان حينما تكون وحيدة يقهرها هذا النوع من الشعور » . تشيكو أسرعت بعيداً .

كان الناس محتشدين قرب سوق « نيشيكي » كما هي الحال دائماً .

رأتْ تشيكو في طريق عودتها إلى البيت امرأة من « شيراكاوا » ونادت عليها « من فضلك توقفي عند بيتنا أيضاً » .

« وهو كذلك ، شكراً . هل أنتِ في طريقك إلى البيت ؟ » تساءلتِ المرأة . « أين كنتِ ؟ » .

« ذهبتُ إلى نيشيكي . وأنا كذلك أودّ أن اشتري أزهاراً منك لمصلّى العائلة » .

« آ ، شكراً . أنظري هل تحبين أي شيء منها » .

الأزهار في الواقع أغصان «ساكاكي»[٧] مثل تلك التي تستعمل في طقوس الشنتو لتمجيد أرواح الأبطال والأباطرة ، وعلى الأغصان براعم أوراق صغيرة .

تأتي المرأة من الـ «شيراكوا» في اليوم الأوّل والخامس عشر من كل شهر .

«إنني مسرورة جداً لأنك في البيت هذا اليوم» قالت المرأة .

جعل اختيار غصن صغير من الأوراق الفتية ، قلبَ تشيكو ينبض أسرع . دخلتْ إلى االبيت وهي تمسك بإحدى يديها غصناً من الـ «ساكاكي» . «يا أمّي ها أنذا عدتُ» . كان صوتها لامعاً .

فتحت تشيكو الباب المشبك ثانية جزئياً ونظرت إلى الشارع . كانت امرأة الـ «شيراكاوا» ما تزال هناك .

«أدخلي من فضلك واستريحي لوقت ما قبل أن تذهبي . سأحضّر لك شاياً» نادتْ تشيكو عليها .

«شكراً ، أنتِ دائماً طيبة جداً» . هزّت المرأة رأسها .

ومن ثَمَّ ، حاملة أزهارها فوق رأسها ، دخلت إلى الغرفة . «كل ما جلبتُهُ هو بعض أزهار الحقل البسيطة» .

«أحبُّ أزهار الحقل . شكراً على تذكّرك» . حدقت تشيكو بالأزهار التي جُمعتْ من المروج والجبال .

كانت ثمة بئر قديمة ، في داخل المدخل قرب المصطلى ، وعليها غطاء مضفور من الخيزران . وضعت تشيكو الـ «ساكاكي» والأزهار عليه .

«سأجلب مقصّاً ، آ ، وعليَّ أن أغسل أوراق الـ «ساكاكي»» .

« هذا مقصّ » . أخرجته المرأة . « بيتكم نظيف جداً دائماً . نحن بائعات الأزهار ممتنّات بالتأكيد لأناس من أمثالكم » .

« والدتي مدققة ، همّها الاتقان » .

« وأنتِ أيضاً يا آنسة » .

تشيكو صامتة .

« في كثير من البيوت في الوقت الحاضر يتراكم الغبار على المصطليات والمزهريات ، وأغطية الآبار وسخة . يمرّ بائعو الأزهار في هذه الأيام بأوقات عصيبة . شيء مؤسف تماماً . ولكن المجيء إلى هنا ، إلى بيتكم ، أشعر بالراحة والسرور » .

ما تزال تشيكو لا تتكلم . لا تستطيع أن تستجمع نفسها للحديث عن كيف يبدو العمل داخل بيتها يتدهور بمرور الأيام .

ما تزال « شكي » تجلس خلف مكتب تاكيتشيرو .

دعت تشيكو أمّها إلى المطبخ ، حتى تريها ما الذي اشترته من السوق . وبينما كانت تشيكو تنقل الحاجيات من السلّة ، اندهشت أمّها كيف باتت ابنتها مقتصدة . ربما لأن والدها بعيد في صومعة دير « ساغا » .

« أساعدك » قالت أمّها وهي تدخل إلى المطبخ . « هل كانت تلك ، بائعةَ الأزهار التي دائماً ما تأتي ؟ »

« نعم » .

« هل كتاب الرسوم الذي أعطيتِه لوالدك ، معه في « ساغا » ؟ » تساءلت الأم .

«لم ألاحظْه» .

«لم يأخذ إلاّ الرسوم التي حصل عليها منك ، أليس كذلك ؟»

في تلك الكتب رسومات لـ «بول كلي» ، «ماتيس» ، «شاغال» ، وكذلك الكثير من الرسامين التجريديين الحديثين . كانت تشيكو قد اشترتها لأبيها ظانّة أنها قد تبعث فيه حساسية جديدة .

«لا يهمُّ إذا لم يرسم والدك تصاميم أبداً ، يكفيه أن يتّجر بالسلع التي تُصبغ في مكان آخر لكنَّ والدك... ،» قالت «شگي» . «وأنتِ يا تشيكو طيبة بما يكفي لتلبسي الكيمونات التي يفصّلها والدك فقط . عليَّ أن أشكرك» واصلت أمّها .

«تشكرينني ؟ إنني أرتديها لأني أحبّها» .

«ألا تظنين أن والدك حزين حينما يرى الكيمونات والزنّانير التي ترتديها ابنته ؟»

«يا أمّي ، قد تبدو سطحية ، ولكنْ إذا دقّقت النظر فيها ، فإن فيها ذوقاً خاصاً . الناس يُطرونني بسببها» .

تذكرّتْ تشيكو أن حواراً كهذا جرى بينها وبين والدها سابقاً في ذلك اليوم .

«في بعض الأحيان تبدو فتاة جميلة حتى أكثر جمالاً بكيمونو بسيطة ، ولكن...» رفعت أمّها الغطاء عن القدر وتذوّقت الطعام المسلوق بعيدان الأكل . «إنه ليأخذني العجب لماذا لم يعدْ والدك قادراً على رسْمِ أيّ شيء مزخرف أو على آخر طراز . كان متعوداً على ابتكار تصاميم مدهشة وأصلية» .

«أنتِ ترتدين فصالات الوالد ، أيضاً» .

«أنا مسنّة ، لذا فلا يهمّ» .

«مسنّة ؟ مسنّة ؟ ما عمرك ؟»

«أنا مسنّة الآن ، و...» وتوقفت أمّها في منتصف الجملة .

«ماذا عن (الكنوز الثقافية الدقيقة) ، كنوز حيّة ، أليس هذا ما تُدعى به ؟ فصالات «ايدو» التي يعملها «كوميا» حينما ترتديها الشابات يظهرن حتى أكثر روعة . باديات التفوّق . يدير الناس رؤوسهم حينما يمررْنَ» .

«لا يمكن لوالدك أن يكون مثل «كوميا» الاستاذ» .

«فصالات الوالد تنبع من عمق موجة روحية» .

«تقولين أشياء صعبة كهذه» . تغيّر تعبير وجه أمّها . إهابها أبيض نقي ، طبق الأصل لامرأة من «كيوتو» . «لكن ، يا تشيكو ، إن والدك قال إنه سيصنع كيمونو ساحرة ليوم زفافك . إنني أتشوّق إلى ذلك منذ مدّة طويلة» .

«زفافي ؟» عبست تشيكو وصمتتْ لبرهة .

«يا أمّي ، ما الذي حدث في حياتك فقلب قلبك تماماً ؟»

«ربما تحدّثتُ عن هذا من قبل ، ولكن المرّة الأولى كانت حينما تزوجتُ ، والمرة الثانية حينما أنا ووالدك سرقناك يوم كنت طفلة صغيرة . التقطناك وهربنا بالسيّارة . كان ذلك قبل عشرين عاماً ، ولكن حتى الآن أشعر برعدة في صدري حينما أفكر بالأمر . يا تشيكو إلمسي قلب أمّك إنه يقرع بعنف» .

«لقد كنتُ يا أمّي ، لقيطة ، طفلة مهجورة ، أليس كذلك ؟ »

«لا ، لا » . هزّت أمّها رأسها بحدّة .

« «مرّة أو مرتين يقوم الناس في حياتهم بعمل ما شرير بدرجة مرعبة ، » واصلت أمّها . «اختطاف طفل أعمق إثماً من سرقة مال أو أي شيء آخر . ربما أكثر شراً من القتل . ربما جنَّ والداك الحقيقيان بالحزن . حينما أفكّر بذلك أشعر حتى الآن بالرغبة في إرجاعك ، ولكن فات الأوان كثيراً . إذا شئتِ التفتيش عن والديك الأصليين ، فلن اعترض سبيلك ، ولكنني من المحتمل قد أموت» .

« يا أمّي لا تقولي مثل هذه الأشياء . لديَّ أمّ واحدة فقط . شعرتُ دائماً هذا الشعور وأنا أكبر» .

«أفهم ذلك . وهذا يجعل إثمي أكثر سوءاً . أُدرك أنني ووالدك سنذهب إلى الجحيم... ماذا سيكون الجحيم ؟ أفضّل أن أذهب إلى الجحيم من أن أفقد ابنتي» .

كانت لهجة أمّها قاسية ، ولكنَّ الدموع باتت تجري على خدّيها . كانت تشيكو تكبح دموعها .

« يا أمّي ، من فضلك قولي لي الحقيقة . كنتُ لقيطة ، أليس كذلك ؟ »

«لا ، لقد قلتُ لك إنك لم تكوني لقيطة » هزّت أمّها رأسها مرّة أخرى . «لماذا تريدين أن تظني أنك كنت لقيطة ؟ »

«لا يمكنني أن أتصورك أنت ووالدي تسرقان طفلة» .

«ألم اخبرك للتوّ أن الناس يقومون مرّة أو مرتين في حياتهم بعملٍ ما شرّير بدرجة مخيفة ، يغيّر قلوبهم ؟ »

«إذا كان ذلك حقيقياً ، فأين التقطتماني ؟»

«تحت أزهار الكرز في الليل في صومعة «گيونْ» تكلمت أمّها بلا تردد . «ربما قلت لك من قبل ، لقد جلسنا تحت الأزهار المثمرة ، وكانت هناك طفلة جميلة وُضعتْ هناك لتنام . نظرتْ إلينا وابتسمت كالزهرة . لم استطع المقاومة فالتقطتها . حين فعلتُ ذلك ، طُعِن قلبي... لم استطع التحمّل . ضغطت خديَّ على خدّيها . حين نظرت إلى وجه والدك قال : «شگي ، لنأخذ هذه الطفلة» . «ماذا ؟» «اسرعي لنذهب» . «والباقي مثل حلم مسعور . أظنّ أننا قفزنا إلى السيارة ،مقابل محل الحساء في «هيرانو» . لقد ذهبت أمّ الطفلة لبرهة فقط . لقد سرقنا طفلتها في تلك البرهة» .

لم تتضمن قصة أمّها تفاصيل غير قابلة للتصديق .

«قَدَر... ثم أصبحتِ ابنتنا . لقد مرت عشرون سنة الآن . هل كان ذلك صالحاً أم طالحاً لك ؟ لا أدري . حتى لو كان ذلك صالحاً لك ، فانني دائماً أتوسل الغفران في قلبي... أظنّ أن والدك يحمل الشعور نفسه» .

«ذلك على ما يرام ، يا أمّي ، أعتقد على ما يرام» وضعت تشيكو كلا كفّيها على عينيها .

وما همَّ إن كانت تشيكو لقيطة أم أنها سرقت ، فقد سُجِّلت على أنها طفلة شرعية لعائلة «سادا» في سجلات الحكومة .

حينما أُخبرتْ تشيكو لأوّل مرّة ، إنها لم تكن في الحقيقة ابنتهما ، لم تصدّق والديها . وحين دخلت إلى المدرسة المتوسطة شكّتْ بكلمات والديها ، ظانة أنهما رويا لها القصة ، لأنهما مستاءان من شيء ما يتعلق بها .

خوفاً من أن تشيكو ستسمع شيئاً من الجيران ، قرر والداها أن يكشفا لها عن الحقيقة أولاً ، وكانا مقتنعيْن أنها تحبهما ، وانها قد بلغت عمراً تستطيع معه تفهّم الأمر .

جفلت تشيكو لكنّها لم تكن حزينة . لم يقلقها الأمر حتى حين بلغت سنَّ المراهقة . عاطفتها نحو شگي وتاكيتشيرو لم تتغير . وليس هناك أية اشارة لمشكلة سيواجهانها . كذا كانت طبيعة تشيكو .

لكن إذا لم تكن ابنتهما الحقيقية ، فلا بدَّ أن يكون والداها الأصليّان موجوديْن في مكان ما . وربما لديها إخوان وأخوات أيضاً .

« لا أريد أن أراهما في الواقع لكن... ، » فكرتْ تشيكو . « بالتأكيد يعانيان من ألم أكثر مما أعاني أنا هنا » .

ما من طريقة لتشيكو أن تعرف . أن تأثير الحياة مع والدها ووالدتها ، هنا في هذا المحل القديم بأبوابه المشبكة وموضعه المنعزل العميق ، دفع تشيكو لأن تضع يديها على عينيها في المطبخ .

« يا تشيكو » وضعتْ شگي يديها على كتف ابنتها . « رجاءً لا تسألي عما حدث منذ زمن طويل . في بعض الأحيان ، في بعض الأماكن ، ثمة جواهر تسقط على هذه الأرض » .

« جوهرة ، جوهرة فاخرة . تمنيتها لو كانت واحدة تُصاغ منها حلقة » . دارت تشيكو وشرعت تعمل بجدّ .

بعد الغداء ، نظفت تشيكو وأمّها المكان ورتبتاه ثم ذهبتا إلى الطابق العلوي في القسم الخلفي من البيت .

نام الشبان الذين يعملون في المحل في الحجرة الواطئة السقف ذات

الشبابيك المشبكة . الصالة إلى جانب الحديقة الوسطى تفضي إلى الطابق الثاني . يمكن الوصول إليها من المحلّ أيضاً . غالباً ما تدعو عائلة «سادا» زبائنهم المفضلين فينزلون لليلة في غرفة الطابق الثاني . أما في الوقت الحاضر ، فتجري معظم تعاملاتهم في قاعة الاستقبال المواجهة للحديقة الوسطى . تدعى قاعة ولكنّها تمتدّ من المحلّ إلى خلف المبنى . تُركَنُ الأقمشة والملبوسات الجاهزة في أكداس على الجانبين وتطفح من الرفوف . الغرفة طويلة وواسعة ، لذا فإنها مكان نافع لنشر السلع وعرضها على الزبائن . حصيرة من شجر الخيزران مبسوطة على الأرض طيلة أيّام السنة .

السقف عالٍ في نهاية الطابق الثاني . ثمة غرفتان واحدة للنوم والأخرى للجلوس ، لتشيكو ووالديها . جلست تشيكو أمام المرآة فاكّة شعرها المرتبَ بدقة دائماً .

«يا أمّي» نادت تشيكو على أمّها في الغرفة المجاورة . أفكار قلقة جعلتْ صوتَها غائماً .

الحواشي

(١) No أو Noh : دراما يابانية ازدهرت في القرن الرابع عشر . ربّما من طقوس الرقص المتعلقة بعبادة الـ « شنتو » . كانت الـ « نو » مسرحيات شعرية (وعددها حوالي ٢٠٠) موجهة للارستقراطيين .

(٢) Edo : من ١٦٠٣ إلى ١٨٦٨ .

(٣) سوتاتسو : مؤسس أسلوب ألـ Rimpa في الرسم . ذاع صيته ما بين ١٦٠٠-١٦٤٠ . حاول إحياء أعراف الرسم في العصور الوسطى (ت ١٦٤٣ ؟) .

(٤) كورنْ (١٦٥٨-١٧١٦) وُلد لعائلة موسرة . كان والده صاحب محل نسيج في كيوتو . وهو رسّام ومصمم في عصر ايدو . كان متشرّباً بالموضوعات الكلاسيكية كما تأثر بأسلوب سوتاتسو مع أناقة طريّة وحسّ زخرفي في التصاميم .

(٥) من تأليف سيدة البلاط موراساكي شكيبوْ في الربع الأول من القرن الحادي عشر .

(٦) Shinto = شنتو : تُعرف باليابانية Kami No Michi أي طريق الآلهة وهي دين ياباني محلّي يُعنى بعبادة الاسلاف والطبيعة .

(٧) Sakaki : شجرة دائمة الخضرة من عائلة شجر الشاي . تنمو في الغابات الجبلية الدافئة . في الاعتقادات اليابانية القديمة أن الآلهة تسكن في الأشجار الدائمة الخضرة ، مما أدّى إلى استعمال هذه الشجرة لترسيم حدود المكان المقدّس أو لتقديم القرابين إلى الأرباب في الطقوس الشنتويّة .

مدينة
منتوجات الكيمونو

ولو أنَّ « كيوتو » مدينة واسعة ، إلاّ أن لون الأوراق هناك جميل .

حدائق الصنوبر في « غوشو » والڤيلا الامبراطورية في « شوغاكوين » ، والأشجار في الحدائق الكبيرة للصومعات القديمة ، كلّها تأسر عين السائح ، وهو عين ما تفعله كذلك صفوف أشجار الصفصاف المتهدلة الأغصان (الباكية) في وسط المدينة ، على طول ضفتي نهر « تاكاسي » في « كيا » و« غوجو » و« هوريكاوا » . تبكي أشجار الصفصاف حقيقة ، أغصانها تتهدل كأنها ستلمس الأرض . كم نبيلة هي تلك أشجار الصفصاف وأشجار الصنوبر الحمراء في « كيتاياما » ، التي ترسم دوائر ناعمة تبدو وكأنها تتصل الواحدة منها بالأخرى .

الآن هو فصل الربيع في العاصمة القديمة . والكتل الكبيرة من الأوراق الفتية تشكّل نماذج فصالات لونية على جانبي« هيكاشييياما » و« هيئزان » .

الأشجار في « كيوتو » مدينةٌ بمظهرها الآسر إلى جمال المدينة ونظافتها . الشوارع الضيقة في أماكن مثل « گيون » ، لم تكن قذرة قطَ حيث البيوت الصغيرة ، الوقور ، الشائخة تقف جنباً إلى جنب .

في المناطق حوالي « نيشيجن » ، كذلك ، حيث المحالّ الصغيرة المكربة لبيع ثياب الكيمونو تحتشد معاً ، فإن الشوارع نظيفة . الغبار لا يتراكم قطّ حتى على المشبّكات الفاخرة للأبواب . وفي حديقة دراسات النباتات ، أيضاً ، لا تعثر على قصاصة ورق مرمية هناك . لقد بنى الجيش الأمريكي بيوتاً في حديقة دراسات النباتات ، مانعين ، بالطبع ، أيَ ياباني من الدخول ، لكنْ الآن بعد مغادرة جيش الاحتلال ، عادت الحدائق إلى سابق عهدها .

كان « أوتومو سوسوكه » الذي يعيش في « نيشيجن » يستمتع بالطريق المصفوفة بأشجار الكافور في حديقة دراسات النباتات . لم تكن الأشجار طويلة جداً ، ولم يكن الشارع طويلاً ، لكن ، قبل الاحتلال ، كان « سوسوكه » غالباً ما يذهب للتمشي هناك عندما يحين طلوع الأوراق . كثيراً ما كان « سوسوكه » يتساءل ما الذي حدث للأشجار ، بينما هو جالس وسط صوت أنوال الحياكة الصاخب . جيش الاحتلال لم يقطعها بالتأكيد .

كان « سوسوكه » ينتظر منذ أمد طويل إعادة فتح حديقة دراسات النباتات . فدرب تمشّيه المعتاد ، ومنه يستطيع رؤية « كيتاياما » ، كان خارج الحديقة على ضفة نهر « كامو » .

على الرغم من أن الحديقة قريبة من نهر « كامو » ، إلاّ أنَّ « سوسوكه » يقطع المسافة عادةً في ظرف ساعة . كان مستغرقاً تماماً في أحلام يقظة عن تلك النزهات التي قام بها مشياً على الأقدام ، عندما نادت عليه زوجته . « السيد سادا » يريدك على الهاتف . يبدو أنه في « ساغا » .

« تاكيتشيرو » يطلبني من « ساغا » ؟ خطا « سوسوكه » إلى الطاولة .

كان « سوسوكه » ، الحائك ، أصغر بأربع أو خمس سنوات من « سادا »

البائع بالجملة . كأنهما حتى خارج نطاق تعاملاتهما المهنية ، منسجمان مع بعضهما بعضاً . أيام شبابهما كانت هناك أوقات يمكن أن تدعوهما فيها « صحبة سوء » ، ولكنهما في المدّة الأخيرة ، افترقت بهما السبل .

« سوسوكه » أجاب نداء الهاتف . « أنا « أوتومو » يتكلم . لقد مرّت مدّة طويلة ، أليس كذلك ؟ »

« آ ، أوتومو » ، لعلع صوت تاكيتشيرو .

« ما الذي تفعله في « ساغا » ؟ » ، سأله سوسوكه .

« لقد عزلتُ نفسي في صومعةِ ديرٍ هادئة » .

« رجاءً ، أعذرني ، هل سأتجرأ فأشير بأن هذا بالأحرى موقف مريب » . تكلم « أوتومو » بأدبٍ غير صادق . « لقد سمعت عن تلك الأديرة » .

« لا ، إنها صومعة حقيقية . هناك رئيسة دير مسنّة و... »

« لك ما تقول . رئيسة دير مسنّة واحدة فقط . حتى ولو كان الأمر كما تقول يا « سادا » فيمكنك أنت وفتاة ما شابة أن... »

« أنت يا أحمق » ضحك تاكيتشيرو . « أريد أن أسألك أن تقوم لي بفضل هذا اليوم » .

« نعم ؟ »

« هل لديك مانع لو زرتك لمدّة قصيرة ؟ »

« لا ، بالتأكيد . زرني رجاءً » . كان « سوسوكه » متشككاً . « لن أخرج إلى أيِّ مكان . يمكنك سماع أنوال الحياكة على الهاتف . أليس كذلك ؟ »

«في الحقيقة هذا ما أريد التحدث عنه . جميل أن يسمع المرء ذلك الصوت» .

«أيَّ شيء آخر توقعتَهُ ؟ ما الذي يمكنني أن أفعله لو تَوَقفتْ ؟ هذه ليست ديراً ما منعزلاً» .

استغرق الطريق أقلَّ من نصف ساعة حتى وصل «سادا تاكيتشيرو» إلى محل «سوسوكه» بالسيارة . بدتْ عينا «سادا» تتلألآن وهو يفتح بسرعة الحزمة .

«أردتُ أن أسألك أن تحوك هذا» . فكَّ تصميمه .

«آه ، حدّق «سوسوكه» في وجه «تاكيتشيرو» . «هذا الزنّار بالأحرى على آخر طراز على غير العهد بك ، .... مبهرج . همْمْمْ... هل هو لامرأة ما تتعهدها في صومعة الدير تلك ؟»

«من غير المحتمل»ضحك تاكيتشيرو . «إنه لابنتي» .

«حقاً ؟ ، أنا متأكد أنها ستُدهش حينما تراه ، لكن هل تظنّ أنها ستلبس شيئاً كهذا ؟»

«في الحقيقة إن تشيكو نفسها أعطتني بعض الكتب لرسومات كلي KLEE[(١)] لإلهامي» .

«كْلَيْ ؟ مَنْ هو كْلَيْ ؟»

«إنه رسام في طليعة الحركة التجريدية . رسوماته رقيقة ، استثنائية . يمكنك أن تقول إنها تمتلك صفة الحلم ، صفة تتكلم حتى لقلب ياباني مسنّ ، مثلي . لقد درستها مرات ومرات إلى أن طلعتُ بهذا التصميم . إنه يختلف عن أيِّ تصميم ياباني مألوف» .

«نعم هو كذلك» .

«أتساءل كيف سيبدو كزنّار ، لذا فكّرتُ أنك ستحوكه» . حماسة تاكيتشيرو لا تنطفئ .

فحص «سوسوكه» التصميم لبرهة .

«همْ ، إنه رائع . الانسجام اللوني... دقيق . لم ترسم قطّ شيئاً مبتكراً كهذا من قبل ، مع ذلك فهو متماسك . حياكته ستكون صعبة . لكن سنعمل ما في وسعنا ونرى . يُري التصميم احترام ابنتك لأبويها وتعلّق أبويها بها» .

«شكراً ، إن الناس في هذه الأيام سرعان ما يستعملون كلمة انكليزية مثل «Idia ـ فكرة» أو «شعور Sense» حتى الألوان الآن يُشار إليها بتعابير غربية على آخر موضة» .

«تلك ليست أشياء جيّدة» .

«إنني أكره أن تلك الكلمات الغربية باتت متداولة . ألا توجد ألوان أنيقة بروعة ، في اليابان منذ العهود القديمة ؟» .

«حتى للون الأسود درجات دقيقة متفاوتة» أومأ «سوسوكه» برأسه . هناك بعض صناع الزنّانير من أمثال محلّ «إزيكورا» . لديهم معمل حديث في بناية ذات أربعة طوابق من الطراز الغربي . ربما ستحذو «نيشيجين» الطريق نفسه . يصنعون خمسمائة زنّار في اليوم ، وعما قريب سيشترك المستخدمون في إدارة الشركة . معدل عمر المستخدمين بين العشرين والثلاثين . الأشغال الصغيرة التي تُصنع في البيوت ، مثل شغلي ، بأنوال يدوية ربما ستختفي في عشرين أو ثلاثين سنة» .

«ذلك شيء سخيف»

«إذ بقي واحد مثلك ، ألا يمكن أن يلقى رعاية حكومية «ككنز ثقافي غير ملموس» ؟...»لماذا ، يا «سادا» حتى شخص مثلك مع رسآمك كُلَي ، أو أياً كان...»

«لقد ذكرت «پول كْلَيْ» ولكن ليس ذلك كل شيء . لقد عزلتُ نفسي في ذلك الدير لعشرة أيام ـ لا ، لمدة أسبوعين ـ كاداً ذهني ليلاً ونهاراً . أليست الألون والتصاميم رفيعة ؟» تساءل تاكيتشيرو .

«رفيعة جداً ، ومحسّنة . أنيقة بطريقة يابانية» . استمر «سوسوكه» بسرعة . «أُدرك أنه من عملك لا ريب . سنحوكه زنّاراً رقيقاً من أجلك . سأرسل التصميم إلى محل جيّد ، للحصول على تصميم حياكة لممشطات النول وقد رُسِمتْ بدقة . أعتقد أنني سأجعل «ايديو» يحوكه بدلاً مني . إنه ابني الأكبر تعرفه ، أليس كذلك ؟»

«نعم» .

«حياكته أكثر دقة من حياكتي بكثير» قال سوسوكه .

«طيب ، أَتركُ ذلك لحصافتك . إنني أدعو نفسي بائع كيمونو بالجملة ، لكن كل ما أعمله هو إرسال السلع إلى الأماكن القروية الصغيرة» .

«لا تقلْ أشياء كهذه» .

«على أية حال ، أعرف أن هذا ليس زنّاراً صيفياً . إنه لفصل الخريف ، ولكن أريد أن أراه بالسرعة الممكنة» .

«أفهم ذلك . وماذا عن كيمونو تنسجم مع الزنّار ؟»

«لم أفكَرْ إلاّ بالزنّار لحدّ الآن» .

« ما دمتَ بائعاً بالجملة ، أظن أنك تستطيع أن تختار أي شيء من المخزون ، لذا فلا يهمّ ما الذي تختاره أولاً . ألا تقوم بهذا للتحضير إلى زواج ابنتك ؟ »

« لا . لا » . بدأ تاكيتشيرو يحمرّ خجلاً كأنما كان السؤال عنه .

الحياكة اليدوية ـ كما قيل ـ صعبة لا يمكن أن تُنقل إلى ثلاثة أجيال . حتى لو كان الأب حائكاً متفوقاً ، حتى لو امتلك ـ إن صحَّ التعبير ـ يد فنان ، فإن قابليته لا يرثها بالضرورة أولاده . ليس لأن الابن سيهمل عمله عن عمد ، معتمداً على انجازات والده ، لأن الابن قد لا يكون موهوباً ، على الرغم مما سيبذل من جهد بحماسة .

يُدرَّس الطفل في أكثر الأحايين أولاً كيف يلفّ خيطاً حين يكون في الرابعة أو في الخامسة . ومن ثَمَّ في العاشرة أو الثانية عشرة من عمره يتمرّن ليصبح تلميذاً للحائك . أخيراً قادراً على أن يحوك بأجور . لهذا السبب فإن الأطفال في العوائل الكبيرة يساعدونها في الثراء . حتى المرأة المسنّة ذات الستين أو السبعين سنة تستطيع أن تلف الحرير داخل البيت ، لذا ، ففي كثير من البيوت تجلس الجدّة مع حفيدتها تعملان معاً .

في بيت «اتومو سوسوكه» تلفّ زوجته المسنّة خيط الزنار . فجلوسها يوماً بعد يوم تشتغل وعيناها مبتلتان أهرمها فوق سنينها وجعلها صامتة . لاتومو ثلاثة أبناء وكل منهم يحوك الزنّار في نوله الخاص . فامتلاك ثلاثة أنوال أفضل بلا شك من المعدل المتوسط ، فكثير من المحالّ لديها نول واحد فقط ، بينما آخرون يستأجرون أنوالهم . لقد فاقت مهارة «ايديو» ، مهارة أبيه وكان معروفاً حتى بين بائعي الجملة ، والحائكين الآخرين .

«ايديو ، ايديو» نادى سوسوكه ، ولكنَّ ابنه لم يسمعْ . على خلاف الأنوال الميكانيكية التي لا تحصى ، في المعامل الكبيرة ، فإن الأنوال الخشبية الثلاثة في محلّ «سوسوكه» لا تصنع ضوضاء كثيرة . ظنَّ «سوسوكه» أنه نادى بصوت عال بما فيه الكفاية ، إلاّ أن صوته لم يصل إلى «ايديو» ، الذي كان يجلس إلى النول بعيداً ، قريباً من الحديقة وغارقاً في حياكة زنّار مقلّم صعب .

«يا أمّ ، ألا أخبرتِ «أيديو» ليأتي إلى هنا» قال سوسوكه لزوجته .

«نعم» . نفضت حضنها ونزلت إلى غرفة الاستقبال ، وبينما كانت تسير نحو نول «ايديو» ضربتْ عجيزتها الصغيرة بقبضتيها لإراحة الإجهاد من جرّاء جلوسها طويلاً .

مُوقِفاً عارضةَ النول القصبيّة ، نظر ايديو نحو والده ، ولكن لم يقمْ فوراً . ربما كان متعباً ، لكن عارفاً بوجود زبون يراقبه ، فإنه لم يُثنِ ذراعيه أو يمطَّ ظهره . أخيراً ، نشّف وجهه ودنا من والده وتاكيتشيرو .

«شكراً على مجيئك ، آسف لأن المكان فوضى ، » رحب بتاكيتشيرو بكآبة . بدا وكأن عمله ما لبث في وجهه وجسمه .

«لقد صمم السيد «سادا» زنّاراً ، وسنقوم نحن بحياكته» قال والده .

«أفهمُ ما تقول» لم يُظهرْ صوت «ايديو» تحمساً .

«هذا زنّار مهم ، لذا فبدلاً من أقوم به بنفسي ، أظنّ من الأفضل لو أنك تحوكه» .

«هل هو لابنتك تشيكو ؟» أدار ايديو وجهه الشاحب نحو «سادا» للمرة الأولى .

لم يكن تعبير «ايديو» بالأحرى مضيافاً بقياس رجل من «كيوتو» . حاول والده سوسوكه تقديم الأعذار له .

«ايديو متعب من العمل طيلة الصباح» .

«إنه لمدهش أن يكون غارقاً في عمله» . حاول تاكيتشيرو أن يطمئنه .

«لم يكن أكثر من زنّار مقلّم ، ولكنني كنت غارقاً فيه تماماً . أعذرني» . حنى ايديو رأسه .

«على ما يرام . يجب أن يكون الحائك كذلك» ردَّ تاكيتشيرو برأسه مرتين .

«حتى أية قطعة مهما كانت تافهة فإنها تُعرف على أنها من عمل محلنا ، لذا فمن المزعج أن تكون دائماً حذراً جداً» .

نظر ايديو إلى الأسفل .

«ايديو» ، وضع سوسوكة عزماً جديداً في صوته . «تصميم السيد «سادا» مختلف . لقد عزل نفسه في دير في «ساغا» لرسمه . لن يكون للبيع» .

«حقّاً . همْمْ... دير في «ساغا»...»

«إسألْه أن يريك أياه» .

جاء تاكيتشيرو إلى محل «اوتومو» بروح عالية ، إلا أنها انخمدت كثيراً من جرّاء موقف ايديو .

فتح الرسم أمام ايديو الصامت .

« ما رأيك ؟ » سأل تاكيتشيرو بخوف .

حدّق ايديو دون أن يتكلم .

« أليس صالحاً أبداً ؟ »

لم يجب ايديو .

نفد صبر سوسوكه بصمت ابنه الحرون . « يا ايديو الا تظنّ أنه من الفظاظة ألا تجيب ؟ »

« نعم » . ما يزال لا ينظر إلى الأعلى . « أنا حائك ، لذا فإنني أفحص تصميم السيد « سادا » . ليست هذه قطعة لا أهمية لها . هذا الزنّار لتشيكو ، أليس كذلك ؟ »

« نعم » أجاب والده . كان متشككاً بتصرّف ايديو غير الطبيعي .

« أليس صالحاً » كرّر تاكيتشيرو ، وباتت نبرته أكثر خشونة .

« إنه رائع ، » كان ايديو هادئاً . « لم أقلْ قط أنه ليس صالحاً » .

« لم تقلها ولكنْ في قلبك... هاتان العينان قالتا ذلك » .

« حقّاً ؟ »

« ماذا تعني... » قام تاكيتشيرو وصفع ايديو على وجهه . لم يحاول ايديو أن يتفادى الصفعة .

« إضربْني بقدر ما تشاء . لا أحلم أبداً بأن أقول إن تصميمك فقير » . ربما بسبب الصفعة بات وجه ايديو مفعماً بالحيوية .

انحنى ايديو واطئاً واعتذر ، ولم يكلف نفسه مداراة خده الآخذ بالاحمرار .

« أعذرني يا مستر « سادا » » .

لم يتكلم تاكيتشيرو ، لذا واصل ايديو : «ربما تكون قد أُهنت ، لكنني أريد أن أحوك هذا الزنّار» .

«هذا ما جئت من أجله... لأطلب منك» حاول تاكيتشيرو أن يُهدئ صدره . «رجاءً أعذرني ، أنا أكبر سنّاً وكان عليَّ أن أتصرف تصرفاً أفضل... يدي توجعني من صفعك» .

«كان عليَّ أن أُعيرك يدي . جلد يد الحائك قوي» .

ضحك الرجلان ، إلا أن الأسى العميق في قلب تاكيتشيرو لا يريد أن يتلاشى .

«كم من السنوات قد مَرت منذ أن ضربتُ أحداً . كثيرة جداً لا يمكن أن أتذكرها . حسن لقد سألتك فعلاً أن تعذرني عن ذلك . ما أريد أن أسالك عنه يا ايديو هو : حينما نظرت إلى تصميمي ، لماذا لويتَ وجهك باستغراب ؟ أخبرني بصدق ؟ »

«نعم» قطّب ايديو وجهه للمرة الثانية . «أنا شاب ومجرد عامل ، لذا فأنا لا أفهم أشياء كهذه فهماً جيداً . لكنك قلتَ إنك عزلتَ نفسك في دير في «ساغا» لرسم التصميم ، أليس كذلك» ؟

«نعم ، كنتُ في الصومعة هذا اليوم . دعني أتذكر . لقد مرَّ أسبوعان منذ...»

«تخليت عنه! » تكلم ايديو بقوة . «تعود إلى البيت» .

«لا استطيع الراحة في البيت» .

«تصميم هذا الزنّار رائع ، مبهرج ، ابتكاري ، ولكنني أجده لسبب ما مرعباً . انني مندهش كيف لك أن ترسم تصميماً كهذا . ذلك هو سبب

تحديقي به ، إنه مثير في النظرة الأولى ، ولكن ليس فيه تناغمُ قلبٍ حنون . إنه موجع ومرعب » .

شحب وجه تاكيتشيرو وارتجفت شفتاه . استعصت الكلمات .

« ربما هناك ثعالب وحيوانات الغريرات حول تلك الصومعة المتوحدة . لا أعني أنك كنت منسحراً بها ، لكن... »

سحب تاكيتشيرو التصميم صوب ركبتيه وراح يحدق اليه بتركيز . « حسن . شكراً على ما قلته . أنت شاب تثير الإعجاب بالنسبة إلى عمرك . شكراً . سأفكر بذلك مرّة ثانية وأرسمه من جديد » .

طوى تاكيتشيرو التصميم بسرعة وحشاه في جيبه .

« لا تفعل ذلك! إنه رائع كما هو . حينما يُحاك سيكون له جوّ مختلف . النسيج والخيوط المصبوغة ستصنع اللون... »

« شكراً ، يا ايديو . هل ستحوك هذا الزنّار ، ملهباً اللون بالعاطفة التي اكنّها لابنتي ؟ » انصرف تاكيتشيرو ، خارجاً عبر البوابة .

في الخارج مباشرة ، يوجد جدول صغير يناسب العاصمة . حشائش قديمة نامية على الضفة ، مائلة ناحية الماء . الحائط الأبيض قرب الضفة ربما هو جزء من بيت « أتومو » . عفس تاكيتشيرو التصميم في جيبه . ثمَّ أخرجه ، ورماه في الماء .

كانت « شگي » حائرة مرتبكة من نداء تاكيتشيرو التلفوني غير المتوقع من ساغا وهو يسألها أن تأتي إلى « أمورو » مع تشيكو لمشاهدة الأزهار . لم تذهب شگي قط لمشاهدة الأزهار مع زوجها من قبل .

« تشيكو ، تشيكو ، » نادت « شگي » على ابنتها ، كأنما تطلب منها مساعدة . « أنه والدك . هل لك أن تجيبي النداء ؟ »

تناولت تشيكو التلفون ، مصغية ويدها على كتف أمّها .

«نعم ساجلب أمّي معي . انتظرنا في صالة الشاي مقابل صومعة «نيناجي» . نعم... باسرع ما يمكن» .

أعادت تشيكو السماعة . مبتسمةً ، قالت لأمّها . «إنها دعوة لنذهب ونشاهد الأزهار . تبدو عليك الحيرة يا أمّي» .

«لماذا طلب مني المجيء ؟»

«قال إن أزهار الكرز في «أمورو» هي على أفضل ما تكون عليه الآن»

عجّلت تشيكو أمّها المترددة وهما تغادران المحل . ما تزال «شگي» حائرة .

الكرز الصغير والكرز الناضج في «امورو» تفتح متأخراً عن أكثر الكرز في المدينة ، من المحتمل أن البقايا الأخيرة من أزهار الكرز ما تزال في العاصمة .

كانت غياض الكرز داخل البوابة الرئيسة ، إلى يسار «نيناجي» فائضة بالأزهار . مقاعد واسعة مصفوفة على طول الممر في غيضة الكرز ، وكانت هناك حركة وجلبة لأناس يشربون ويغنون في حشد صخّاب . القرويات المسنآت يرقصن بمرح ، بينما الرجال السكارى يتمددون نائمين ، يشخرون . حتى أن بعض الرجال يسقطون من المقاعد .

«لا أستطيع أن أتحمله . إنه مزعج» ، وقف تاكيتشيرو وهو يتفرج على المشهد . لم يذهبوا ثلاثتهم إلى الأزهار المتفتحة . لقد عرف تاكيتشيرو أشجار الكرز في «أمورو» منذ زمن بعيد .

ارتفع دخان من النيران من بين الأشجار في نهاية الحديقة ، من حيث كانت تحرق النفايات التي يتركها المتنزهون .

«دعونا نذهب إلى مكان هادئ . أليس كذلك يا «شگي» ؟» ، تساءل تاكيتشيرو .

وبينما هم يدورون للذهاب ، رأوا قرب المقاعد ست أو سبع فتيات كوريات بملابس كورية وهن يضربن طبولاً كورية ويرقصن رقصاً كوريا ، تحت أشجار الصنوبر الطويلة قبالة غيضة الكرز . سيكون هذا المشهد بالتأكيد منظراً أكثر روعة . يمكن للمرء أن يلمح أشجار الكرز الجبلية بين أشجار الصنوبر .

وقفت تشيكو لمراقبة الرقصة الكورية .

«يا أبي ، مكان أكثر هدوءاً سيكون أفضل . ما رأيك في الذهاب إلى حديقة تربية النباتات ؟»

«ربما ذلك أفضل . كل ما يحتاجه المرء ، هو إلقاء نظرة على أشجار الكرز في «أمورو» ويكون قد قام بواجبه للربيع» . خرج تاكيتشيرو من البوابة الرئيسة ، وذهب إلى السيارة .

فَتحتْ حديقة تربية النباتات أبوابها منذ فترة قصيرة في شهر/ ابريل نيسان... وبدأ القطار من محطة كيوتو إلى الحديقة يعمل في فترات أكثر .

«إذا كانت هناك حشود من الناس في حديقة تربية النباتات ، فدعونا نمشي بدلاً عن ذلك إلى جانب نهر كامو» . قال تاكيتشيرو لشگي .

مرت السيارة عبر مرج المدينة . بانت الأوراق الجديدة زاهية أكثر

بتباينها مع خلفية البيوت القديمة المشرّبة بألوان عتيقة ، أكثر من البيوت الجديدة .

تنفتح حديقة تربية النباتات بشساعة خلف البوابة أمام الطريق المصفوف بالأشجار . تقع ضفة نهر «كامو» إلى اليسار .

حشرت «شگي» تذاكر الدخول في زنّارها . انفتح قلبها لمّا نظرت إلى المنظر الفسيح . قمم الجبال فقط هي التي يمكن رؤيتها من مدينة «الكيمونو» ، ونادراً ما كانت «شگي» تخرج إلى الشارع أمام المحل .

الخزامى تتفتح حول النافورة أمام حديقة تربية النباتات .

«ليس هذا شيئاً تراه عادة في «كيوتو» ، قالت «شگي» . «ليس من الغريب أن يقيم الأمريكيون بيوتهم هنا» .

«أظن انها بُنيتْ بعيداً إلى الخلف» ، قال تاكيتشيرو .

وبينما هم يدنون من النافورة ، انتثر رذاذ ناعم في الهواء ، مع أنه لم يكن هناك كثير من الريح . مستنبت دائري ذو إطار فولاذي قائم في الجهة اليسرى البعيدة من النافورة . نظروا ثلاثتهم إلى النباتات الاستوائية ، لكن لم يدخلوا ، فليس لديهم سوى وقت قصير للتنزه .

إلى يمين الطريق هناك شجرة أرز ضخمة من جبال الهملايا تُطلع فروعاً . الأغصان الدنيا للشجرة انتشرت فوق الأرض بقليل . وعلى الرغم من إنها تدعى «الشجرة الإبرية» ، إلاّ ان الخضرة الناعمة االجديدة لا تشير إلى إبر . بدلاً من ذلك ، فلها سيماء شبيهة بالحلم .

«لقد تفوّق عليَّ ابن «أوتومو» الأكبر ، بالتأكيد» ، قال تاكيتشيرو بدون سابق إنذار . إنه أفضل من والده . عيناه حادّتان ؛ يستطيع أن ينفذ

في عمق الأشياء » . بالطبع لم تفهم « شگي » ولا تشيكو تماماً حديث تاكيتشيرو لنفسه .

« هل رأيتَ ايديو ؟ » سألت تشيكو .

« بلغني إنه حائك جيد ، » قالت شگي . لا يحبُّ تاكيتشيرو عادة أن يُلَّح عليه لإعطاء تفاصيل .

ذهبوا حول الجانب الأيمن للنافورة . ثمة ملعب للأطفال في نهاية الممشى . يمكن سماع أصوات كثيرة ، وقد رُتِّبتْ حقائب الأطفال معاً على الأرض .

حينما انعطفتْ عائلة سادا إلى اليمين في ظلّ الأشجار ، انحدر الممشى بلا توقّع ناحية حقل الخزامى . كانت الأزهار وهي في أوج تفتحها ، فاتنة لدرجة كادت معها تشيكو أن تتحدث بصوتٍ عالٍ . حمراء ، صفراء ، بيضاء ، بنفسجية بدكنة كاميليا سوداء ، كل واحدة منها تتفتح في حقلها الخاص .

« إن رؤيتها تجعلني أفكر أنني يجب أن استعمل الخزامى في تفصيل الكيمونو ، لقد فكرتُ أنه سيكون سخيفاً » ، تأوّه تاكيتشيرو .

وبينما واصل تاكيتشيرو النظر إلى الحقول ، تساءل مع نفسه ـ ما إذا كانت الأغصان الدنيا لشجرة الأرزّ المتبرعمة الهملايانية تشبه كما قيل طاووساً ينشر ريش ذنبه ، فبأيِّ شيء يمكن للمرء تشبيه الخزامى المتعددة الألوان وهي تتفتح هنا بوفرة كبيرة ؟ بدتْ تلك الألوان وكأنها تصبغ السماء وتنعكس داخل جسم الإنسان نفسه .

ابتعدتْ « شگي » عن زوجها قليلاً ، مقتربة من ابنتها . استغربتْ تشيكو ، ولكن وجهها لم يُظهرْ استغرابها .

« يا أمّي ، تلك المجموعة من الناس أمام حقل أزهار الخزامى البيضاء يشبهون وسطاء الخطوبة » . همست تشيكو في حين كانت تنظر إلى شاب وشابة يرتّبان موعدهما الأول أمام الأزهار .

« نعم يشبهون وسطاء الخطوبة » .

« لا تنظري إليهما يا أمّي » سحبتْها تشيكو من ردنها .

ثمة بحيرة وفيها سمك الشبّوط تقع أمام حقول أزهار الخزامى .

قام تاكيتشيرو من المقعد وسار ليرى الخزامى عن قرب . انحنى ممعناً النظر في كتلة من الأزهار . بعدئذ رجع إلى تشيكو وزوجته .

«الأزهار (الغربية) زاهية ، لكنني أضجر منها . بالطبع أحب غيضة الخيزران أكثر » . قامت « شگي » وتشيكو .

كانت حقول الخزامى في غورٍ محاط بالأشجار .

« يا تشيكو ، إن حديقة تربية النباتات ، قد صُمّمتْ على طراز الحدائق (الغربية) ، أليس كذلك ؟ » سأل تاكيتشيرو ابنته .

« لست متأكدة ، ولكن أظنّها كذلك ، إلى حدّ ما » ، أجابت تشيكو .

« هل لنا أن نبقى مدّة أطول ، من أجل أمّي ؟ »

سار تاكيتشيرو بين الأزهار ، كأن لديه أشياء أفضل تشغله .

« يا سيد « سادا » ، نادى صوت . « إنه السيد سادا! » .

« آ ، السيد « اتومو » و« ايديو » كذلك ،» قال تاكيتشيرو . « يا للمفاجأة » .

«أنا الذي فوجئت» انحنى «سوسوكه» عميقاً . «أحب شارع شجر الكافور ، لذا كنت انتظر إعادة فتح الحديقة . عمر الأشجار خمسون أو ستون سنة ، وكثيراً ما كنت متعوداً أن أتمشى بينها . حنى سوسوكه رأسه ثانية . آسف لأن ابني كان خشناً جداً معك في ذلك اليوم» .

«إنه شاب» .

«هل جئت إلى هنا من «ساغا» ؟»

«نعم ، ولكنَّ تشيكو وشگي جاءتا من المنزل ، والتقتا بي هنا» .

تقدّم سوسوكه للترحيب بتشيكو وشگي .

«يا ايديو ما رأيك بأزهار الخزامى هذه ؟» سأله تاكيتشيرو بتجهم إلى حدّ ما .

«الأزهار تعيش» . ما يزال تصرّف ايديو فّظاً .

«تعيش ؟ ذلك شيء أكيد . بيد أنني ما فتئتُ أَمَلُّ منها... كمية كبيرة كهذه من الأزهار» .

«الأزهار تعيش . حياتها قصيرة ، لكنها تعيش بصورة جلية . ستتبرعم في السنة المقبلة وتتفتح... تماماً مثلما تعيش الطبيعة» .

شعر تاكيتشيرو مرّة ثانية أن ايديو جرح إحساسه .

«عيني ليستْ متعودة عليها تماماً . لا أحبُّ زناراً ، أو نسيج كيمونو على طراز خزامى ، غير أن فناناً عظيماً إذا ما أراد أن يخلق لوحة كهذه ، فحتّى الخزامى تصبح عملاً سرمدياً» ، قال تاكيتشيرو وهو ينظر جانباً . «بعض الفصالات القديمة مثل ذلك . بعضها أقدم من هذه العاصمة نفسها .

ما من أحد بقادر على أن يخلق شيئاً مثل ذلك بعد الآن . ليس بوسعهم إلاّ تقليدها... ألا توجد حتى أشجار هنا ، ما تزال تعيش ، وهي أقدم من العاصمة ؟ »

« لم أكن أعني شيئاً صعباً صعوبة ذلك . الحائك الذي يسمع جلبة الأنوال الخشبية كلَّ يوم ، لا تخطر بباله أفكار عالية وغير عملية كهذه » . حنى ايديو رأسه . « ولكن هذا مَثَل . إذا ما وقفتْ ابنتك أمام تمثال الميروكو في صومعة كوريوجي أو صومعة تشيگوجي كم ستكون جميلة بالمقارنة » .

« أخبر تشيكو واجعلها سعيدة . ولكنها لا تستحقّ ذلك . ستكون امرأة مسنّة دون أن تدري » .

« لهذا السبب قلت إن الخزامى تعيش » . دخلت القوة في صوت ايديو .

« إنها تتفتح لفترة قصيرة فقط ، لكن ألا تزهر بأقصى طاقتها ؟ الآن حان وقتها » .

« تلك حقيقة » . استدار تاكيتشيرو إلى الخلف ناحية ايديو .

« لا أحسب نفسي حائكَ زنانير ستُرتدى ، وتمرُّ من فتاة إلى أخرى لأجيال . والآن فأنا أحوك زنانير تكون معه الفتاة سعيدة حتى لو ارتدتها لمدة سنة » .

« تلك وجهة نظر سديدة » .

« عليَّ أن أسلك ذلك المسلك . أنا لست مثل « تاتسمورا » .

لم يتكلم تاكيتشيرو .

«هذا هو الحسّ الذي دفعني لأن أقول بأن الخزامى حيَّة . هي الآن في أوج ريعانها . لكنْ هناك قليل من التويجات الساقطة» .

«أوافقك» .

«حتى التويجات الساقطة... حسن ، ثمة شيء أنيق في عاصفة أزهار الكرز ، لكن ماذا عن أزهار الخزامى ؟ »

«هل تعني مشهد تويجات الخزامى المبعثرة هنا وهناك ؟» تساءل تاكيتشيرو . «انني أشعر باشمئزاز إلى حدّ ما من مثل تلك الحشود من الأزهار . الألوان مبهرجة بسقم وتبدو وكأنْ ليس فيها (نكهة) ، بالطبع أنا أكبر سناً» .

«لنذهبْ» ايديو يحثّ تاكيتشيرو . «لقد رأيتُ نماذج خزامية للزنانير من قبل ، ولكن النماذج التي تأتي إلى محلّنا ليست من أزهار حيّة . لقد فُتِحت عيناي» .

صعدوا خمستهم على الدرجات الحجرية من حقول الخزامى في الغور . إلى جانب الدرجات ، تفتحت كتل من أجمات ازاليّة[٢] من كيريشيما إلى الأعلى مثل حاجز حيّ أكثر منه سياجاً . إنها ليست ذات أزهار الآن ، إلاّ أن وفرة الأوراق الخضر الرقيقة الفتية أظهرت بالمغايرة ألوان الخزامى المزهرة على أفضل ما تكون من حسن .

في أعلى الدرجات توجد حديقتا «فاوانيا»[٣] جديدتان غريبتان ، لم تُزهرا بعد .

كانت «هيئيزان» تُشاهد إلى الشرق .

يمكن للمرء أن يرى هيئيزان وكيتاياما وهاغاماشياما من أي مكان في

الغالب في حديقة تربية النباتات ، إلاّ أن هيئيزان في الشرق تبدو وكأنها تعيّن المدخل الرئيس إلى حديقة الفاوانيا .

« ربما بسبب الضباب الشديد ، ألا تبدو هيئيزان منخفضة ؟ » سوسوكه سأل تاكيتشيرو .

« إنه ضباب الربيع... رقيق... » نظر تاكيتشيرو إليها لبرهة . « نعم انها كذلك ، ولكن ألا يجعلك هذا الضباب الكثيف تفكر بالربيع المتلاشي ؟ »

« نعم » .

« إن ضباباً عميقاً كهذا يجعلني أُدرك أن الربيع سينتهي عما قريب » .

« نعم » قال سوسوكه مرّة ثانية . « يمرّ بسرعة . نادراً ما أذهب في نزهة لمشاهدة الأزهار » .

« ما من شيء جديد ، لتراه »

سار الاثنان بهدوء لبرهة .

« يا اوتومو ، دعنا ، قبل أن نذهب ، نسير عبر طريق شجر الكافور الذي قلتَ إنك تحبّه » ، قال تاكيتشيرو .

« شكراً . هيّا . يكفيني أن أمشي فقط بين تلك الأشجار . أمرُّ بها في طريق الدخول » . التفت سوسوكه إلى تشيكو : « تعالي يا تشيكو وامشي معنا » .

نهايات أغصان أشجار الكافور في الجانب الآخر ، اختلطت في الوسط فوق الطريق . ما تزال الأوراق الجديدة على ذؤابات الأغصان طريّة وخفيفة الحمرة من حيث اللون . هناك ريح قليلة ، لكن الأغصان تخشخش هنا وهناك

قليلاً . لم يتكلموا خمستهم إلاّ قليلاً ، ولكن في داخل كل منهم ، تتحرك أفكارهم باضطراب في ظلّ الأشجار .

بعد أن سمع تاكيتشيرو ، ما قاله ايديو ، مقارناً تشيكو بأكثر التماثيل البوذية في «نارا» أو «كيوتو» جمالاً ، لم يستطع إخراج تلك الكلمات من رأسه . هل ايديو مفتون بتشيكو إلى هذا الحدّ ؟

إذا ما تزوجت تشيكو من ايديو ، فإنهم سيحتاجونها في محل حياكة سوسوكه . هل ستلف الحرير من الصباح حتى المساء مثل أمّ ايديو ؟

حينما نظر تاكيتشيرو إلى الخلف رأى تشيكو غارقة في محادثة مع ايديو . بين الفينة والفينة ، تهزّ رأسها .

الزواج لا يعني بالضرورة ، انها لا بدُ أن تعيش في بيت أوتومو . فكّر تاكيتشيرو أنه من الممكن جلب ايديو إلى بيته هو ، كصهر متبنّى .

تشيكو هي ابنة وحيدة . فإذا تركَتِ البيت ، كم ستكون أمّها شگي وحيدة .

بيد أن ايديو نفسه ، الابن الأكبر ، وقد قال أتومو إن ايديو حائك أكثر حذقاً من أبيه . مع ذلك فله أيضاً ابنان شابان .

بالإضافة إلى ذلك ، فإن عمل تاكيتشيرو قد تدهور جداً ، لدرجة لا يمكن له معها ، أن يتحمل نفقات إعادة بناء التركيب الداخلي للمحلّ العتيق الطراز . لكنه ، على الرغم من كل شيء ، بائع سلع جاهزة بالجملة ، في المنطقة القديمة المجاورة لناكاجيو ، وليس حائكاً . عُرِف محلّ «أوتومو»على أنه شغل عائلي يدوي ، لا يشترك فيه أي مستخدم خارجي . تُظهر طبيعة المحل نفسَها ، في مظهر أمّ ايديو ، «اساكو» ، وفي مطبخهم

المتواضع . ولو أن ايديو الابن الأكبر ، إلاّ أن سلوك أوتومو ، يوحي بأنه يقدّم ابنه ليعيش في منزل سادا كزوج لتشيكو .

«ايديو شاب رائع جدير بالثقة ،» قال تاكيتشيرو مختبراً ردّ فعل سوسوكه . «إنه شاب ، ولكن يمكن الاعتماد عليه بالتأكيد» .

«شكراً ،» قال سوسوكه عرضاً . «فقط بما يتعلق بعمله . يعمل بلا كلل ، ولكنه خشن مع الناس . من المحتمل جداً أن يسبب المتاعب» .

«ما من ضير في ذلك . أنا نفسي من ذلك النوع . لقد وبخني توبيخاً كاملاً...» كان سلوك تاكيتشيرو لطيفاً .

«أنا متأسف لأنه تصرّف بالطريقة التي تصرّف بها» . حنى سوسوكه رأسه قليلاً . «إنه لا يسمع لأي شيء نقوله ، ما لم يوافق عليه بالفعل» .

«لا تهتمّ» قال تاكيتشيرو . «لماذا جلبتَ ايديو فقط معك هذا اليوم ؟»

«لو جلبتُ أخويه ، أيضاً ، لتوقفت أنوال الحياكة ، بالإضافة لأنه عنود . لذا ظننت أن نزهة بين أشجار الكافور ، ستهدّئه قليلاً» .

«هذا طريق جميل . في الواقع ، يا أتومو لقد جلبت شگي وتشيكو إلى حديقة تربية النباتات بسبب ايديو... طيب ، بسبب نصيحته» .

«ماذا ؟» حدّق سوسوكه بريبة في وجه تاكيتشيرو . «أردت أن ترى وجه ابنتك ، أليس كذلك ؟»

«لا ، لا» . أنكر تاكيتشيرو ذلك بسرعة .

نظر سوسوكه حواليه . ايديو وتشيكو يسيران وراءهما بعدة خطوات . شگي وحيدة حتى بعيدة عنهما إلى الخلف .

حينما خرجوا من بوابة حديقة تربية النباتات ، تحدّث تاكيتشيرو إلى سوسوكه . «رجاءً خذ سيّارتنا . إن نيشيجين قريبة . في غضون ذلك سنمشي إلى جانب ضفة النهر» .

تردد سوسوكه ، إلاّ أن ايديو حثَّ والده إلى داخل السيارة ، قائلاً أوّلاً : «دعنا نقبل ضيافة السيد سادا» .

بينما قام سادا لتوديعهما ، جلس سوسوكه في المقعد ليحني رأسه احتراماً ، لكن حركة ايديو كانت خفيفة جديدة لا يمكن معها التفريق هل كانت هزّة رأس أم لا .

«إنه صبيّ طريف» . استعاد تاكيتشيرو في ذاكرته الوقت الذي صفع فيه وجه ايديو . قال لابنته وهو يكتم ابتسامة : «أنت وايديو تمشيتما طويلاً بلا شك . هل هو رقيق مع النبات ؟»

بدتْ عينا تشيكو خجولتين . «في طريق أشجار الكافور ؟ كل ما فعلته انني كنتُ أصغي . عجباً لماذا تكلّم معي طويلاً جداً . لماذا يكشف عن نفسه لأخرين ، مثلي ؟»

«أليس لأنه يودّك ؟ تفهمين ذلك القدْر ، أليس كذلك ؟ قال انك أجمل من تمثال ميروكو في صومعة تشوغوجي أو كوريوجي . كنتُ مندهشاً أيضاً . ذلك الشاب العنود يقول أشياء مذهلة» .

جفلت تشيكو فلم تتكلم . توردت قليلاً خجلاً إلى أسفل رقبتها .

«ما الذي تحدّث عنه» سألها والدها .

«عن (مصير) الحائكين اليدويين في نيشيجين» .

«(مصير) ؟» بدا والدها وكأنه بات غارقاً في التفكير .

«(مصير) تجعل الشيء وكأنْ له ايقاع محادثة صعبة ما ، لكن نعم ، تحادثنا عن مصيرهم ،» أجابت تشيكو .

توجد خارج حديقة تربية النباتات أشجار الصنوبر ، تنمو بصفّ على ضفة نهر كامو . نزل تاكيتشيرو بين الأشجار إلى أسفل النهر . كان مجرى كامو مثل حقل طويل ضيق لحشيش صغير فتيّ . صوت الماء الساقط على السدّ أصبح مسموعاً فجأة .

جلست مجموعة من الناس على الحشيش مع غدائهم الذي جلبوه في نزهتهم وهو موزع حواليهم . رجال ونساء وشبّان يسيرون معاً .

يوجد على الضفة البعيدة متنزه في آخر الطريق . تقع خلف أشجار الكرز مع أوراقها الجديدة المبعثرة «انتاغوياما» في الوسط و «نيشييياما» ممتدة على الجانبين في الخلف . تبدو «كيتاياما» في أعلى النهر قريبة .

«هل نجلس هنا» تساءلت شكي . يمكن للمرء أن يلمح خلف جسر «كيتاأوجي» حرير «يوزين» منشوراً ليجفّ على سهل النهر .

«إنه ربيع جميل» قال تاكيتشيرو إلى زوجته التي كانت تحدّق حواليها . «ما الذي تعتقدينه ، يا شكي ، بذلك الصبي ، ايديو ؟»

«ماذا تعني بقولك ، «ماذا أعتقد ؟»»

«ماذا لو جلبناه إلى منزلنا للزواج من تشيكو ؟»

«ماذا ؟ تجلب شخصاً ما مثله فجأة ؟»

«إنه صبي رائع ، أليس كذلك ؟»

«نعم ، لكن عليك أن تسأل تشيكو عن أشياء كهذه» .

«دائماً ما تقول تشيكو إنها مطيعة تماماً» .

نظر تاكيتشيرو إلى ابنته ، «أليس كذلك يا تشيكو ؟ »

«لا يمكنك فرض رأيك على شخص في مسألة كالزواج» . التفتت شگي أيضاً ناحية تشيكو .

غضَتْ تشيكو من طرفها . مرَّ ببالها خيال ميزوكي شنيتشي . كان خياله كطفل ، كصبي في مهرجان بحاجبين مرسومين بدقة ، وشفة حمراء وماكياج مرتدياً ملابس امبراطورية قديمة وراكباً فوق عربة في مهرجان «گيون» ، بالطبع كانت تشيكو في ذلك الوقت طفلة أيضاً .

الحواشي

(١) كِلّي : Paul Klee (١٨٧٩-١٩٤٠) فنان سويسري وُلد بالقرب من (بيرن) . صودرت أعماله بألمانيا على اعتبار أنها تفسّخ وانحطاط . وُصفت أعماله بأنها سوريالية ، إلاّ أنه في لوحاته الصغيرة الخيالية وهي تجريدية في المقام الأول ، خلق ببراعةٍ تقنيّةٍ فائقةٍ عالماً شخصياً تماماً للخيال الحرّ ، عبّر عنه بدهاء بعيد النظر ، وتلوين دقيق يعطيان تأثير رسمٍ عابث مبهم .

(٢) أزاليّة : Azalea : شجرة جثيلة مزهرة . من الكلمة اليونانية Azaleos أي الجاف ، وقد دعيت كذلك لأنها تزهر في الأرض الجافة الرملية . أزهارها مبهرجة ، وفي الغالب عطرة .

(٣) فاوانيا Peony وتسمّى عود الصليب وكفّ الذئب . شجرة ذات أزهار كروية ، حمراء ، أو وردية ، أو بيضاء ، تتضاعف حينما تقطف .

شجر أرز كيتاياما

منذ أيام بلاط «هيئان»[١] كان جبل «هيئيزان» من أشهر الجبال في كيوتو[٢]، ومهرجان كامو من أشهر المهرجانات.

لقد مضى بالفعل مهرجان «هوليهوك» الذي اقيم في الخامس عشر من مايو/ أيّار.

منذ عام ١٩٥٦، أُدمج موكب «الرسل الامبراطوريين» بموكب «عذراوات الصومعة». المشاركون، من عادتهم ـ إقامة شعيرة قديمة لتطهير أنفسهم في نهر كامو قبل عزل أنفسهم في صالة التطهير. إحياءً للطقوس القديمة فإن نساء البلاط، وهنَّ يرتدين ثياباً أنيقة، يقدْنَ الموكب في عربة، تتبعهنَّ الوصيفات وعذراوات البلاط، مع المغنين والموسيقيين. تركب عذراوات الصومعة عادة في عربة يجرها ثور.

اختيرت إحدى زميلات تشيكو في المدرسة لأن تكون عذراء الصومعة. ذهبت تشيكو وصديقاتها إلى ضفتي نهر كامو لرؤية زميلتهنَّ في الموكب. بدت عذراوات الصومعة بهيجات بثيابهنَّ الأنيقة، وأكثر بهجة لأنهنَّ عادة بعمر طالبات كلية وليس بسبب ثيابهنَّ.

يبدو في الغالب ، أنه يقام يومياً مهرجان كبير أو صغير في كيوتو . فإذا نظر المرء إلى التقويم السنوي فسيجد أن هناك شيئاً ما يقام في شهر مايو/ أيار . من المستحيل حضور كلّ المناسبات من نذور الشاي إلى النزهات الامبراطورية إلى احتفالات الشاي .

في شهر مايو/ أيّار هذا ، فاتت تشيكو حتى فرصة حضور مهرجان « هوليهوك » ، جزئياً بسبب الأمطار الغزيرة ، وجزئياً لأنها منذ كانت طفلة صغيرة ، تعودت دائماً أن يأخذها أحدٌ ما إلى جميع المهرجانات .

تتمتع تشيكو ، بالإضافة إلى الأزهار ، بالذهاب لرؤية خضرة الأوراق الفتيّة كذلك . كانت بطبيعتها متعلقة بأشجار الاسفندان الحديثة التبرعم في « تاكاوا » .

بينما كانت تشيكو تقوم بعمل الشاي الذي أُرسل لهم من « يوجي » قالت لأمّها ، « لقد نسيت أن أذهب لمشاهدة حصاد الشاي الجديد لهذه السنة » .

« ما يزالون يقطعون أوراق الشاي الآن ، أليس كذلك ؟ » تساءلت الأم .

« من المحتمل » .

كانتا متأخرتين قليلاً عن مشاهدة جمال تفتح براعم أشجار الكافور التي مشوا بينها في حديقة تربية النباتات .

تسلّمتْ تشيكو مكالمة هاتفية من صديقتها « ماساكو » .

« هل تودّين يا تشيكو الذهاب إلى « تكاو » لمشاهدة أوراق الاسفندان الجديدة ؟ ليس هناك كثير من الناس كالذين يأتون حينما تتغير ألوان الأوراق في الخريف » .

«أليس ذلك متأخراً بالنسبة لها ؟»

«الطقس أبرد هناك من المدينة... أظن أنها ما تزال على ما يرام» . «همْمْ» . قاطعتها تشيكو «أقول بعد أشجار الكرز في صومعة «هيئيان» سيكون من المريح مشاهدة تلك الأشجار في الجبال ، لكنني نسيت تماماً كل شيء عنها . تُرى ماذا عن تلك الشجرة القديمة... لقد ذهبت أزهار الكرز ، لكني أودُ أن أرى أشجار الاسفندان في كيتاياما . قرب تاكاوا ، أليس كذلك ؟ كلما رأيت أشجار الاسفندان المستقيمة الجميلة في كيتاياما ، تشعر روحي بانتعاش . هل لنا أن نذهب لغاية كيتاياما ؟ أفضل رؤية شجر الأرز على الاسفندان» .

قررت تشيكو وماساكو بعد أن قطعتا هذه المسافة أن تريا أوراق الاسفندان الفتية في صومعة «جنغوجي» في تاكاوا ، وصومعة «سائميوجي» في «ماكينو» ، وصومعة «كوزانجي» في «توغانو» قبل أن تستمرا . كلتا الصومعتين ، جنغوجي ، وكوزانجي في قمة منحدر شديد الانحدار .

بامكان ماساكو أن تصعد بسهولة ، إذْ كانت تلبس حذاء ذا كعب واطئ وترتدي ثياباً (غربية) خفيفة تناسب بداية الصيف ، ولكنها نظرت إلى الخلف متسائلة كيف تستطيع تشيكو الصعود وهي ترتدي كيمونو . تكلمت تشيكو ولم يبدُ عليها أيّ ضيق . «لماذا تنظرين إليَّ بهذه النظرة ؟»

«يا له من جميل» .

«نعم إنه جميل» . وقفت تشيكو ساكنة ، ناظرة إلى الأسفل ، إلى نهر «كيوتاكى» . «ظننت أن الخضرة ستكون أكثر إشراقاً ، ولكنها باردة ، أليس كذلك ؟»

«أنا...» حاولت ماساكو أن تُخمد ابتسامة . «كنتُ أتحدّث عنك ، يا تشيكو» .

لم تتكلم تشيكو .

«لماذا تُولد بنت جميلة مثلك ؟»

«آه ، كُفّي»

«كيمونتك البسيطة تجعلك حتى أكثر جمالاً هنا وسط خضرة الأشجار . فكيمونو لمّاعة تكون مبهرجة جداً ، لكن...»

كانت ترتدي تشيكو بالأحرى ، كيمونو بنفسجية داكنة ، وزنّارها مصنوع من قماش قطني مطبَّع فصّله والدها بسخاء تماماً . لقد سمعتْ ماساكو تقول نفس الشيء مرات كثيرة من قبل .

صعدت تشيكو الدرجات الحجرية . في هذه اللحظة حينما تكلمت ماساكو ، كانت تشيكو تفكر بالآثار الخفيفة المائلة إلى الاحمرار في لوحة كانت قد رأتها . هل كانت في اللوحة في «كيوموري» أو في مكان آخر . إن اللوحات في تايرا ، نو كيوموري ، وفي ميناموتو نو يوريتومو في صومعة جنغو ، قد شهرها عالمياً أندريه مالرو[٣] .

تستمتع تشيكو عند صومعة كوزان بمشاهدة الجبال من شرفة سكيسيوئن . وهي أيضاً متعلقة باللوحة المعلقة هناك لمؤسس طائفة الصومعة ، الكاهن ميوئي ، وهو جالس على شجرة يتأمل . نسخة طبق الأصل من لفيفة رقّ «تشوجوجيغا» ما تزال لم تفتح إلى جانب الفجوة في الجدار .

قُدِّم الشاي للفتاتين في الشرفة .

لم تذهب ماساكو أبداً إلى أبعد من صومعة كوزان . معظم المتفرجين يقفون هناك .

تذكرت تشيكو الأيام التي كان والدها يأخذها حول الجبال لمشاهدة أزهار الكرز . كانا يجمعان حشائش طوغ طويلة ثخينة لأخذها إلى البيت . وما دامت تشيكو قد وصلت إلى غابة تاكاوا فقد قررت الذهاب إلى قرية شجر الأرز في كيتاياما ، حتى لو اضطرت للذهاب بمفردها . في واقع الأمر ، نشأت القرية مع المدينة وسُمِّيَتْ تسمية مناسبة (منطقة ناكاگاوا كيتاياما لحيّ كيتا) ، لكن لا يوجد فيها أكثر من مائتي أو ثلاثمائة بيت لذا فإن كلمة « قرية » مصطلح مناسب أكثر كما يبدو .

« لقد تعودت على السير ، لذا سأذهب على الأقدام » ، قالت تشيكو . « أكثر من ذلك فإن الطريق جيدة جداً » .

الجبال المنحدرة بشدّة ، تشكل صفاً على ضفتي نهر كيوتاكي حيث كانتا تتمشيان . أخيراً ، برزت للعيان غياض أشجار الأرز الجميلة . كشفت أشجار الأرز المستقيمة عن الاهتمام الحريص الذي أعطاها لها القرويون . كانت هذه القرية ، هي المكان الوحيد الذي ينتج ألواح خشب كيتاياما الشهيرة .

نزلتْ بعضُ النساء اللواتي كنَّ يحششن الحشيش ، من التل من بين أشجار الأرز لاستراحة الساعة الثالثة بعد الظهر .

تجمدّت ماساكو في مكانها وهي تحدِّق بإحدى الفتيات . « ياتشيكو ، تلك الفتاة تشبهك كثيراً . إنها تشبهك تماماً ، ألا تظنين ذلك ؟ »

لفّت الفتاة ردنيها الاسطوانيين في كيمونتها الزرقاء السماوية . كانت ترتدي بنطالاً فضفاضاً ومريلة مع قفاز عتيق الطراز ومنشفة يد تكسو رأسها على طريقة النساء العاملات اللواتي يضعنها على رؤوسهنَّ دائماً . المريلة ملفوفة حواليها إلى المؤخرة ، وللكيمونو فتحات تحت الذراعين . أثر ضئيل

من زنّارها الصّيق الأحمر يظهر ما بين الردنين والبنطال . النساء الأخريات مرتديات نفس الطراز ، انهن يشبهن نساء (الاوهارا)[٤] على أية حال ، ومختلفات عن نساء (الاوهارا) البائعات المتجولات ، إذْ أن ملابسهنَّ ليست زياً حينما يبعن أشياء في المدينة ، وإنما ملابس عمل جبلية حقيقية .

« إنها حقاً تشبهك . ألا تعتقدين أن هذا غريب ؟ »

نظرت ماساكو إلى الفتاة بتدقيق .

« ماذا ؟ » نظرتْ تشيكو إليها نظرة خاطفة . « إنتِ دائماً متسرعة جداً » .

« لا يهمّ كم متسرعة أنا . أنت لا ترين شخصاً ما جميلاً مثلها... »

« إنها جميلة لكن... »

« إنها كأنما كانت طفلتك المفقودة » .

« انظري كيف تصبحين متحرقة ؟ »

شرعت ماساكو تضحك مما أبدته من ملاحظة . ولكن بسماعها كلمات تشيكو ، ظلت صامتة لبرهة .

« أعرف أنه من الممكن أن يشبه شخص ، شخصاً آخر إلى هذا الحدّ ، ولكنَ هذا مخيف » . قالت ماساكو .

مرّت الفتاة ، مع الفتيات اللواتي كنَّ معها... ، ولم ينتبهن إلى تشيكو وماساكو إلاّ قليلاً .

المنشفة فوق رأس الفتاة تكشف عن شعرها في المقدمة قليلاً ، وتغطي نصف وجهها . لم تكن تنظر ناحية تشيكو وماساكو ، لذا فلم تتبينا

ملامحها . لقد زارت تشيكو القرية الجبلية عدة مرات ورأت الرجال ينزعون اللحاء الخشن من أخشاب أشجار الأرزّ ، وبعد ذلك تأتي النساء لإزالة الآثار الباقية ، حاكّات الأخشاب برمل ممزوج بماء دافئ . فكّرتْ أنهاعرفت وجوه كل الفتيات بصورة غامضة ، لأنهنَّ كنَّ يقمن بأعمالهنَّ على جانب الطريق ، خارج البيوت في الهواء الطلق . كانت توجد ، من المحتمل ، فتيات صغيرات قليلاً في قرية جبلية صغيرة كهذه ، لكن تشيكو ، بالطبع ، لم تتفحص وجه كل فتاة بدقة .

هدأت ماساكو ، بينما كانت تراقب النساء يذهبن بعيداً .

« يا للغرابة ، » قالت . ثمَّ أمالت رأسها ، محدّقة في تشيكو ، وكأنما لم تكنْ قد نظرت إليها من قبل .

« إنها تشبهك بالفعل » .

« بأية طريقة ؟ » تساءلت تشيكو .

« حسن . مظهرها عموماً . من الصعوبة القول كيف تشبهك بالضبط . أنفها... أو عيناها... بالطبع تتوقعين أن تكون فتاة من المدينة مختلفة تماماً عن فتاة من الجبال . أعذريني رجاءً » .

« لا ضير » .

« ياتشيكو ، ألا نتبع تلك الفتاة إلى بيتها ، وننظر إليها نظرة أخرى ؟ » تساءلت رافضة التخلّي عن الموضوع .

حتى لشخص مغامر كماساكو ، فإنها من المحتمل لم تكن جادّة حينما اقترحتْ تعقّب الفتاة .

أبطأت تشيكو سيرها لدرجة الوقوف متطلعة إلى خشب ألواح الأرز

الجميلة المصقولة ذات القطر المتسق وهي مستندة بصفوف على البيوت .

« إنها تشبه مواد مصنوعة باليد ، » قالت تشيكو . « لقد سمعتُ أنهم يستعملونها في بناء الغرف لاحتفالات الشاي حتى في أماكن بعيدة كطوكيو وكيوشو » .

انتصبت الألواح في صفّ على طنف بيت ، وعلى امتداد الطابق الثاني كذلك . ملابس داخلية معلقة لتجفّ ، أمام صفوف الألواح في الطابق الثاني . نظرت ماساكو إلى البيت منذهلة . « هؤلاء الناس يعيشون في معرض للأرز » . قالت .

« تتعجلين كثيراً ، يا ماساكو » . قالت تشيكو ضاحكة . « انظري ، هناك . أليس ذلك بيتاً فاخراً إلى جانب السقيفة ذات الألواح ؟ »

« آه ، لقد رأيت الغسيل منشوراً هناك ، لذا ظننت أن البناية كانت البيت » .

« التفكير المتعجل نفسه جعلك تقولين إن تلك الفتاة تشبهني » .

« ذلك مختلف » . باتت ماساكو جدّية . « هل أنت مستاءة حقاً عندما قلت إنها تشبهك ؟ »

« لا ، لا أبداً » . في اللحظة التي تكلمت فيها تشيكو ، خطرتْ بالبال عينا الفتاة بلا توقع . حدّة ، صارخة ، عميقة ، مَخفيّة في نظر عينيْ تلك الفتاة المعافاة الكادّة .

« النساء في هذه القرية يكدحن حقاً ، » قالت تشيكو ، للهروب كما يبدو من حديث ماساكو .

« ما من شيء غير طبيعي ، في أن تعمل امرأة إلى جانب رجل .

الفلاحون يعملون على هذا الأسلوب . أليس كذلك . بائعو الخضر والبَقالون هم كذلك ،» قالت ماساكو عرضاً . «فتاة محافظة مثلك ، لا يمكن لها أن تتأثر بأشياء كهذه» .

«أنا أعمل . لا بدَّ أنك تتحدثين عن نفسك» .

«ذلك صحيح . أنا لا أعمل» قالت ماساكو بصراحة .

«من السهولة الكلام عن العمل . لكني أريد أن أريك كيف تعمل نساء القرية هؤلاء حقاً» . مرة أخرى نظرت تشيكو إلى أشجار الأرزّ على الجبال . «لقد بدأوا بالفعل بقطع الأغصان» .

«ماذا تعنين قطع الأغصان» ؟

«يقطعون الأغصان غير الضرورية ، بفأس ، لإنتاج أشجار صالحة للألواح . في بعض الأحيان ، يستعملون سلّماً ، لكن في كثير من الأحيان ، عليهم أن يقفزوا من شجرة إلى أخرى مثل القرود» .

«يا لها من خطورة!»

«لقد سمعتُ أن بعض الرجال يتسلقون الأشجار في الصباح ولا ينزلون إلاّ في وقت الغداء» .

نظرت ماساكو أيضاً ، إلى أشجار الأرز في الجبال . الجذوع المستقيمة جميلة تنتصب بنظام دقيق . ضمّات الأوراق المتروكة على الأغصان تشبه عملاً حِرَفياً رائعاً .

لم تكن الجبال عالية ولا خفيضة . كل جذع شجرة يُرى حتى على قمم الجبال .

أخشاب الأرز تستعمل في بناء صالات الشاي ، لذا فلمظهر الغياض نفسه ، الهيئة الأنيقة لمهرجان الشاي .

الجبال على جانبي نهر « كيوتاكي » منحدرة انحداراً شديداً ، جوانبها تهبط في الوادي الضيّق . سبب واحد لتربية أشجار الأرز الشهيرة هنا ، هو كثرة الأمطار وقلّة الشمس . إنها أيضاً محميّة من الرياح . فلو أن ريحاً قوية ضربت الأشجار ، لتركتها طراوة حلقة النموّ الجديدة ، تنمو ملويّة أو معوجّة .

تنتصب بيوت القرية في صف واحد على طول ساحل النهر في أسفل الجبل .

مشت تشيكو وماساكو إلى الجانب البعيد خلف القرية ، ومن ثَمَّ عادتا .

رأتا بيتاً حيث كانت تُصقل الألواح . ترفع النساء الألواح من الماء حيث كانت تنقع ، ويصقلنها برمل (بودايي) بعناية . يجلب الرمل ، وهو يشبه طيناً أحمر ـ مصفراً ، من تحت شلال نهر (بودايي)

« ما الذي سيحدث ، لو انتهى الرمل ؟ » تساءلت ماساكو .

« الماء يجلب الرمل معه حينما تُمطر ، ويتجمع في قعر الشلال » أجابت امرأة مسنّة .

ظنّت ماساكو أن هذا حوار سارّ .

وكما شرحت تشيكو كانت النساء يعملن بكدح بأيديهنّ . قطر اللوح الذي كنَّ يصقلنه حوالي خمس أو ست بوصات ؛ ربما سيستعمل كعمود .

غَسلت النساء الألواح المصقولة ووضعنها جانباً لتجف . ثمَّ غلّفنها بورق أو بتبن لشحنها .

زُرعت أشـجـار الأرز على طول منحـدرات الجـبـال إلى مـجـرى نـهـر « كيوتاكي » . إن ترتيب أشجار الأرز المنتصبة على الجبال ، وتلك المستندة على طنف البيوت ، ذكّرت ماساكو بأبواب « بنگارا » المشبكة في بيوت « كيوتو » القديمة .

يقع موقف شارع (بوادي) لخطّ حافلة السكك اليابانية القومية في المدخل إلى القرية ، إلى الأسفل من الشلال مباشرة . من هناك صعدت الفتاتان في الحافلة للعودة إلى البيت . بعد صمت ، تكلّمت ماساكو فجأة ، « عجباً ، هل من الأفضل للفتاة أن تشبَّ مستقيمة كأشجار الأرز تلك » .

لم تتكلم تشيكو .

« لكننا لا نُعطى عناية حنوناً كما الأشجار » .

كادت تنفجر تشيكو ضحكاً . « هل لك يا ماساكو صديق ما ترينه ؟ »

« نعم ، كثيراً ما نجلس معاً على الحشيش على ضفة نهر « كامو » . في الآونة الأخيرة كان هناك زوار أكثر يأتون إلى وادي « كياماچي » ، ويشعلون الضياء في الليل . لكننا نجلس دائماً مواجهيْن الناحية الخلفية حتى لا يتعرف علينا أحد » .

« ماذا عن هذه الليلة ؟ »

« لدينا موعد هذه الليلة في الساعة السابعة والنصف ، ولو أنها ما تزال مضيئة قليلاً عندئذ » .

حسدت تشيكو حرية ماساكو .

جلست تشيكو ووالداها يأكلون غداءهم في الردهة الخلفية مواجهين الحديقة الداخلية .

«أرسل لنا الـ «شيمامورانيون» وجبة خفيفة من أوراق خيزران «هيوماسا» . «متأسفة . كل ما عملته هو حساء يناسبها» . قالت «شكّي» لتاكيتشيرو .

كانت أوراق الخيزران المطبوخة مع سمك الابراميس البحري ، هي طبق تاكيتشيرو المفضل .

«طباخنا العزيز تأخر قليلاً في المجيء إلى البيت ،» قالت شكّي غامزة متحدثة عن ابنتها . «ذهبت تشيكو لترى أشجار أرز «كيتاياما» مرّة ثانية مع ماساكو» .

وُضعت وجبة الرز في صحن فخّاري (إماريّ) . في داخل كل ورقة خيزران ملفوفة على شكل مثلث ، ووُضعت شريحة رقيقة من سمك الابراميس البحري فوق الرزّ . ضمَّ الحساء في الغالب «توفو» مجففة وبعض الفطر .

ما تزال تحتفظ حرفة تاكيتشيرو بسيماء محل قديم في «كيوتو» ، ممثَّلاً بباب بنكارا المشبّك ، ولكنَّ الآن وشغله شركة محدودة لذا فإن أكثر الموظفين وخَدَم المحلّ بدأوا يصلون إلى العمل بصفتهم مستخدمين . اثنان أو ثلاثة خدم يقيمون في المحل وهم من منطقة «أومي» ويعيشون في الغرفة ذات الشباك المشبّك في مقدمة الطابق الثاني ، لذا فإن الناحية الخلفية من البيت كانت هادئة . «أنت تحبين الذهاب إلى قرية أشجار الأرز في «كيتاياما» أليس كذلك ؟» قالت أمّها . «لماذا ؟»

«إن أشجار الأرز هناك مستقيمة وجميلة جداً . بودي لو أن القلوب البشرية تنمو مثل ذلك» .

«ألستِ مثلها تماماً ؟» تساءلت الأمّ .

«لا ، انني ملويّة ومعوجّة...»

«ذلك صحيح» ، تكلم والدها . «مهما كان الإنسان رقيقاً ، فعميقاً في داخله ، ما يزال الكثير للتأمل فيه... لكن أليس ذلك مقبولاً ؟ فطفل مثل أشجار ارز «كيتاياما» قد يكون عذباً جميلاً ، لكن لا يوجد طفل كهذا . وإذا وُجد طفل كهذا في يوم ما فربما سيلاقي العناء . اعتقد أنه لا يهمّ ـ شريطة أن تنمو الشجرة طويلة ـ إذا كانت محنية أو معوجّة . أنظري إلى شجرة الاسفندان القديمة في حديقتنا الصغيرة» .

«ما الذي تعنيه وأنت تقول أشياء كهذه لطفلة لطيفة مثل تشيكو ؟» ازدادت أمّها غضباً .

«أعرف ، أعرف . تشيكو مستقيمة و...»

أدارت تشيكو رأسها ناحية الحديقة الداخلية وكانت صامتة لبرهة .

«ليس لديَّ نوع القوة التي تمتلكها شجرة الاسفندان...» انجرح صوت تشيكو بالحزن . «أنا أقرب إلى البنفسج الذي ينمو في تجاويف الشجرة . آه ، لم ألاحظْ حتى الآن . إن أزهار البنفسج ماتت» .

«لقد ماتت ، لكنها بالتأكيد ستزهر مرّة أخرى في الربيع القادم ،» قالت أمّها .

استقرت نظرة تشيكو على المشكاة الحجرية المسيحيَّة عند قاعدة شجرة الاسفندان . لم تستطع رؤية النقش الذي تآكل بفعل الجو ، بصورة جيدة ، في الضياء الخافت الآتي من البيت ، لكنها ودّت لسبب ما أن تصلي .

«أين يا أمي وُلدت في الواقع ؟»

نظرت شگي إلى تاكيتشيرو .

«تحت أشجار الكرز المسائية في «گيونْ »» . قال والدها بصوت منخفض .

تذكرت تشيكو بعد أن سمعت والدها يقول إنها ولدت تحت أشجار الكرز في «گيون» قصة الأطفال «حكاية قاطع أشجار الخيزران» وفيها يعثرون على الأميرة «كاجوياهيم» الصغيرة جداً بين مواضع انبثاق الأغصان في ساق شجرة خيزران .

ذلك هو السبب الذي جعله يتكلم بطريقة واقعية .

إذا كانت قد وُلَدتْ حقيقة تحت الأزهار ، فربما قد يأتي شخص ما من القمر ليلتقي بها ، كما في قصة الأميرة «كاجوياهيم» . أدركت تشيكو المزاح في شرح والدها ، ولكنها لم تتمكن من ذكر ذلك علانية .

سواء أكانت لقيطة ، أم طفلة مسروقة ، فإن أمّها ووالدها لا يمكنهما معرفة أين ولدت ، كما لا يمكنها معرفة من هم أبواها الحقيقيان .

تأسفت تشيكو لأن سؤالها لم يكن مضبوطاً ، لكن بدا لها من الأفضل ألا تعتذر ، مالذي دفعها للسؤال بلا توقع ؟ لا تعرف لذلك سبباً ، لكن ربما تذكرت بصورة غامضة ما أخبرتها به ماساكو من أنها تشبه تماماً تلك الفتاة في قرية الأرز في «كيتاياما» .

لا تدري تشيكو إلى أين تدير عينيها . حدّقت بقمة أشجار الاسفندان الكبيرة . تلألأت سماء الليل تلألؤاً أبيض خفيفاً . هل كان من أضوية المدينة ؟ أو هل طلع القمر ؟

«أصبحت السماء بلون صيفي إلى أبعد حدّ» . قالت أمّها ، بينما هي

الأخرى تطلّعت أيضاً ، «لقد وُلِدتِ ، يا تشيكو ، في هذا البيت . إنني لم ألِدْكِ ، ولكنّك وُلِدت هنا» .

هزّت تشيكو رأسها . وكما قالت لشنيتشي في صومعة كيوميزو ، فإن شكّي وتاكيتشيرو لم يسرقاها وهي رضيعة من تحت أزهار الكرز في «ماروياما» في الليل . كانت قد تُرِكتْ كطفلة في بوابة الدخول إلى المحّل . لقد حملها تاكيتشيرو إلى البيت .

كان ذلك قبل عشرين سنة . تاكيتشيرو ـ وعمره آنئذٍ في الثلاثينات ـ من نوع الرجال الذين يمتّعون أنفسهم في المدينة . لم تصدّقْ شكّي أوّل الأمر قصة زوجها .

«تظنّ أنك ذكي للغاية . إنك جئتني بطفلة «الگيشا» إلى البيت» .

«لا تقولي أشياء سخيفة كهذه» . احمَّر تاكيتشيرو غضباً . «انظري إلى الملابس التي ترتديها . هل هي ملابس طفلة «الگيشا» ؟ هل ؟» تساءل ، معطياً الطفلة إلى زوجته .

أخذت شكّي الطفلة ، ضاغطة وجهها على خدّها البارد .

«ما الذي نفعله بشأنها ؟»

«دعينا نبحث الأمر في الخلف . إنني الآن في ذهول» .

«طفلة حديثة المولد»

لا يمكن لتاكيتشيرو وشكّي أن يتبنيا الطفلة ، لأن والديها الحقيقيين غير معروفين ، ولكن بامكانهما تسجيلها على أنها طفلتهما الشرعية . سّمياها تشيكو .

تقضي الحكمة الشعبية بأن تبنّي طفل ، كثيراً ما يسبّب للأمّ نفسها أن تحبل ، ولكن شگي لا تقدر على الانجاب ، لذا فقد رُبِّيتْ كطفلة وحيدة .

هكذا مرّت سنون كثيرة حَدَتْ بتاكيتشيرو وزوجته ألا يعبأا بهوية أبويها الحقيقيين . لا يعرفان هل أن أبويَّ تشيكو حيّان أم ميّتان .

التنظيف بعد الأكل بسيط ، مجرد التخلص من أوراق الخيزران ، والاعتناء بالأواني . قامت تشيكو بذلك بمفردها .

بعد ذلك ، أخفت تشيكو نفسها في نهاية الطابق الثاني متأملة في رسومات كُلَيْ وشاغال التي جلبها والدها معه من الدير في « ساغا » . غطّتْ في النوم ، ولكنها سرعان ما استيقظت وهي تصرخ .

« تشيكو ، تشيكو » صاحت أمّها من الغرفة المجاورة . وقبل أن تجيب تشيكو ، فُتح الباب الزلاج .

« كان كابوساً ، أليس كذلك ؟ » دخلت أمّها إلى الغرفة . « كان حلماً ، أليس كذلك ؟ »

جلست إلى جانب تشيكو وأشعلت المصباح قرب مخدّتها ، قامت تشيكو وجلست على الفراش .

« ياللفظاعة . أنظري إلى كلِّ ذلك العرق »... تناولت أمّها منشفة شاش من حامل المرآة . تركت تشيكو أمّها تنشّف لها جبهتها ورقبتها . فكرت شگي كم هو جميل صدر تشيكو الأبيض .

« هنا الآن ، تحت ذراعيك» . ناولت شگي المنشفة إلى ابنتها .

« شكراً ، يا أمّي » .

«هل كان حلماً مفزعاً ؟»

«أي . لقد حلمت أنني أسقط من مكانٍ عالٍ ، وكانت الخضرة حواليَّ من كل الجهات . لا يوجد قعر» .

«ذلك حلم يحلمه كل انسان ،» قالت أمّها ، «...السقوط إلى ما لا نهاية . احذري أن تصابي بزكام . خذي ، غيّري ثوب النوم» .

هزّت تشيكو رأسها ، ولكنها لم تستردَ رباطة جأشها بعد .

ترنّحت حينما حاولت الوقوف .

«لا بأس ، سأجلبه الك» .

«قعدت تشيكو ، وبحياء غيّرت ثوب النوم ، وبعدئذ بدأت تطوي الثوب الذي نزعته . «لا تحتاجين إلى طيّه لأنني سأغسله على أية حال ،» قالت أمّها ، متناولة الثوب ورمته في شجاب الملابس في الزواية . بعدئذ جلست مرة ثانية إلى جانب مخدّة تشيكو .

«إن كابوساً كهذا يجعلني أتساءل هل لديك حمّى ؟» وضعت راحة يدها على جبهة ابنتها . كانت باردة على عكس ما توقعت . «ربما أنت متعبة من ذهابك إلى «كيتاياما» ، يا له من وجه حزين الطلعة... هل أنام هنا الليلة ؟» شرعت أمّها بجلب الفراش .

«شكراً ، رجاءً لا تهتمي . ارجعي إلى النوم . أنا على ما يرام» .

«هل أنت متأكدة ؟» زحفت شگي تحت حافة أغطية ابنتها . تشيكو فسحت المجال لها .

«يبدو غريباً ، يا تشيكو ، إنك كبيرة جداً الآن ، لا يمكنك أن تنامي مع أمّك وهي تحتضنك» .

سرعان ما غطّتْ شگّي في نوم عميق . وضعت تشيكو يدها على كتف أمّها ، لتدفئها . بعدئذ أطفأت الضياء ، ولكن عزَّ عليها النوم .

كان حلم تشيكو طويلاً . أخبرت أمّها النهاية فقط . القسم الأول منه كان حالة بين اليقظة والنوم أكثر منه حلماً . تذكرت اليوم السعيد الذي قضّته في كيتاياما للتوّ مع ماساكو . فكّرت تشيكو بتركيز أكبر الآن بالفتاة التي قالت ماساكو عنها إنها تشبهها . أما الخضرة التي سقطت خلالها في نهاية الحلم فربما هي ذكرى الخضرة في كيتاياما .

مهرجان قطع أشجار الخيزران في صومعة « كوراما » ، من المهرجانات المفضلة لدى تاكيتشيرو . كان يستمتع بهالته الذكورية . لم يكن المهرجان شيئاً استثنائياً بالنسبة إلى تاكيتشيرو ، فقد حضره مرات عديدة منذ شبابه ، لكنه فكّر هذه المرّة باصطحاب تشيكو . وفكّر أيضاً أنها قد تكون فرصته الوحيدة للذهاب إلى « كوراما » ، لأن المصاريف قد تمنع (مهرجان النار) من أن يُعقد هذه السنة في الصومعة .

كان تاكيتشيرو قلقاً من المطر . فالمهرجان يعقد في العشرين من شهر يونيو/ حزيران ، في وسط موسم المطر . ففي اليوم التاسع عشر ، كانت السماء تمطر بغزارة . « إذا أمطرت مثل هذا المطر ، فستكون صاحية غداً » . قال تاكيتشيرو ، وهو يلقي نظرة على السماء .

« لا أهتمّ يا أبي إذا أمطرت » .

« نعم ، لكن... » قال والدها . « لكن بالطبع ، إذا كان الطقس سيّئاً ، إيه... » .

كانت ممطرة ورطبة في العشرين من يونيو/ حزيران .

« أغلق الشبابيك... والأبواب ، وخزانات الملابس . ستكون الملابس رطبة مع المطر » . قال تاكيتشيرو لأحد الموظفين .

« هل تخليتَ عن الذهاب إلى صومعة « كوراما » ؟ » سألت تشيكو والدها .

« سيعقدونه مرّة أخرى في السنة المقبلة . دعينا نلغي الفكرة . مع كل الضباب حول صومعة « كوراما »... »

كان هؤلاء الذين يقومون بقطع أشجار الخيزران ، في الأكثر ، قرويين وليسوا قسساً ، مع ذلك فقد كان يُشار إليهم على أنهم رهبان . في اليوم الثامن العاشر ، وفي التحضير للمهرجان ، ربطوا أربعة سيقان من ذكر الخيزران وأربعة من الأنثى ، بالألواح إلى يمين ويسار الصالة .

جذور أشجار الخيزران الأنثى عالقة بها ، بينما قُطعتْ جذور أشجار الخيزران الذكر غير أن الأوراق ما تزال باقية . منذ أزمان بعيدة كان الجانب الأيسر من الصالة يدعى (مقعد تامبا) ، والجانب الأيمن يدعى (مقعد أومي) .

تقع النوبة على بيت مختلف كل سنة للمشاركة في المهرجان ، يلبس فيه أفراد العائلة الملابس التقليدية : كيمونو حرير خشنة انحدرت من جيل إلى جيل ، وأخفاف محاربين قشيّة ، سيفين ، بطرشيل كاهن ، وجلباب كاهن ، أوراق (ناندينا) حول الخصر ، وسكّينة قطع الخيزران في قراب من قماش مقصّب . يواجهون البوابة الجبلية ويقودهم المبشرون بالطقوس .

يقع المهرجان في الساعة الواحدة بعد الظهر .

بدأ مهرجان قطع الخيزران بصوت الكاهن بملابسه التقليدية وهو ينفخ ببوق محارّي .

واجه طفلا المهرجان ، رئيس الكهنة وتكلما بصوت واحد ، «مهرجان قطع الخيزران . تحايا سعيدة» .

بعد ذلك ، تقدم طفلا المهرجان إلى الكرسيين على اليمين وعلى اليسار وجلسا عليهما .

«خيزران «أومي» . كم هو جميل» .

«خيزران «تامبا» . كم هو جميل» .

مجّد كل منهما الآخر .

إن شجرة الخيزران الذكر التي ربطت بالألواح ، تُقطع أولاً وفقاً للعادات المرعيّة ، وبعد ذلك تُصفّ على الأرض . أما شجرة الخيزران الانثى الأكثر رقة ، فتترك كما هي .

يعلن بعد ذلك طفلا المهرجان إلى رئيس الكهنة أن شعائر الخيزران قد تمَّتْ .

يدخل الكهنة إلى الحرم المقدس ويغنون محاورات بوذا . تنثر أزهار الأقحوان الصيفي بدلاً من أزهار النيلوفر .

ينزل رئيس الكهنة من على المذبح ويفتح مروحة بردي ، رافعاً وخافضاً أياها ثلاث مرات . وبعدئذ ينادي ، فيأتي شخصان من كل جانب يقطعون شجرة الخيزران إلى ثلاث قطع .

أراد تاكيتشيرو أن ترى ابنته قطع أشجار الخيزران ، ولكن في الوقت الذي كان فيه متردداً بسبب المطر ، دخل«ايديو » من الباب المشبك حاملاً حزمة مغلفة بقماش تحت إبطه .

« أخيراً ، أنهيتُ زنّار ابنتك ، » قال .

« زنّار ؟ » ظهرت على تاكيتشيرو الحيرة . « زنّار ابنتي ؟ »

ركع « ايديو » ، منحنياً إلى الأرض بأدب .

« زخرفة خزامى ؟ » تساءل تاكيتشيرو عرضاً

« لا ، إنه الطراز الذي رسمته في الدير في « ساغا » » . كان ايديو جاداً . « إنني متأسف لأنني كنت خشناً معك . أنا شاب وطائش » .

كان تاكيتشيرو بالسّر مستغرباً . « ماذا ؟ إنني مجرد هاوٍ في التصميم . أنت انتقدتني بقسوة . عليَّ أن أشكرك لأنك فتحت عيني » .

« نسجتُ الزنّار الذي رسمتَه . جلبته معي » .

« ماذا ؟ » كان تاكيتشيرو مستغرباً تماماً . « لقد عفَّستُ ذلك التصميم إلى كرة ورميته في الجدول في جانب بيتكم » .

« لقد رميته ؟ » كان ايديو هادئاً بجرأة . « لقد رأيت ما يكفي من التصميم حينما أريتني إياه . حفظته عن ظهر قلب » .

« أظن أن ذلك هو عملك » . وبينما كان تاكيتشيرو يتكلم ، قطّب حاجبيه . « لكن ، يا ايديو ، لماذا نسجت التصميم الذي رميته ؟ لماذا ؟ لماذا نسجته ؟ » تشكّل في صدره شعور لا هو حزن ولا هو غضب . « ألست أنت يا ايديو من قال إنه ينمّ عن قلب متضارب... قلب هائل ومخيف ؟ »

كان ايديو صامتاً .

«لقد قلتَ ذلك . ولهذا رميته في الجدول حينما غادرت محلكم» .

«اعذرني ، ياسيد «سادا»» . انحنى ايديو مرّة ثانية معتذراً . «في ذلك الوقت كنت متعباً ومغتاظاً من العمل الردىء الذي كنت أقوم به» .

«وأنا ، كذلك . كان الدير هادئاً جداً ، بالطبع ، لكن مع امرأة مسنة واحدة فقط ، ما عدا النساء اللواتي كنَّ يأتين للعمل ، فإن المكان موحش... موحش جداً . وبالإضافة فإن عملي في مأزق ، لذا فقد فكرتُ وفكرت بما قلت . فبائع بالجملة مثلي لا يحتاج إلى رسم تصاميم . تلك التصاميم هي عمل هاوٍ» .

«لقد قلّبت الأمور طويلاً ، كذلك . ومنذ أن التقيت بابنتك في حديقة تربية النباتات ، فقد تفكّرت أكثر» . قال ايديو . «أتودّ أن ترى الزنّار ؟ إذا لم يرقْ لك ، فاريدك أن تقطعه ارباً» .

«أرني إياه رجاءً ،» قال تاكيتشيرو . «تشيكو ، تشيكو» نادى على ابنته التي كانت جالسة قرب الموظف عند طاولة الدفع والتسليم . مشت إليهما .

حاجبا ايديو الكثيفان ، وفمه الجامد المغلق بشدة ، أعطت لوجهه مظهراً واثقاً ، غير أن أصابعه ارتجفت قليلاً حينما فكّ الحزمة .

دار ايديو ليجلس مقابل تشيكو ، كأنما وجد صعوبة في الحديث إلى والدها .

«رجاء ، يا تشيكو ، انظري إلى هذا الزنّار . إنه من تصميم والدك» . ناولها الزنّار دون أن يفتحه .

فتحت تشيكو الحافة قليلاً . «آ ، عجباً ، يا أبي ، هذا من موحيات كتاب كُلَيْ . هل أنجزته في «ساغا» ؟ » سحبته فوق حضنها . «مدهش» .

كان وجه تاكيتشيرو متجهماً ، ولم يتكلم ، ولكنه كان بالسرّ مندهشاً من أن ايديو تَذَكّر التصميم بصورة حسنة جداً .

«يا أبي ،» تكلمت تشيكو بابتهاج طفولي . «يا له من زنّار جميل!» لمست النسيج . «لقد نسجته بروعة للغاية ،» قالت لايديو .

«شكراً» . نظر ايديو إلى الأسفل .

«هل لي أن أفتحه هنا ، وأنظر إليه ؟»

«بالتأكيد ،» أجاب ايديو .

وقفت تشيكو ، ناشرة الزنار أمام ايديو ووالدها . وقفت تنظر إلى الزنّار ، ويدها على كتف والدها .

«كيف تراه يا أبي ؟» لم يتكلم تاكيتشيرو ، لذا راحت تشيكو تشجعه . «جميل ، أليس كذلك ؟»

«هل تحبينه حقاً ؟» تساءل والدها .

«نعم . شكراً ، يا أبي» .

«انظري إليه عن قرب أكثر ،» قال تاكيتشيرو .

«إنه فصال مبتكر ، لذا فهو يعتمد على الكيمونو ، إنه زنار جميل» .

«حقاً ؟ من الأجدر أن تشكري ايديو» .

«شكراً ، يا ايديو» . ركعت تشيكو خلف والدها ، وحنت رأسها

ناحية ايديو .

«هل في هذا الزنّار انسجام ، يا تشيكو ؟... انسجام في القلب ؟ » تساءل والدها .

«انسجام» سؤال والدها أخذها على حين غرّة . نظرت إلى الزنّار مرّة أخرى . «الانسجام يعتمد على الكيمونو وعلى الشخص الذي يرتديه ، ولكنَّ الآن ، فإن الملابس التي تدمرّ الانسجام عن عمد هي الزي السائد » .

هزَّ والدها رأسه . «في الواقع ، ياتشيكو ، حين أريتُ هذا التصميم لايديو ، أخبرني بأن ليس فيه انسجام . لذا فقد رميت التصميم في الجدول القريب من المحل» .

كانت تشيكو صامتة .

«مع ذلك ، فإن التصميم الذي رميته ، يشبه تمام الشبه هذا الزنّار الذي نسجه ايديو ، على الرغم من أن الخطّ اللوني يختلف قليلاً عمّا رسمته» .

«اعذرني ، يا سيد «سادا» » . انحنى ايديو إلى الأرض .

«يا تشيكو ، أعرف أن طلبي أناني ، ولكن أريدك أن تجربي الزنّارعليك»

«مع هذه الكيمونو ؟ » وقفت تشيكو ولفّت الزنّار حول خصرها .

في الحال أشرقت تشيكو بالبهجة . استرخى وجه تاكيتشيرو .

«يا تشيكو ، هذا من إبداع والدك» . وَمَضَتْ عينا ايديو .

الحواشي

(١) هينان : بدأ هذا العهد عام ٧٩٤ وانتهى عام ١١٨٥

(٢) كيوتو : عاصمة اليابان القديمة من ٧٩٤ إلى ١٨٦٨ حيث أصبحت «يدو» هي العاصمة وأُعيدت تسميتها طوكيو .

(٣) اندريه مارلو : (١٩٠١-٧٦) كاتب فرنسي ولد بباريس ودرس اللغات الشرقية .

(٤) النساء اللواتي درسن فن ترتيب الأزهار . أُسس المدرسة اوهارا أونشن (١٨٦١-١٩١٢) .

مهرجان گِيونْ

غادرت تشيكو المحلّ حاملة سلّة كبيرة للتسوّق . كانت على وشك أن تعبر شارع «أويك» إلى الشمال وتذهب إلى مخزن يوباهان في «فوياماتشي» ، غير أنها توقفت للحظة في شارع «اويك» محدّقة بالسماء التي اشتعلت كاللهب من هينيزان إلى كيتاياما . كان الوقت مبكراً جداً ليوم صيفي طويل ، لأن تتوهج فيه شمس الغروب ، لم تكن السماء بلون كئيب . التوهجات الشاسعة تنتشر عبر السماء .

«ما كنت أدري أن هناك مشاهد كهذه . هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها شيئاً كهذا» .

أخرجت تشيكو مرآة صغيرة ونظرت إلى وجهها منعكساً وسط ألوان الغيوم .

«لن أنسى هذا . ما حييت ، لن أنسى هذا أبداً... الإنسان ، بالتأكيد مخلوق عاطفي» .

بدت هيئيزان وكيتاياما ، بتأثير اللون زرقاء شديدة الزرقة .

يبيعون في يوباهان «التوفو» المجفف ، وتوفو الفاوانيا ، والتوفو المحشوّ .

«ادخلي يا آنسة من فضلك . كنّا منشغلين تماماً بمهرجان گيون ، لدرجة لم نكن معها قادرين إلاّ على خدمة الزبائن الدائميين ، ولا أحد غيرهم» .

من المعتاد ، أن المخزن يجهّز فقط ، المواد حسب الطلب . لكيوتو عدد من مثل هذه المخازن بين مخازن بائعي الحلويات ، والمخازن الأخرى .

«هل هذا لمهرجان گيون ؟ يجب بالتأكيد أن أشكرك على المجيء إلى هنا بانتظام لسنوات كثيرة جداً» . ملأت السيدة سلّة تشيكو لدرجة الطفحان تقريباً .

التوفو المحشو هو تماماً مثل الثعبان السمكي المحشوّ يشتمل على نبات الارقطيون . بينما توفو الفاوانيا يشبه مزيجاً مقلياً من التوفو والخُضُر ، ولكن هناك أيضاً جوز شجرة الجنكو[١] ، ملفوفاً في داخلها .

على الرغم من أنَّ عمر هذا المخزن أكثر من مائتي عام ، إلا أنّ مالكه لم يُجرِ عليه إلاّ تغييرات قليلة . ثُبِّت الزجاج في كوة السقف ، أمّا الموقد ذو الطراز (الكوريّ) حيث يحضّر التوفو ، فهو مصنوع الآن من آجر .

من عادتنا أن نستعمل الفحم ، ولكنْ حينما نهيّج النار ، فإن الجمرات المطفأة غير المحترقة تصنع بقعاً على التوفو ، لذا فبدلاً عن ذلك قررنا استعمال نشارة الخشب .

استعملت المرأة بحذق عيدان الخيزران لرفع التوفو من القدور النحاسية المربعة المقسّمة ، واضعة إياه على عود رفيع في حين بدأ السطح الخارجي بالتصلّب .

هناك كثير من العيدان فوق وتحت تُرفع أثناء ما كان يجفَ التوفو .

ذهبت تشيكو إلى الخلف من مكان العمل ووضعت يدها على العمود القديم . كثيراً ما كانت أمّها تمرّر يدها على العمود القديم الأسود ، حينما تأتي مع ابنتها تشيكو إلى المخزن .

« ما نوع الخشب هذا ؟ » تساءلت تشيكو .

« خشب السرو . طويل جداً... ومستقيم تماماً » .

لامسةً العمود ثانية ، استطاعت تشيكو أن تشعر بعتقه .

بعدئذ غادرت المخزن .

بينما كانت تشيكو عائدة إلى البيت ، ازدادت أصوات فرقة مهرجان گيون الموسيقية علواً .

النظارة الذين جاؤوا من بعيد يميلون إلى الاعتقاد بأن مهرجان گيون مكّون فقط من استعراض للعربات في السابع عشر من شهر يوليو/ تموز . وجاء كثيرون كذلك إلى مهرجانات يويياما في ليلة السادس عشر .

إلاّ أن الاحتفالات الحقيقية لمهرجان گيون تستمرّ طيلة أيام يوليو/ تموز . في كلّ محلة من محلات كيوتو المختلفة التي لها عربة گيون خاصة ، تبدأ فرق الاحتفاء بأداء طقوس التعاويذ التي تبدأ في اليوم الأوّل من يوليو/ تموز .

العربة مع صبي المهرجان تقود الموكب كل سنة .

في اليوم الثاني أو الثالث من يوليو/ تموز ، يُجري رئيس البلدية ، القرعة ليقرَّر ترتيبات العربات . تجتمع العربات قبل اليوم السابق ، ولكن احتفال غسل محفّات الصومعة هو الشعيرة التحضيرية الحقيقية للمهرجان . تُغسل المحفات في « شيجو » قرب (الجسر الكبير) على نهر كامو . وعلى

الرغم من تسميته غسلاً ، إلاّ أن الكاهن «الشِّنْتوي» ببساطة ، يغطّس غصن (سكاكي) في الماء ويرشّه على المحفّات .

بعد ذلك ، في اليوم الحادي عشر ، يزور صبيّ المهرجان صومعة گيون . إنه الصبي الذي يمكنه ركوب عربة المهرجان . يمتطي حصاناً ، ويرتدي غطاء الرأس العالي كالذي يلبسه النبلاء ، ويرافق الصبي مرافقون إلى الصومعة حيث يُمنح رتبة البلاط الخامسة . أما هؤلاء الذين هم فوق الرتبة الخامسة فيشار إليهم بنبلاء البلاط الامبراطوريين .

في الأزمان القديمة ، كانت الآلهة الشنتوية والآلهة البوذية تمتزج فيما بينها ، لذا فإن المرافقين إلى يمين صبي المهرجان ويساره يُشبهّون بـ «كانّون[٢]» و«سييشي[٣]» في البوذية . حتى على الرغم من أن المهرجان شنتوي . لقد قورن تسلّم صبي المهرجان لرتبة البلاط بطقوس الزواج .

«شيء سخيف ،» قال شنيتشي عندما اختير ليكون صبي المهرجان . «أنا رجل» .

كان المطلوب من صبي المهرجان ، أن يحافظ على شعيرة (النار المنفصلة) بكلمات أخرى ، إنه سيُعطى طعاماً طُبخ بنار خاصة بعيداً عن طعام أهله . الغاية هي التطهير ، ولكن الشعيرة في الوقت الحاضر اختصرتْ إلى درجة هي لا أكثر من أنّ طعام صبي المهرجان يُمَسُّ فقط بشعلة تطهير شنتووي . ومن إحدى الإشاعات أن صبي المهرجان يذكّر بين الفينة والفينة عائلته ، صائحاً «نار التطهير» عندما ينسى أحدهم بشرود ذهن ، المحافظة على الشعيرة .

لم يكن دور صبيّ المهرجان سهلاً ، ما دام لا ينتهي ببساطة مع اليوم الواحد للموكب . عليه أيضاً أن يدور على مناطق كثيرة لتقديم التحايا

الرسمية . كلتا مدتيْ المهرجان نفسه ومدّة صبي المهرجان تستمر شهراً كاملاً تقريباً .

يستمتع الناس في كيوتو بالمزاج الرائع الذي يرين على هيئيزان في اليوم السادس عشر ، حتى أكثر من موكب العربات في شهر يوليو/ حزيران في اليوم السابع عشر .

لقد حلَّ يوم التجمّع في «گيون» . ففي محلّ «سادا» رُفِع الباب المشبّك ، للتحضير إلى المهرجان .

يُعقد مهرجان «گيون» سنوياً في الصومعة ، لذا فلم يكن شيئاً غير عاديّ بالنسبة إلى تشيكو ، فهي فتاة من كيوتو ، وأكثر من ذلك ، إنها تعيش قرب «شيجو» ، وكانت أبرشية في الصومعة «ياساكا» . إنه مهرجان صيف كيوتو المتقد ، كان من أعزّ ذكريات تشيكو ، مشاهدتها لشنيتشي وهو في العربة كصبي للمهرجان . في وقت الاحتفال ، كلما سمعت تشيكو فرق «گيون» الموسيقية ، وكلما رأت العربات محاطة بالمصابيح ، تعود ذكرى نشنيتشي إلى الحياة . كان عمر كل من شنيتشي وتشيكو في ذلك الوقت حوالي سبع أو ثماني سنوات .

«لم أرَ فتاة بجمال تلك الطفلة مطلقاً» قال أحد الأفراد .

كانت تشيكو تتبع شنيتشي عندما يذهب إلى صومعة «گيون» لِيُعيَّن برتبة لواء في الصنف العسكري الخامس ، وليركب في العربة في الموكب ، يأتي شنيتشي بزيّه الاحتفالي ، يصاحبه وصيفان ليحيّي تشيكو في المحل . حينما زارها حدّقت به بخجل .

شفته مصبوغة بالحمرة ، وعلى وجهه مساحيق ، بينما وجه تشيكو

مسمر بفعل الشمس فقط . المصطبة قرب الباب المشبّك مقلوبة ، وتشيكو التي تلبس زنّاراً أحمر مرقطاً ، مع كيومونو صيفية ، كانت تفجّر ألعاباً ناريّة مع بعض أطفال الجيران .

حتى الآن ، ما زالت صورة شنيتشي كصبي مهرجان تتردد في صوت فرق « گيون » الموسيقية ، وأضواء العربات .

« يا تشيكو ، هل يسرّك الذهاب إلى « يونياما » ؟ » تساءلت أمّها بعد الغداء .

« وماذا عنك ؟ »

« لدينا زبائن ، لذا لا يمكنني مغادرة المحل » .

أسرعتْ تشيكو خطاها وهي تغادر البيت . كان من الصعب العبور بين صفوف الناس في « شيجو » . بيد أن تشيكو تعرف أين مكان وقوف عربات المهرجان ، لذا كانت قادرة على استيعاب كل المشاهد السارّة حواليها ، وسماع موسيقى كثيرٍ من فرق المهرجان في العربات .

سارت تشيكو إلى مقدمة الـ « اوتابيشو » واشترتْ شمعة ، وأشعلتها نذراً إلى إله المعبد . خلال مدّة المهرجان يوضع إله الـ « ياساكا » مؤقتاً في « اوتابيشو » الذي كان يقع في الجانب الجنوبي من شارع « شيجو » في « شينكيوگوكو » .

لاحظتْ تشيكو في أوتابيشو فتاة بدت وكأنها تقوم « بصلاة النوبات السبع » . رأتها من الخلف فقط ، لكنّها ادركت على الفور ما الذي كانت تقوم به الفتاة . تشتمل صلاة النوبات السبع على المشي مسافة بعيداً عن مذبح المعبد أمام الإله ، والعودة والانحناء ، مكررة الحركة سبع مرّات .

خلال مجرى الطقس ، لا يتكلم المتعبِّد حتى لو صادف ورأى أحداً يعرفه .

ظنّت تشيكو أنها رأت هذه الفتاة من قبل . شعرت تشيكو بطريقة أو بأخرى بأنها مجبرة أيضاً فبدأت تقيم صلاة النوبات السبع .

ذهبت الفتاة غرباً ورجعت إلى «اوتابيشو» . سارت تشيكو على أية حال شرقاً . إلاّ أن صلوات الفتاة كانت أطول ، وأكثر صدقاً من صلوات تشيكو .

لم تمش تشيكو المسافة التي قطعتها الفتاة ، لذا فقد أكملتا طقوس الصلاة في نفس الوقت تقريباً .

انتبهت الفتاة أخيراً إلى تشيكو ونظرت إليها كأنها تريد أن تبتلعها .

«ما الذي تأملينه من الصلاة» ؟ تساءلت تشيكو .

«هل كنت تراقبينني ؟» ارتجف صوت الفتاة . «أريد أن أعرف أين ذهبت أختي . أنتِ أختي . لقد جمع الله شملنا» . فاضت عينا الفتاة بالدموع .

أنا الفتاة من قرية الصنوبر في «كيتاياما» . كان مذبح المعبد يومض في ضوء الفوانيس المعلقة حول «أوتابيشو» وفي ضوء الشموع المنذورة من قِبَلِ المتعبّدين ، بيد أن دموع الفتاة لم تنتبه إلى التألق .

انتشر الضوء الخافق على الفتاة .

وقفت تشيكو ثابتة في مكانها ، وتصميمها يغلي في داخلها . «أنا طفلة وحيدة . ليست لي أخوات» . قالت ولكنَّ وجهها بات شاحباً .

نشجت الفتاة من «كيتاياما» ، «أفهم ذلك . رجاءً يا آنسة أعذريني .

أعذريني . فمنذ أن كنت صغيرة... أختي... كنت أتساءل ما الذي حلَّ بأختي . لقد قمتُ بخطأ مزعج » .

لم تتكلم تشيكو .

« كنتُ توأماً ، لكني لا أعرف هل أنا الأكبر أم الأصغر » .

« إنه مجرد تشابه عرضي ، ألا تظنين ذلك ؟ »

هزّت الفتاة رأسها ، لكن دموعها نزلت على خدّيها . أخرجت منديلاً ومسحت وجهها ، وسألت « أين وُلدتِ يا آنسة ؟ »

« قرب محل تاجر الجملة ، قريباً من هنا » .

« آ ، ما الذي كنت تتمنينه من صلاتك ؟ »

« من أجل صحة والدي وأمي وسعادتهما » .

لم تتكلم الفتاة .

« ووالدك ؟ » تساءلت تشيكو .

« منذ زمن طويل زلق وسقط حينما كان يحاول القفز من شجرة إلى أخرى بينما كان يقطع الأغصان في غابات صنوبر « كيتاياما » . سقط على مكان مهلك . هذا ما يقوله الناس في القرية . لا أعرف ذلك من نفسي ، فقد ولدت للتوّ في ذلك الوقت » .

شعرت تشيكو بوخزة في قلبها .

الرغبة في الذهاب إلى القرية ومشاهدة « كيتاياما » الجميلة ـ هل كانت نداءً من روح والدها ؟

قالت الفتاة الجبلية كذلك ، إنها توأم . هل أن والدها الأصلي تخلّى عن إحدى التوأمين ، تشيكو ، ومن ثمَّ ، غرق في التفكير ، في أعالي أشجار الصنوبر ، فزلق وسقط ؟

هذا بالتأكيد ما حدث .

نزَّ عرق بارد من جبهة تشيكو . صوت الأقدام والموسيقى الآتية من فرق « گيون » الطافحة من شارع « شيجو » ، تلاشى بعيداً . شرعت عينا تشيكو تقتمان . وضعت الفتاة الجبلية يدها على كتف تشيكو ومسحت جبينها بالمنديل .

« شكراً » مسحت تشيكو وجهها بنفسها بالمنديل ووضعته في جيبها . لم تدرك ما الذي فعلته .

« ماذا عن والدتك » ؟ تكلمت تشيكو برقّة .

« توفيت ، أيضاً ، » تلعثم صوتها . لقد وُلِدتُ في قرية والد أمّي في الجبال ، وليس في قرية الصنوبر . والآن لقد ماتت أمي ، كذلك » .

كفّت تشيكو عن التساؤلات .

لقد كانت دموع الفتاة من « كيتاياما » دموع فرح بالطبع ، وحين توقفت أشرق وجهها . إلاّ أن قلب تشيكو كان مرتبكاً جداً ، لدرجة أن ساقيها ارتجفتا حينما حاولت الوقوف . لم تكن هذه تجربة بمقدورها أن تهضمها فوراً . جمال الفتاة الجبلية الطبيعي القويّ هو الشيء الوحيد الذي يبدو مشجعاً لتشيكو . من المستحيل عليها أن تكون مبتهجة بتحمّل كما الفتاة من « كيتاياما » . تكثفت مسحة من الحزن في عيني تشيكو .

بينما كانت تشيكو محتارة فيما تفعل ، مدَّت الفتاة الجبليّة يدها .

أخذتها تشيكو . كان الجلد خشناً ومتشقق البشرة ، على عكس يد تشيكو الناعمة ، إلاّ أن الفتاة الجبليّة أمسكت بيد تشيكو ، غير مهتمة على ما يبدو بالفرق .

« إلى اللقاء ، يا آنسة » .

« ماذا ؟ »

« آ ، أنا جدّ سعيدة » .

« ما اسمك ؟ »

« نايبكو » .

« نايبكو ؟ اسمي تشيكو » .

« أنا أتدرب في الوقت الحاضر . إذا سألت عن نايبكو ، فالكل يعرفني رأساً ؛ إنها قرية صغيرة » .

هزّت تشيكو رأسها .

« يا آنسة ، هل أنتِ سعيدة ؟ »

« نعم ، أنا سعيدة »

« لن أُخبر أي واحد بلقائنا هذا المساء . أُقسم . إله معبد « گيون » فقط يعرف ذلك » .

لقد ادركت « نايبكو » أنهما وإن كانتا توأمين ، إلاّ أن منزلتهما الاجتماعية في الحياة مختلفة . لم تعرف تشيكو ما الذي تقوله ، مدركة أن نايبكو أحسّت بالتفاوت . غير أن تشيكو هي التي كانت مهجورة كطفلة .

«مع السلامة ، يا آنسة ،» قالت ناييكو . «أسرعي قبل أن ينتبه إليك أحد» .

اختنقت تشيكو فلم تحرْ جواباً . «يا ناييكو إن محلّ عائلتي قريب من هنا . مرّي في الأقل معي في ذلك الطريق» .

هزّت ناييكو رأسها رافضة . «ماذا عن الناس هناك ؟»

«عائلتي ؟ مجرد والدي ووالدتي فقط» .

«لا أعرف لماذا ، ولكن لسبب أو لآخر ، أظنّ هذا ما يجب أن يكون . إنني متأكدة من أنك كبرت مع حبّهما» .

سحبت تشيكو ردن ناييكو . «إذا ما وقفنا هنا طويلاً . فقد يلاحظنا أحد ما» .

«نعم ، أنت على حق» .

التفتت ناييكو عندئذ إلى اوتابيشو وانحنت باحترام . حذت تشيكو حذوها بسرعة .

«مع السلامة ،» قالت ناييكو للمرة الثالثة .

«مع السلامة» . قالت تشيكو .

«لديَّ الكثير جداً مما أريد أن أحدثك عنه . رجاءً تعاليْ إلى قريتي في يومٍ ما . ما من أحد سيرانا في غيضة الصنوبر» .

«شكراً» .

سلكت الاثنتان بصورة ما طريقهما ناحية «الجسر العظيم» في شيجو خلال حشود الابريشيين في المعبد . وعلى الرغم من أن عروض اليوم السابع

عشر انتهت إلاّ أن المهرجانات التالية استمرّت . فتحت المحال بستائر مصبوغة عرضت للزخرفة . كانت هناك ستائر من المدراس الأولى للرسم كمدرسة « يوكيوءَ » و« كانو » ورسومات « ياماتو » وستائر « سوتاتسو » القابلة للطي . كانت هناك بين ستائر « يوكيوءَ » الأصلية حتى بعض الستائر التي تصوّر أجانب في طراز « كيوتو » الأنيق . إنها تعبّر عن فورة نشاط وحيوية طبقة تجار « كيوتو » . بقي ذلك النشاط في الوقت الحاضر في عربات الموكب ، المزخرفة بالقماش المقصّب الصيني المستورد والقماش المقصب المصنوع محلياً ، فسجاجيد « غوبلين » المزدانة بالرسوم ، والساتان الحريري المقصبّ بالذهب ، والدمسق والثياب المطرزة ، ما هي إلاّ أمثلة على روعة عهد « مومویاما » حين وصلت إلى اليابان مواد جميلة من جراء التجارة الخارجية ، كانت العربات من الداخل مزخرفة كذلك برسومات مشهورة . يقضي العرف بأن الهياكل البنائية الشبيهة بالأعمدة في مقدمة العربات كانت في الأصل صواري على السفن التجارية التي أجازها الـ « شوغان(٤) » .

مرّت إحدى فرق « گیون » عازفة لحناً بسيطاً مشهوراً ولكنْ هناك في الواقع ستة وعشرون جزءاً موسيقياً . الفرقة تشبه « ميبوكيوجن » أو مجموعة موسيقية في البلاط .

تأخرت تشيكو عن نايیكو نتيجة التدافع بين الحشود وهي تدنو من الجسر .

لقد قالت نايیكو مع السلامة ثلاث مرّات ، غير أن تشيكو لم تكن متأكدة هل هما افترقتا فعلاً ، أو أن نايیكو ستمشي معها مارّة بالمحل ، حتى تريها أين تسكن . لقد شعرت بحميمية دافئة تجاه نايیكو ملأت قلبها .

« يا تشيكو » . طلع « أيدَيو » منادياً على نايكو في اللحظة التي كانت فيها على وشك عبور الجسر . سألها وهو يحسبها تشيكو ، « هل ذهبتِ إلى « يويدياما »... بمفردك ؟ »

توقفت نايكو ، لكنها لم تنظر إلى الخلف إلى تشيكو .

أحفت تشيكو نفسها بسرعة خلف بعض الناس .

« الطقس جميل ، أليس كذلك ؟ » قال « ايديو » . « سيكون الطقس غداً جميلاً أيضاً . النجوم لامعة تماماً » .

نظرت نايكو إلى السماء ، وهي في حيرة لايجاد جواب . إن نايكو بالطبع لم تعرف « ايديو » .

« متأسف ، لقد كنت فظاً مع والدك في ذلك اليوم . هل كان الزنّار مقبولاً ؟ »

« نعم » .

« شعر والدك بالإهانة فيما بعد ، أليس كذلك ؟ »

« أوه... نعم » . إن نايكو وهي غير عارفة بما كان يتكلم عنه ، لم تعرف كيف تجيب .

كانت نايكو في حيرة . إذا كان الأمر مرضياً لتشيكو أن تكلِّم رجلاً شاباً ، إذن فعلى تشيكو أن تقترب منهما .

كان للرجل الشاب رأس كبير قليلاً ، وكتفان عريضتان بعض الشيء ، عينان عميقتان . لم يبدُ في نظر نايكو شاباً رديئاً . فحديثه عن الزنارات جعلها تعتقد أنه حائك من « نيشيجين » فبعد سنوات من الجلوس أمام النول يتخذ الجسم هيئة خاصة .

«أنا شاب . تكلمتُ بغير حكمة عن تصميم والدك . لكنني فكّرت به طيلة الليل ، فقررت أن أحوكه» قال ايديو .

لم تستجب نابيكو .

«هل ارتديته ؟»

«إيه... نعم ،» أجابت نابيكو .

«كيف كان ؟»

لم يكن الضوء منيراً على الجسر ، كما في الشارع ، وانذرت الحشود المتدافعة أن تفصل بينهما . ما تزال نابيكو تجد الأمر غريباً أن يحسبها ايديو ، تشيكو . التوأمان اللذان يُربيان في نفس العائلة من الصعب التمييز بينهما في بعض الأحيان ، إلاّ أن تشيكو ونابيكو عاشتا حياتين مختلفتين تماماً ، في مكانين مختلفين . تساءلت نابيكو فيما إذا كان الرجل الشاب قصير النظر .

«يا تشيكو ، لديَّ خطة . أريد أن أضع كلَّ طاقتي لحياكة زنّار يكون هدية تذكارية لعشريناتك» .

«آ ، شكراً ،» تلعثم صوت نابيكو .

«لقائي بك هنا في «گيون» ، قد يعطيني مساعدة إلهية لحياكة زنارك» .

لم تتكلم نابيكو . الشيء الوحيد الذي يمكن لنابيكو أن تتصوره ، هو أن تشيكو لا تريد أن يعرف الرجل الشاب أنهما كانتا توأمين ، وهذا هو الذي جعلها لم تأتِ إلى جانبهما .

«مع السلامة» . قالت نايكو . ظنَّ ايديو أن ذلك شيء مفاجئ .

«آ ، مع السلامة ،» أجاب . «دعيني رجاءً أصنع الزنّار لك . هل يرضيك ذلك ؟ سأنتهي منه في الوقت المناسب لموسم شجر الاسفندان» .

نظرت نايكو حواليها مفتشة عن تشيكو ، لكنها لم تجدها .

لا الرجل الشاب ولا حديثه عن الزنانير أزعجا نايكو ، كانت سعيدة حقاً وهي تفكّر أن لقاءها بتشيكو أمام الـ «اوتابيشو» بركة من الله . تمسكت بأحد قضبان سياج الجسر ، وحدّقت لبرهة الى انعكاس المصابيح في الماء . مشت بعدئذ ببطء على طول جانب الجسر . قررت أن تزور صومعة ياساكا في نهاية شارع شيجو .

وهي تقترب من منتصف الجسر ، رأتْ تشيكو وهي تتحدث إلى رجلين شابين .

«اوه» صاحت بصوت خفيض ، على الرغم من أنها كانت وحدها . لم تقترب منهم ، لكن وجدت نفسها تراقبهم رغماً عنها .

تساءلت تشيكو في نفسها عن ماذا كان نايكو ، وايديو يتحدثان . لقد أخطأ ايديو بلا شك بنايكو فحسبها تشيكو ، لكن بالتأكيد كانت نايكو في حيرة من أمرها ، فلم تعرف كيف تردّ على الرجل الشاب .

كان من الأفضل لو اقتربت منهما تشيكو ، إلا أنها لم تفعل . ليس فقط ذلك ، فإن تشيكو حينما نادى ايديو على نايكو ، أخفت نفسها بين الازدحام . لماذا قامت بذلك ؟

رجة اللقاء أمام «أوتابيشو» كانت أعنف بكثير على تشيكو منها على نايكو . قالت نايكو إنها تعرف بالفعل أنها توأم ، وأنها تفتش عن أختها .

إلاّ أن تشيكو لم تكن لتحلم أبداً بشيء كهذا ، وقد جرى كل ذلك فجأة كذلك . لم تكن متهيئة للشعور بالغبطة التي شعرت بها نابيكو . إنها المرة الأولى التي سمعت فيها أن والدها الحقيقي قد سقط من شجرة الارز ، وأن أمها الحقيقية قد توفيت أيضاً وهي شابة . وُخِز قلبها من جراء ذلك .

لقد طرقت سمع تشيكو إشاعة ، وأدركت أنها لقيطة ، إلا أنها أجبرت نفسها على عدم التساؤل عن نوع الأبوين اللذين تخليا عنها . ما كان لها أن تعرف حتى لو أرادت . بالإضافة إلى ذلك ، فقد كان حب تاكيتشيرو وشگي لها حميمياً للغاية ، بحيث أنها لم ترَ ضرورة للبحث عن جذورها .

لم تكن خبرة سعيدة بالضرورة بالنسبة إلى تشيكو ، ما قالته لها نابيكو هذا المساء في «هينيزان» ، لكن يبدو أن نابيكو ستنمّي حباً حنوناً لأختها .

«قلبك أنقى من قلبي . تكدحين بجد في عملك ، وجسمك قوي ، » همست تشيكو . «هل سأحتاج إلى مساعدتك في يوم ما ؟ »

كانت تشيكو تعبر الجسر ، وهي في ذهول سادر ، عندما نادى عليها شنيتشي ، «لماذا تتجولين وحدك وتبدين حائرة جداً ؟ لون وجهك ليس على ما يرام أبداً» .

«آ ، شنيتشي» . بدت تشيكو وكأنها عادت إلى وعيها . «كنتَ فاتناً للغاية وأنت في العربة كصبي المهرجان» .

«كانت تجربة بغيضة في ذلك الوقت ، لكن حين استعيدها الآن ، فإنها ذكريات سعيدة» .

كان مع شنيتشي شخص آخر . «هذا هو أخي الأكبر . إنه في الكلية» .

الأخ يشبه شنيتشي . حنى رأسه بفظاظة .

«حينما كان شنيتشي صغيراً كان طفلاً بكّاءً وفاتناً مثل فتاة . لهذا السبب جعلوه صبي المهرجان . يا له من أبله» ضحك شقيق شنيتشي عالياً .

وصلوا إلى منتصف الجسر . نظرت تشيكو الى الوجه الرجولي للأخ الكبير .

«يا تشيكو تبدين شاحبة هذه الليلة . ويبدو عليك حزن شديد ،» قال شنيتشي .

«ربما بسبب الضوء هنا في منتصف الجسر ،» قالت تشيكو بينما خطت بثبات . «بالإضافة إلى ذلك فإن كل فرد هنا في «يوئييياما» مستمتع ، لذا فمن الطبيعي أن يبدو الحزن على فتاة وحيدة» .

«ليس ذلك سبباً مقنعاً» . أخذ شنيتشي تشيكو إلى حاجز الجسر . «اتكئي هنا للحظة» .

«شكراً» .

«ما من نسيم كثير على النهر» .

رفعت تشيكو يدها إلى جبهتها ، وبدتْ وكأنها على وشك أن تغلق عينيها «يا شنيتشي ، كم كان عمرك حينما ركبت في العربة كصبيٍ للمهرجان ؟»

«دعيني أرى... هل كان عمري سبع سنوات ؟ أظنّ في السنة ما قبل ذهابي إلى المدرسة الابتدائية» .

هزّت تشيكو رأسها ، ولكن لم تتكلم . شرع عرق بارد في الظهور على

جبهتها ورقبتها . مدّتَ يدها في جيبها ووجدتْ منديل نايبكو هناك . كان ندّياً بدموع نايبكو . حارت تشيكو ولم تدر ما الذي تفعله . هل ينبغي أن تخرجه أم لا ؟ لفّته في راحتها وجففّت جبهتها . انفعلت لدرجة البكاء تقريباً .

ساور شنيتشي الشك . كان يعرف أنه ليس من طبيعة تشيكو أن تترك منديلاً قديماً في جيبها .

« يا تشيكو . ، هل أنت مُحْترَّة ؟ أو هل أُصبت ببرد ؟ من الصعب التخلص من البرد الصيفي... إذا كان ذلك ، هو السبب . فمن الأفضل أن تذهبي إلى البيت رأساً . سناخذك... أليس كذلك يا ريوسوكه ؟ »

هز شقيقه رأسه . كان ينظر إلى تشيكو طيلة الوقت .

« بيتنا قريب فلا تُتعبا نفسيكما » .

« نعم ، إنه قريب ، لهذا السبب بالذات نذهب معك ، » تكلم شقيق شنيتشي بحزم .

رجع الثلاثة من منتصف الجسر .

« هل تعلم ، يا شنيتشي ، أني تبعت العربة التي كنتَ تركب فيها في الموكب كصبي المهرجان » . سألت تشيكو .

« نعم . أعرف . أتذكر ذلك تماماً » . أجاب شنيتشي .

« كنا صغاراً جداً في ذلك الوقت » .

« نعم ، كنّا كذلك . من البشاعة أن ينظر طفل المهرجان جانباً بينما هو راكب في موكب . مع ذلك ، فقد رأيت طفلة صغيرة تتبعني . لا بدَّ أنك تعبتِ . من جرّاء التدافع في الازدحام » .

«ليس بمقدورنا أن نصبح بذلك الصغر ، أليس كذلك ؟ »

« ماذا تقصدين ؟ » قال شنيتشي تفادياً . كان يتساءل مع نفسه ما الذي حدث لتشيكو هذه الليلة . حينما وصلوا إلى محل تشيكو ، سلّم شقيق شنيتشي على والديْ تشيكو بأدب . أخفى شنيتشي نفسه وراء ظهر أخيه .

كان تاكيتشيرو يشرب خمر «ساكي» المهرجان مع ضيف في الغرفة الخلفية . كانا يستمتعان بصحبة بعضهما بعضاً أكثر من استمتاعهما بالشراب . و«شگي» مشغولة على قدم وساق في خدمتهما .

« رجعتُ » قالت تشيكو .

« عدتِ مبكرة » . نظرتْ «شگي» إلى ابنتها . حيَّتْ تشيكو ضيف والدها .

«آسفة ، يا أمي ، لأني تأخرت كثيراً عن مساعدتك هنا » .

« لا ضير » . أشارت «شگي» بعينها إلى ابنتها ، وذهبتا إلى المطبخ ، متظاهرتينْ بجلب قنينة شراب «الساكي» . «يا تشيكو ، لقد جلبك هذان الصبيان إلى البيت لأنك تبدين عاجزة تماماً ، أصحيح ما أقول ؟ »

«نعم ، شنيتشي وشقيقه... »

«حقّاً ، يبدو لونك متوعكاً جداً . لدينا ضيف هذه الليلة ، لذا يمكنك أن تنامي معي » . احتضنت بحنان كتفيْ تشيكو . حبست تشيكو دمعة .

« إذهبي إلى الطابق الأعلى في الخلف لتنامي » .

«سأفعل ، شكراً » . رقَّ قلب تشيكو من حنان أمّها ،

«شعر والدك بوحدة قليلاً ، منذ لم يعد لديه ضيوف كثيرون... رغم أنه كان عندنا خمسة أو ستة ضيوف هنا في الغداء» .

حملت تشيكو حاملة شراب «الساكي» إلى غرفة الاستقبال .

«لقد شربتُ كثيراً ، شكراً . مجرد شربة أخرى ويكفي» .

اهتَّز الإناء أثناء ما كانت تصب «الساكي» ، لذا فقد استعملت يدها اليسرى كذلك . مع ذلك ، ما تزال يداها ترتجفان . لقد وُضع هذه الليلة ضوء في المشكاة الحجرية المسيحية . بالكاد تستطيع رؤية البنفسجتين تنموان في التجويفين في شجرة الاسفندان الكبيرة .

لا أزهار عليهما الآن ، لكن هل البنفسجتان الصغيرتان في التجويفين الأعلى والأسفل ـ كانتا تشيكو ونايبكو ؟ يبدو وكأن البنفسجتين لن تستطيعا الالتقاء أبداً ، لكنهما التقتا هذه الليلة ؟ وبينما كانت تشيكو تنظر إلى البنفسجتين في الضياء الكابي ، انفعلت مرّة أخرى ، وسفحت الدموع .

لاحظ تاكيتشيرو ، كذلك شيئاً ما على تشيكو . كان ينظر إليها بين الفينة والأخرى .

قامت تشيكو بهدوء ، وذهبت إلى الطابق الأعلى . وُضع فراش الضيف في غرفتها المعتادة . أخذت تشيكو مخدّة من الدرج ، واندست في فراشها .

دفنت وجهها في المخدّة وأمسكت بحوافيها حتى لا يسمع بكاءها أحد .

جاءت «شگي» إلى الطابق الأعلى ولاحظت أن مخدة تشيكو نديّة . «يمكنك أن تخبريني عما حلَّ بك في وقت آخر» . قالت بينما كانت تُخرج

مخدة جديدة ، وعلى الفور عادت إلى الطابق الأسفل ، وقفت عند رأس السلم ونظرت إلى الخلف ولكنها لم تقلْ شيئاً .

لا بسبب أن الغرفة لا تتسع لثلاثة أسِرة ، لكنَّ سريرين فقط أُخرجا . واحد منهما كان سرير تشيكو ؛ يبدو أنّ أمها عزمت على النوم معها . شرشفا كتّان صيفيان ، واحد لتشيكو . وآخر لأمّها ، مطويان في نهاية السرير . لقد حضّرت «شگي» سرير ابنتها لها . صنيع صغير إلاّ أن تشيكو تأثرت من حنان أمّها . بعد ذلك ، توقفت دموعها ، وهدأ قلبها .

«هذا هو بيتي» .

من الطبيعي أن تشيكو لم تستطعْ السيطرة على الاضطراب في قلبها حينما التقتْ بناييكو على حين غرة .

وقفت تشيكو أمام المرآة ناظرة إلى وجهها . فكَرت بأن تضع شيئاً من المساحيق . لكنها عدلت عن الفكرة . أخذت قنينة عطر ورشت أقل شيء على السرير بعدئذ عدّلت شرشف الفراش .

بالطبع ، لا يأتي النوم بسهولة .

«عجباً هل كنتُ قاسية على ناييكو» .

حينما أغمضت عينيها ، كان باستطاعتها أن ترى شجر الأرزّ الجبلي الجميل في قرية «ناكاگاوا»

علمت تشيكو ، مما أخبرتها به ناييكو عن أبويها الحقيقيين .

«هل من الأفضل إخبار والدي ووالدتي ، أم لا ؟»

من المحتمل جداً أن والديْ تشيكو هنا في المحل لا يعرفان أي شيء عن المكان الذي وُلدتْ فيه تشيكو ، ولا يعرفان أبويها الحقيقيين .

حتى فكرة أنهما لم يعودا يعيشان في هذا العالم ، لم تستدّر الدموع من عيني تشيكو .

صوت فرقة موسيقى « گيون » انجرف إلى الغرفة .

يبدو أن الضيف في الطابق السفلي ، تاجر أقمشة «الكريب» من مكان ما قرب ناگاهاما في «اومي» . دار بينهما شراب «الساكي» عدّة مرات . لذا أصبحت أصواتهما عالية .وصلت نتف من الحوار إلى تشيكو حيث كانت ترقد في نهاية الطابق الثاني .

لقد أصرّ الضيف بعناد بأن السبب في بدء موكب العربات من « شيجو » ثم إلى « كوارا ماتشا » الواسعة العصرية للغاية ثم الانعطاف إلى « أويكه » ، ثم المرور أمام دار البلدية ، ما هو إلاّ من أجل السياحة .

قبل ذلك ، كان الاستعراض يمرّ بالشوارع الضيقة التي تتميز بها « كيوتو » ـ شوارع جدّ ضيقة ، في الواقع بحيث أن بعض البيوت خُرِّبت من جراء مرور العربات . للموكب في ذلك الزمن امتياز . فباستطاعة المرء حتى تسلّم كعكة رزّ ، بمدّ يده من شباك الطابق الثاني ، أثناء مرور العربة على البيوت .

حينما تنحرف العربة من « شيجو » إلى الأزقة الضيقة ، فليس باستطاعة المرء أن يرى حواشي العربات ، وكان ذلك شيئاً حسناً .

دافع تاكيتشيرو عن الطريق الجديد ، شارحاً أنه يعتقد بأنها فكرة رائعة تمكّنه الآن من رؤية كلِّ العربة بسهولة في الشوارع الأكثر عرضاً .

متمددةً في فراشها ، تستطيع تشيكو حتى الآن تقريباً سماع عجلات العربات الخشبية الكبيرة تدور في مفترق طرق .

يبدو أن الضيف سيبقى في الغرفة المجاورة هذه الليلة .

اعتزمت تشيكو إخبار أمّها وأبيها غداً بكل شيء سمعته من نابيكو .

كل الأشغال في قرية « كيتاياما » مشاريع عائلية ، لكن ليست كل البيوت تمتلك جزءاً من الجبل . في الواقع قلة تتملك . اعتقدت تشيكو أن أبويها كانا من المحتمل مستخدمينْ لدى واحد من البيوت المالكة .

لقد قالت نابيكو بأنها هي نفسها تحت التدريب .

قبل عشرين عاماً ، لم يكن والداها محرجيْن فقط ، من أن لديهما توأمين ، بل من الصعوبة عليهما تنشئتهما كلتيهما ، . ربما أنهما تخليا عن تشيكو متسائليْن كيف يمكن لهما أن يعيشا لولا ذلك .

لقد فات تشيكو أن تسأل نابيكو ثلاثة أشياء . فتشيكو تُركتْ رضيعة ، لكن لماذا تركوا تشيكو ، ولم يتركوا نابيكو ؟ متى وقع والدها من الشجرة ؟ قالت نابيكو إن الوضع كان على ما يرام بعد أن ولدتا وذكرت أيضاً أنهما ولدتا في قرية أمّها في الجبال . ما اسم ذلك المكان ؟

لقد تغيّرت منزلة تشيكو الاجتماعية . حينما جرى التخلي عنها ، هكذا فكرت نابيكو على ما يبدو ، والآن لا تستطيع أن تزور تشيكو . إذا أرادت تشيكو أن تتحدث معها ، فعليها الذهاب إلى نابيكو في جبال الأرز .

لكن يبدو أن تشيكو لا يمكنها الذهاب إليها بعد ذلك دون إخبار والديها .

لقد قرأت تشيكو مرات ومرات المقطع الجميل من « إغواء كيوتو »

« لاوساراجي(٥) جيرو » : « الغياص المزروعة بأشجار الأرز وقد كُتبَ عليها أن تُصنع منها ألواح « كيتاياما » تقف بأغصانها طبقة فوق طبقة مثل غيوم منخفضة ذات طبقات ، بينما الجبال نفسها مرتبطة بدقة معاً بجذوع أشجار الصنوبر الحمراء . وتُرسل ، مثل الموسيقى ، الأصوات المغنيّة للأشجار » . خطرت تلك الكلمات على البال .

موسيقى الجبال الدائرية وكل جبل متصل بآخر ، والأصوات المغنيَّة للأشجار ، انتقلت إلى قلب تشيكو حتى أكثر من الفرق الموسيقية والاحتفالات الأخرى كأنما سمعت الموسيقى والغناء من خلال الأقواس قزح التي كثيراً ما تظهر في « كيتاياما »

تلاشى حزن تشيكو . ربما لم يكن حزناً . ربما كان اندهاشة ، حيرة محنة الالتقاء بناييكو فجأة . بل ربما هو قَدر فتاة لتسفح دموعاً .

حينما انقلبت تشيكو إلى الجهة الأخرى ، وأغمضت عينيها ، أصغت إلى أغنية الجبل .

« كانت ناييكو طافحة بالبهجة ، ولكن ما الذي عملته أنا ؟ »

بعد فترة قصيرة صعد والدها وأمّها إلى الطابق الأعلى مع الضيف . « نَمْ هانئاً » قال تاكيتشيرو له .

طوت والدة تشيكو الثياب التي خلعها الضيف ، ثمَ جاءت إلى الغرفة التي كانت فيها تشيكو وشرعت تطوي ثياب تاكيتشيرو .

« أنا أقوم بذلك ، يا أمّي » قالت تشيكو .

« هل ما زلتِ صاحية ؟ » تركت الأمّ الثياب لتشيكو وتمددت . « رائحة جميلة هنا . أنت شابة » قالت .

ما هي إلاّ مدة قصيرة وكان الضيف من «أومي» قد سُمِع شخيره في الجانب الآخر من الباب الزلاج ، ربما بفضل شراب «الساكي» .

«يا شگي» نادى تاكيتشيرو على زوجته في الغرفة المجاورة .

«ألا تظنين أن السيد (ارتيا) يريد أن يرسل ابنه إلى محلّنا ؟»

«ككاتب إداريّ ،... أو كموظف من نوع ما ؟»

«كزوج لتشيكو» .

«يا لهذا الهذر! لم تنم تشيكو بعد ،» قالت «شگي» لإسكات زوجها .

«أعرف ، لا ضير إذا ما سمعت» .

لم تتكلم تشيكو .

«إنه ابنه الثاني . لقد جاء عدة مرات إلى هنا في مهمات» .

«لا أُحبُّ السيد(ارتيا) كثيراً ،» قالت «شگي» بصوت مكتوم لكن حاد .

غابت تشيكو مع نفسها .

«أليس ذلك صحيحاً ، يا تشيكو ؟» انقلبت أمّها ناحيتها . فتحت تشيكو عينيها ، لكنها لم تُجِبْ . ساد هدوء لبرهة . أسندت تشيكو كاحلاً فوق كاحل وظلّت ساكنة .

«ارتيا يريد هذا المحلّ.. أظن أنه يريده على أية حال ،» قال تاكيتشيرو . «يعرف أن تشيكو فتاة جميلة وطيبة . ويفهم عملنا فهماً جيّداً . لدينا بعض المستخدمين الذين يفشون بكل شيء بالتفصيل» .

لم يتكلم أحد .

« طيّب ، لا يهم كم جميلة هي تشيكو ـ لم يخطر ببالي قط أن ازوّجها من أجل العمل ، أليس كذلك يا « شگي » ؟ لن يغفر لي الله » .

« ذلك حق » قالت « شگي » .

« مزاجي غير مناسب لهذا المحلّ » .

« أعذرني يا أبي ، لأني جعلتك تأخذ كتب رسومات « بول كْلِيْ » تلك ، إلى الصومعة في « ساغا » » . نهضت تشيكو واعتذرت لوالدها .

« ماذا ؟ إنها متعتي... عزائي . إنها ما أعيش لأجله الآن » . حنى والدها رأسه قليلاً .

« على الرغم من انني لا امتلك الموهبة لمثل تلك التصاميم » .

« أبي » .

« تشيكو ، إذا بعتُ هذا المحل ـ هل ستكون « نيشيجن » مناسبة ـ لكن إذا انتقلنا إلى بيت صغير هادئ بالقرب من « نانزنجي أو أوكازاكي » ،وفكّرنا كلانا بتصاميم كيمونات وزنانير ، كيف سيكون ذلك ؟ هل تتحملين أن تكوني فقيرة ؟ »

« فقيرة ؟ لا يهمني ذلك مطلقاً » .

عند هذ الحدّ غلب النعاس أخيراً على والدها ، لكنَّ تشيكو لم تستطع النوم . في اليوم التالي استيقظت تشيكو مبكرة ، كنست الشارع أمام المحلّ ، ومسحت المقاعد قرب الباب المشبّك .

استمر مهرجان « گيون » .

بعد اليوم الثامن عشر ، كان هناك بناء عربات المهرجان ، ثم (مهرجان ستانر « يونييامـا ») في اليوم الثالث والعشرين ، ثم موكب العربات في اليوم الرابع والعشرين ، وبعد ذلك ، عَرْض « كيوجن » التكريسي ، وغسل محفّة الصومعة في اليوم الثامن والعشرين ، وبعدئذ الرجوع إلى صومعة « ياساكا » حيث هناك مهرجان لإذاعة نهاية احتفالات الشنتو .

عبرت عدّة عربات خلال « تيراماتشي » .

مع كل فعاليات مهرجانات الشهر ، قلب تشيكو لا يهدأ .

الحواشي

(١) Gingho : شجرة ذات أوراق مروحية الشكل وأزهار صفراء ، تزرع في الصين واليابان .

(٢) إله الشفقة والرحمة والحبّ . لقد أقسم أن ينقذ جميع الكائنات بحنان . كانت له ملامح أنثى ، لذا عبده اليابانيون الكاثوليك على أنه مريم الأمّ . عموماً يعتبر كانّون في شرقي آسيا ، أنثى .

(٣) سييشي : سيدة صينية جميلة (؟)

(٤) تعني الـ shogun حرفياً القائد العسكري . وهو لقب اتخذه الدكتاتوريون العسكريون الذين حكموا اليابان في سيطرة مزدوجة مع الامبراطور من عام ١١٩٢ إلى عام ١٨٦٨ .

(٥) اوسراجي جيرو : روائي ياباني . اسمه الحقيقي نوجيري كيوا يكو (١٨٩٧ ـ ١٩٧٣) . درس العلوم السياسية وتخرج من جامعة طوكيو . عمل في وزارة الخارجية ، ولكنه بعد الزلزال الكبير عام ١٩٢٣ بطوكيو ، نذر نفسه للكتابة .

لون الخريف

أحدُ آخر ما تبقّى ، ممّا يذكّر بحضارة وتطور «مييجي» ، هو الترام الكهربائي الذي يسير على طول خطّ «هوريكاوا كيتانو» ـ إلا أنه سيُفكّك أخيراً .

عُرفت العاصمة القديمة التي عمرها ألف عام ، بأنها المكان حيث كثير من الابتكارات من (الغرب) تُتبنّى على عجل . إن هذا الميل واضح بين كثير من الناس في كيوتو .

لكن ربما ما يزال هناك شيء من العاصمة القديمة في مدينة حافظت على سير الترام لمدّة طويلة . من نافلة القول إن عربة القطار نفسه ، صغيرة ، حيث تلمس في الأكثر ركبتا الجالس ، ركبتيْ مَنْ أمامه .

والآن ، والترام سُيفكّك على أية حال ، يبدو أن الجميع يكرهون مفارقته . فقد زخرفه الأهالي بالأزهار وسمّوه «قطار الزهر» . لقد أعلن عن الترام مع ركاّب يرتدون ثياباً من عصر «مييجي» هل سيصبح هذا مهرجاناً آخر في كيوتو ؟

استمرَّ القطار بالعمل لأيام كثيرة مع حمولة كاملة من الركاب الذين

ليس لديهم سبب خصوصي للركوب . كان الوقت شهر يوليو/ تموز ، وحَمَلَ بعض الناس حتى مظلات خفيفة .

شمس الصيف في كيوتو أكثر شدّة بكثير منه في طوكيو . حيث الآن بالكاد نجد شخصاً يحمل مظلّة .

بينما كان تاكيتشيرو يتهيّأ للصعود في «قطار الزهر» مقابل محطة كيوتو كانت هناك امرأة في منتصف العمر واقفة وراءه تحاول أن تكتم ابتسامة .

لا يمتلك تاكيتشيرو مسحة من سيماء أهالي «ميبجي» تؤهله لركوب القطار القديم .

انتبه تاكيتشيرو إلى المرأة بينما كان يصعد في القطار . تكلّم بارتباك بعض الشيء . «ماذا تعنين ، ضاحكةً ؟ ليست لديك أية أوراق تصديق هويات الناس في ميبجي» .

«أنا لست بعيدة جداً عن تلك الحقبة» . أجابت المرأة . «بالإضافة ، فأنا أعيش بقرب خط كيتانو» .

«حقّاً ؟ آ ، ذلك كان المكان ،» قال تاكيتشيرو .

«ذلك كان المكان! يا لها من صيغة باردة وضعتها بها! مع ذلك ، فأنت طيّب بما فيه الكفاية ، لأن تتذكر» .

«تلك فتاة جميلة معك . أين كنتِ تخفينها ؟ »

«أحمق . أنها ليست ابنتي . كان عليك أن تعرف ذلك» .

«ثم ماذا ، لم أعرف . تعرفين ما هي عليه النساء» .

«ماذا تعني ؟ إنها مشكلة الرجل ، كذلك» .

للفتاة ، وعمرها حوالي اربعة عشر أو خمسة عشر عاماً ، بشرة بيضاء جميلة . ترتدي فوق كيمونتها الصيفية الرقيقة زنّاراً ضيقاً أحمر . كانت خجلى . جلست وهي زامّة شفتيها ، إلى جوار المرأة حتى تتفادى تاكيتشيرو .

سحب تاكيتشيرو ردن المرأة سحباً خفيفاً .

«أجلسي هنا بيننا ،» قالت المرأة للفتاة .

لبرهة لم يتحدث أيّ من الثلاثة . بعدئذ مالت المرأة فوق رأس الفتاة وهمست في أذن تاكيتشيرو . «أفكر بارسالها إلى الـ «مايكو[1]» في « گيون »» .

« لمن هذه الطفلة ؟ »

« إنها طفلة صاحبة بيت المتعة القريب من هنا » .

« فهمت » .

« يقول بعض الناس إنها تنتسب لنا ، أنتَ وأنا » تكلمت المرأة بصوت بالكاد يسمعه تاكيتشيرو .

« ماذا ؟ »

كانت المرأة مالكة بيت المتعة في « كاميشيتشكن » .

«أنتَ ذاهب إلى صومعة «تنيجن» في كيتانو ، أليس كذلك ؟... مفتوناً بهذه الفتاة ؟ »

أدرك تاكيتشيرو أن المرأة كانت تمزح .

« كم عمرك ؟ » سأل الفتاة .

« في السنة الأولى ، في المدرسة المتوسطة » .

« همْمْ » . نظر تاكيتشيرو إلى الفتاة . « إذن سأزورك بعد أن أولد ثانية » .

لم يبدُ على هذه الفتاة من الحيّ الخليع انها قد فهمت إلاّ بغموض كلماته الغريبة .

« لماذا عليَّ أن أذهب إلى صومعة كيتانو بسببها ؟ هل هي تجسيد « لتنجين » . مازَحَ تاكاتشيرو مالكة بيت المتعة .

« هي . هي »...

« لكن « تنجين » ذكر »

« تَجسَّدَ ثانية بصورة فتاة » . تخلصت المرأة من محاججة تاكيتشيرو . « لأنه لو تجسَّد ثانية بصورة ذكر ، لعاني من مرارة النفي كرّة أخرى » .

انفجر تاكيتشيرو تقريباً من الضحك . « وكامرأة ؟ »

« كامرأة ، حسناً... كامرأة ، إنها تُحَبّ وتُراعى من قبل مُحِبّ » .

« أفهم ذلك »

كانت الفتاة بلا نقاش جميلة . شعرها الأسود يلمع ، مثل لون مخلوق مائي غامض . كانت فتاة محبوبة ، ولعينيها تقريباً شكل عيون (غربية)

« هل هي طفلة وحيدة ؟ » تساءل تاكيتشيرو .

« لا ، لها أختان أكبر منها . ستنهي الأخت الأكبر المدرسة المتوسطة

في الربيع القادم ، لذا فيمكن أن تقوم بالظهور الأوّل في الحفلات » .

« هل هي جميلة مثل هذه الفتاة ؟ »

« تشبهها ، ولكنها ليست بجمال هذه » .

لا توجد « مائيكو » واحدة ، أو گيشا تحت التدريب في الوقت الحاضر في « كاميشيتشكن » . حتى لو أرادت فتاة أن تصبح « مائيكو » فلن يسمح لها إلاّ بعد انتهائها من المدرسة المتوسطة .

دُعيتْ « كاميشيتشكن » أو « البيوت السبعة العليا » ، بهذا الاسم ، لأنها بالأصل كانت هناك سبعة بيوت متعة . لقد سمع تاكيتشيرو أن هذا العدد ازداد إلى عشرين .

في الماضي ، وليس في الماضي البعيد جداً ، اعتاد تاكيتشيرو على الذهاب في أكثر الأوقات إلى « كاميشيتشكن » للمتعة ، برفقة الحائكين من مدينة « نيشيجن » ، أو مع زبائنه المفضلين من مناطق قصيّة . كان محلّه مزدهراً في ذلك الوقت .

« لا بدّ أنك نفسك فضولي... راكباً هذا القطار أيضاً » .

« من الضروري للناس أن يكرهوا مفارقة الأشياء ، » قالت . « مهنتنا لا تنسى الزبائن الدائميين القدامى » .

كان تاكيتشيرو صامتاً .

« فضلاً عن ذلك ، فقد أوصلتُ ضيفاً إلى محطة كيوتو . خطّ القطار هذا على طريقنا إلى البيت . ألستَ أنتَ ، ياسيدسادا ، غريب الأطوار قليلا... تركب وحيداً ؟ »

« قد يكون الأمر كذلك . أتساءل لماذا أنا كذلك . كان كافياً أن أرى

قطار الزهر » . أمال تاكيتشيرو رأسه . « هل لأن الماضي مفعم بالذكريات ؟ أو بسبب أنها الآن موحشة ؟ »

« موحشة ؟ لست مسناً لتلك الدرجة لتتكلم كلاماً كهذا . أتودَ المجيء معنا ؟ في الأقل لمشاهدة الفتيات الشابات ؟ »

شعر تاكيتشيرو وكأنما سيكون برفقتهما إلى « كاميشيتشكن » .

تبع تاكيتشيرو مالكة بيت المتعة ، بينما كانت تسير رأساً إلى صومعة كيتانو . كانت صَلاتها الشديدة التفاصيل طويلة . الفتاة ، أيضاً ، حنت رأسها . رجعت المرأة إلى جانب تاكيتشيرو . « أعذرها رجاءً » .

« بالتأكيد » .

« اذهبي إلى البيت الآن » . قالت المرأة للفتاة .

« شكراً » . قالت الفتاة مع السلامة لهما .

وبينما كانت تسير مبتعدة ، اتخذت خطواتها شكل تلميذة في المدرسة المتوسطة .

« يبدو انك انسحرتَ تماماً بالفتاة ، » قالت المرأة . « ستقوم بظهورها الأول في المجتمع في غضون سنتين أو ثلاث . انظرْ إلى ذلك الوقت بأمل ، ولكن من الصعب الانتظار . إنها جميلة جداً » .

لم يستجب تاكيتشيرو . وبعد أن قطع هذه المسافة ، أراد أن يتجول في الأماكن المحيطة ، لكنَّ الحرّ شديد .

« هل لي أن آخذ قسطاً من الراحة في منزلك ؟ لقد أصبحتُ متعباً جداً » .

«بالطبع . كنتُ أخطّط لذلك منذ البداية . لقد مضى وقت طويل» . قالت المرأة .

حينما اقتربا من بيت المتعة القديم ، تكلمت المرأة مرّة ثانية . «تعال إلى الداخل . ما الذي كنتَ تفعله مؤخراً ؟ كنت أتمنّى لو أعرف . تمدّدْ رجاءً ، وسأجلب مخدّة . لقد ذكرتَ أنك كنتَ وحيداً . سآتي بفتاة رقيقة ، تستطيع أن تتحدث معها» .

«لا أريد أن أرى أية گيشا ، التقيتُ بها من قبل»

جاءت گيشا شابة في تمام الوقت الذي أخذ فيه تاكيتشيرو بالنعاس . جلستْ بهدوء لزمن قصير ، ربما متسائلة بشأن هذا الضيف الصعب الإرضاء الذي تلتقي به لأوّل مرّة . جلس تاكيتشيرو بوهن ، غير محاول انعاش المحادثة . تكلمت الگيشا محاولة إبهاجه . قالت إنها منذ أن قامت بظهورها الأول ، التقت بسبعة وأربعين رجلاً تقريباً ، فتنوها .

«تماماً مثلما في المسرحية القديمة الشهيرة ، عن السبعة والأربعين خادماً وفياً . من الطريف التفكر بها الآن ـ السقوط في حب كثير من الرجال . بعضهم كان في أربعيناته أو خمسيناته . ضحكوا منّي جميعاً .

استيقظ تاكيتشيرو تماماً . «والآن ؟»

«والآن ، واحد فقط» .

كانت مالكة بيت المتعة في قاعة الاستقبال كذلك .

الگيشا في حوالي العشرين من عمرها . مع ذلك ، ما زال تاكيتشيرو يتساءل مع نفسه ، إن كانت حقاً تتذكر جميع السبعة والأربعين رجلاً ، على الرغم من أن علاقتها بهم ليست عميقة .

في مرّة ما ، وبعد ثلاثة أيام من أوّل ظهور لها كگيشا قبّلها أحد الضيوف فجأة بينما كانت تقوده إلى غرفة الاستراحة . عضّتْ لسانه .

« هل نزف ؟ »

« نعم . سألنا أن ندفع أجور الطبيب . كان الرجل غاضباً تماماً . بكيتُ وكان هناك اضطراب قليل . إنها غلطته... ألا تعتقد كذلك ؟ لقد نسيتُ اسمه فعلاً » .

« همْمْ » . نظر تاكيتشيرو إلى وجه الگيشا ، متصوراً الحسناء ذات الكتفين المنسابتين ذات الجمال الرقيق على ما يبدو ، تعضّ فجأة لسان رجل .

« أريني أسنانك » . قال تاكيتشيرو للگيشا .

« أسنان ؟ أسناني ؟ ألم ترها حينما كنت أتكلم ؟ »

« أريد أن أنظر إليها نظرة أفضل . أريني ابتسامة ؟ »

« لا . أنا محرجة » . تركت الگيشا شفتيها مغلقتين . « لن يكون بمقدوري أن أتكلم » .

أسنان الگيشا مثل خرز أبيض في فمها الجميل . داعبها تاكيتشيرو ، « أعرف . كُسرتْ أسنانك عندئذ ، وهذه اصطناعية ، أليس كذلك ؟ »

« لسان معسول ، لذا... ، » قالت وهي شاردة الذهن . « آه كُفَّ عن ذلك » . أخفت رأسها خلف مالكة بيت المتعة .

بعد فترة تكلّم تاكيتشيرو ، لقد جئت كل هذه المسافة ، لذا أعتقد أنني سوف أقوم بزيارة عرضية لـ « ناكاساتو »

« ماذا ؟ سيكونون سعداء برؤيتك هناك . هل لي أن أذهب معك ؟ »

نهضت مالكة بيت المتعة ثم قعدتْ أمام المرآة لبرهة .

ما تزال الواجهة الأصلية لمبنى ناكاساتو على حالها ، إلاّ أن غرف الضيوف في الداخل جديدة كلها . انضمّت إليهما گيشا أخرى . بقي تاكيتشيرو إلى ما بعد الغداء .

جاء « ايديو » إلى المحل حينما كان تاكيتشيرو في الخارج . سأل عن تشيكو ، لذا خرجت في الأمام .

« لقد أنهيت تصميم الزنّار الذي وَعَدتُ به في مهرجان « گيون » جئتُ حتى تُلقي نظرة عليه ، » قال ايديو .

« يا تشيكو ، » نادتها أمّها . « لماذا لا تذهبان وتجلسان في الخلف ؟ »

« وهو كذلك » .

عرض ايديو التصميم على تشيكو ، بينما هما جالسان في الغرفة التي تواجه الحديقة الداخلية . كان هناك تصميمان . واحد بأزهار أقحوان منسّق بين أوراق ، صُوِّرت بطريقة مبتكرة لا يمكن معها لأحد أن يتعرف عليها على أنها أوراق أقحوان . التصميم الآخر من أشجار الاسفندان .

« إنهما بهيجان » . أُعجبتْ تشيكو بهما .

« أنا سعيد أنك أحببتهما ، » قال ايديو . « أي منهما سأحوكه لك ؟ »

« حسناً ، أستطيع أن ارتدي الأقحوان طيلة السنة » .

« إذن سأستعمل تصميم الأقحوان ؟ »

لم تتكلم تشيكو . نظرت إلى الأسفل . أتخذ وجهها مظهرَ قَلق .

« كلاهما رائع ، لكن... »تلعثم صوتها . « هل يمكنك القيام بتصميم للجبال مع أشجار الأرز والصنوبرالأحمر ؟ »

« جبال بصنوبر أحمر وأشجار أرز . يُخيّل لي أنه سيكون صعباً ، لكن يمكنني التفكير به » . أعطى ايديو ، تشيكو نظرة متحيّرة .

« ايديو ، أنا متأسفة » .

« متأسفة ؟ ما من شيء يتطلب منك أن تكوني متأسفة » .

« لكن... » فتشت تشيكو عن كلمات . « لم أكنْ أنا التي وَعَدْتها بالزنّار على الجسر في شيجو في المهرجان . لقد حسبت فتاة أخرى ، على أنها أنا » .

صوت ايديو لم يستطع الخروج ، لم يكن قادراً على تصديقها . فَقَدَ وجهه قوّته . لقد وضع من أجل تشيكو كلَّ قلبه في التصميم . هل نيّة تشيكو أن ترفض ايديو تماماً ؟

لكن إذا كانت تلك هي الحالة ، فإن أيديو لم يستوعب ملاحظات تشيكو ولا سلوكها . استعاد عاطفته العنيفة .

« هل التقيتُ بشبحك ؟ هل كان شبحك ذاك الذي تكلمتُ معه ؟ هل الأشباح تظهر في مهرجان « گيون » ؟ » لم يذكر أيديو الاعتقاد الخرافي القديم بمشاهدة طيف المعشوق .

توتّر وجه تشيكو . « إن البنت ، يا ايديو ، التي تكلمتَ معها هي أختي » .

لم يتكلم ايديو ، لذا استمرّت تشيكو . « إنها أختي » . لقد التقيتُ بها أنا نفسي لأوّل مرّة تلك الليلة ، إنها أختي » .

ما يزال لم يستجبْ .

« لم أُخبر حتى والدتي ووالدي عنها لحدّ الآن » .

« ماذا تعنين ؟ » أُخذ ايديو على حين غرة . لم يفهمْ .

« تعرف قرية ألواح الخشب في كيتايايما ؟ إنها تشتغل هناك » .

« ماذا ؟ »

كان اعتراف تشيكو حاداً وسريعاً تماماً بحيث أن أيديو لم يعثر على كلمات .

« هل تعرف منطقة « ناكاگاوا ؟ » سألته تشيكو .

« نعم ، لقد مررتُ بها بالحافلة » .

« أعطِ تلك الفتاة واحداً من زنانيرك » .

« ماذا ؟ »

« رجاءً أعطها واحداً » .

هزَّ ايديو رأسه مع نظرة شاكّة ، وبعد ذلك سأل ،

« هكذا ، هل قلت تريدنني أن أقوم بتصميم بصنوبرة حمراء وجبل ارز ؟ »

هزت تشيكو رأسها .

« حسناً . لن يكون مطابقاً تماماً لحياتها اليومية ؟ »

« إنها مسؤوليتك أن تأخذ ذلك بالحسبان . ستعتزُّ به طيلة حياتها . اسمها ناييكو . أنها ليست ابنة صاحب أراضٍ ، لذا فهي تكدح . أكثر... أكثر بكثير من أيّ شخص مثلي » .

كان ما يزال ايديو شاكاً . « سأحوك الزنّار ما دمت قد سألتني » .

« تذكّرْ أن اسمها ناييكو » .

« أفهم ذلك . لكن لماذا تشبهك كلَّ هذا الشبه ؟ »

« نحن شقيقتان » .

« لكن حتى الأخوات لا... »

لم تكشف لايديو ، أنهما توأمان .

ربما ليس بسبب عينيه اللتين خدعتاه ، فَحسِبَ ناييكو هي تشيكو في ضوء المساء ، ما دامتا ترتديان ثياب مهرجان صيفية خفيفة ، كما أيّ شخص آخر .

« كيف يمكن لهما أن تكونا شقيقتين ، تساءل ايديو . هذه الفتاة التي رآها ، هي الآن أمامه ـ ابنة بائع الكيمونو الفاخرة بالجملة ، ومحله العتيق ، القديم الطراز بصورة ما ، قائم بعيداً في الأعماق خلف طبقات الأبواب المشبكة الجميلة ـ وفتاة تحت التدريب في قرية ألواح خشب في كيتاياما . لكنَّ ذلك ليس شيئاً لا يمكنه تحرّيه والتأكد منه .

« حين أُنهي الزنّار ، هل لي أن أجلبه إلى هنا ؟ » تساءل ايديو .

« حسناً ، » فكرت تشيكو لبرهة . « هل تستطيع إرساله إلى ناييكو رأساً ؟ »

«نعم ، باستطاعتي ذلك» .

«إذن رجاءً قمْ بذلك» . كان قلب تشيكو في طلبها . «تسكن بعيداً قليلاً» .

«أعرف . لكن من السهولة ايجاده» .

«ستكون نايبكو سعيدة للغاية» .

«هل ستقبله ؟» كان شكّ ايديو معقولاً . تساءل هل ستكون نايبكو مندهشة .

«سأخبرها عنه» .

«آ ، إذا أخبرتها بذلك فسأكون سعيداً أن آخذه لها . ما اسم المنزل ؟»

لم تعرف تشيكو . «المنزل الذي تسكن فيه ؟»

«نعم» .

«سأخبرك عن طريق الهاتف أو برسالة» .

«وهو كذلك» . قال ايديو . «سآخذه لها . سأحوكه حياكة جيدة ، كأنما هو زنّارك ، وليس زنّار شبيهتك» .

«شكراً» . خفضت تشيكو رأسها . «هل تعتقد أن هذا شيء غريب ؟ متأسفة لإزعاجك ، لكن ، يا ايديو ، حُكْهُ رجاءً لا من أجلي بل من أجل نايبكو» .

«كما تشائين» .

شعر ايديو ، حينما غادر المحلّ ، بالطبع . وكأنه غُلِّفَ بأحجيّة ، مع ذلك فقد عقد العزم على عمل تصميم . خاف أن يكون التصميم بسيطاً جداً لذوق تشيكو ما لم يجعله جريئاً جداً . ما يزال ايديو كما يبدو يعتبره وكأنه زنّار لتشيكو . لا ، فلو كان زنّاراً لناييكو ، إذن لصممه بطريقة لا تتعارض مع أسلوب حياتها . كان مثلما قال لتشيكو .

عطف ايديو خطواته ناحية الجسر في شيجو حيث التقى لأوّل مرّة بـ : « تشيكو ناييكو » أو « ناييكو تشيكو » ، لكن الطقس كان حاراً تحت شمس الظهيرة . أغمض ايديو عينيه . حينما استند على السياج في نهاية الجسر . أصغى ليس لأصداء حشود الناس ، أو إلى القطارات ، لكن إلى الصوت الذي بالكاد يُسمع من تدفق النهر .

لم ترَ تشيكو ألـ « داييموجي » هذه السنة . حتى أمّها ذهبت مع أبيها بنزهة نادراً ما تَحْدُثُ ، وهما معاً ، إلاّ أن تشيكو بقيت في البيت .

حجز والداها غرفة كاملة في بيت المتعة في « كِيا ينجو » مع عدد من أصحاب العمل الأصدقاء الذين يعملون إلى جوارهم .

« داييموجي[٢] » في السادس عشر من أوغسطس/ آب ، نار للتدليل على نهاية مهرجان الـ « بون » . لقد قيل إنَّ عادة إشعال نار على الجبال جاء من عرفٍ تُرمى فيه مشاعل مشتعلة ، لهداية الأرواح عبر السماء الليلية في عودتها إلى عالم الأموات .

الداييموجي على قمة « نيوئيگاتاك » على جبل « إيگاشياما » أكثرها شهرة ، لكن في الواقع توجد خمسة جبال تُشعل فيها النيران . الـ « داييموجي » في اليسار على جبل « اوكيتاياما » قرب « كنكا أوجي » والـ « مييوهو » قرب جبل « ماتسوغا ساكا » والـ « فوتگاتا » على جبل « ميوكن

إياما » في « ناشيگاما » و« تورينيگاتا » على جبل في « كاميساگا » . المجموع خمسة نيران متصاعدة تُشعل لتوجيه أرواح الأموات في عودتها إلى العالم السفليّ . فخلال أربعين دقيقة من هذه الحوادث تُطفأ كل أنوار « النيون » والاعلانات في المدينة .

بإمكان تشيكو أن تتحسس لون الخريف المبكّر في النيران المتصاعدة وفي وهج السماء الليلية .

قبل أسبوعين من الـ « دايبموجي » وفي مساء ما قبل بداية الخريف ، تُعقد احتفالات « الصيف المنصرم » في صومعة « شيموگامو » .

من عادة تشيكو وأترابها ، تسلّق السياجات على نهر كامو لرؤية « دايبموجي » في اليسار . لقد تعوّدت على رؤية « دايبموجي » منذ أن كانت طفلة .

« حلَّ فعلاً وقت « دايبموجي » مرّة أخرى » . جاءت لها هذه الفكرة باطراد أثناء ما كانت تكبر .

ذهبت تشيكو إلى أمام المحلّ ، ولعبت مع أولاد الجيران حول المساطب . لم يهتمّ الأطفال على ما يبدو بأشياء كهذه ، مثل دايبموجي ، مفضلين الألعاب الناريّة الأكثر إثارة .

عاد مهرجان « بون » بحزن جديد على تشيكو ؛ فقد التقت بنايبكو في « گيون » وأُخبرتْ أن أبويها الأصليين قد ماتا منذ مدّة طويلة .

« نعم ، سأذهب وأرى نايبكو غداً ، » فكرت تشيكو . « ينبغي أن أخبرها عن الزنّار الذي يحوكه ايديو » .

ذهبت تشيكو في اليوم التالي بملابس لا تجلب النظر . إنها لم ترَ نايبكو في النهار .

نزلت من الحافلة عند (شلالات بوداني) .

يبدو أنه موسم النشاط في « كيتاياما » . الرجال يقلّمون اللحاء الخشن من خشب ألواح الأرز . إنها تسقط هنا وهناك في أكوام .

ترددت تشيكو ، ثم سارت قليلاً . فجأة جاءت نايِيكو راكضة بأقصى سرعة .

« يا آنسة ، شكراً على مجيئك . شكراً »

نظرت تشيكو إلى ملابس عمل نايِيكو . « هل أنت متأكدة من أن الزيارة مناسبة ؟ »

« نعم ، طلبتُ أن أكون متعطلة عن العمل بقية اليوم... حينما رأيتك » . تكلمت نايِيكو لاهثة الأنفاس . « هل نتحدث على الجبال ؟ ما من أحد يرانا هناك » . ساحبة ردن تشيكو .

نزعت نايِيكو بجذل مريلتها وفَرَشَتْها على الأرض . مريلة « تامبا » القطنية انتشرت وكانت واسعة بما يكفي لأن تجلس عليها الفتاتان معاً .

« اجلسي رجاءً » . قالت نايِيكو .

« شكراً » .

نزعت نايِيكو غطاء رأسها ورتبت شعرها بأصابعها . « شكراً جزيلاً على مجيئك . أنا سعيدة جداً » . تلألأت عيناها وهي تحدّق بتشيكو .

كانت رائحة الأرض والأشجار نفّاذة ـ عطور شجر الأرز الجبلي .

« إذا جلسنا هنا ، فما من أحد يرانا من الأسفل ، » قالت نايِيكو .

« أحبَ غياض الأرز . كثيراً ما جئت إلى هنا من قبل ، ولكنَ هذه هي

المرّة التي أكون فيها في أعلى الجبال» . نظرت تشيكو حواليها . كانت الفتاتان محاطتيْن بجذوع الأرز المستقيمة ذات الحجوم الموحّدة .

«تلك أشجار من صنع الإنسان ،» قالت نايبكو .

«ماذا ؟»

«هذه عمرها حوالي أربعين سنة . ستُقطع وتُصنع منها أعمدة أو ما شابه . إذا ما تُركتْ لحالها ، فربما تنمو لألف سنة... واسعة وطويلة . أفكّر بذلك بين الفينة والفينة . أحب أفضل ما أحبّ الأحراش المتروكة على طبيعتها ، لكنْ في هذه القرية كأننا نربّي الأزهار لنقطعها .

لم تتكلم تشيكو .

«لو لم يوجد كائن ما مثل الإنسان ، فلا يمكن أن توجد مدينة مثل كيوتو كذلك . ستكون كلها أحراش طبيعية وكلأ حشائش . ستكون هذه الأرض للأيائل والخنازير البرية . أليس كذلك ؟ لماذا ظهر الإنسان في العالم ؟ فكرة مرعبة... الجنس البشري» .

«هل تفكرين ، يا نايبكو بأشياء كهذه ؟» كانت تشيكو مندهشة .

«نعم ، في بعض الأحيان» .

«هل تمقتين الناس ؟»

«أحبّ الناس ،» ردّت نايبكو . «لا أحبُ شيئاً قدر حبّي للناس ، كيف ستكون الأرض لو لم يوجد فيها بشر ؟ أفكّر فجأة بأشياء كهذه بعد إغفاءة في الجبال» .

«أليس ذلك نوعاً من التشاؤم مخفياً في قلبك ؟»

«أكره التشاؤم . إنني اتمتع بالعمل هنا كلّ يوم... لكنني أتساءل عن الناس» .

تغيّرت فجأة غيضة الأرز فأصبح لونها داكناً .

«يبدو وكأنه مطر ،» قالت نابيكو . شرع المطر يتجمع على أوراق أشجار الأرز ، وساقطاً بقطرات كبيرة . دوّى الرعد العنيف .

«أنا خائفة» . شحبت تشيكو . أخذتْ نابيكو يدها .

«يا آنسة ، إثني ركبتيك وكوّري نفسك كرة ،» قالت نابيكو منحنية فوق تشيكو مغطية إياها بجسمها تماماً .

بات الرعد أشدّ فأشدّ ، وما هو إلاّ وقت قصير حتى لم يَعُدْ هناك فاصل بين البرق والرعد . بدت الجبال وكأنها ستتشقق من فرط هزيم الرعد .

كانت الزوبعة فوق الفتاتين مباشرة .

أغصان الأشجار على جبل الأرز تتحرك بعنف في المطر . في كلّ مرة يومض فيها البرق ، تضاء الأرض ، ويسطع على الأشجار حول الفتاتين . في ذاك الوقت ، تبدو جذوع الأشجار الجميلة المستقيمة في الغيضة غريبة ومنذرة بالشرّ . بعدئذ تهزم الرعد .

«نابيكو ، ستصيبنا صاعقة!» جثمتْ تشيكو منكمشة .

«ربما ستصيب الأرض ، لكنها لا تصيبنا ،» قالت نابيكو بيقين . «هل تظنين أن البرق سيضربك ؟»

ثمَّ غطّتْ تشيكو بجسمها حتى أكثر من السابق .

«يا آنسة أصبح شعرك نديّاً» . مسحتْ نابيكو مؤخرة رأس تشيكو بمنشفتها . ثم طوت المنشفة وأدارتها على قمة رأس تشيكو .

«قد تسقط قطرات مطر قليلة ، لكن البرق لا ينزل حتى بالقرب منك أبداً » .

هدأت تشيكو لدى سماع صوت نايكو الحنون . «شكراً . شكراً جزيلاً . لكن ألا تتبللين وأنت تحمينني» .

«هذه ملابس العمل . فلا أهتمّ قط ،» قالت نايكو . «أنا في منتهى السعادة» .

«ما ذاك الشيء اللمّاع فوق حزامك ؟» تساءلت تشيكو .

«آ ، لقد نسيتُ . إنه منجل . كنت استعمله في قَطْع اللحاء من أشجار الأرز على جانب الطريق ، حينما ركضتُ للقائك» . نظرتْ إليه . «إنه خطِر» . رمت المنجل بعيداً .

«سآخذه أثناء العودة... لكني لا أريد في الواقع أن أغادر»

بدا الرعد يمضي بعيداً .

شعرت تشيكو بمعانقة نايكو بوضوح بينما كانت الفتاة الجبلية تغطّيها بجسدها . رغم أنه كان صيفاً ، إلا أن المطر في الجبال ، جعل كلَّ شيء بارداً ، لكن بينما غطّت نايكو تشيكو من الرأس إلى القدم ، فإن دفء كيان نايكو انتشر عميقاً في جسد تشيكو .

كان الدفء فوق الوصف . استكنّت تشيكو لفترة ، وعيناها مغمضتان بأفكار مبهجة .

«شكراً ، نايكو ،» قالت مرّة أخرى . «عجباً هل قمتِ بشيء مماثل لي في رحم أمّنا» .

« ألم نكن نتدافع وتركل أحدانا الأخرى هناك ؟ »

« ربّما كان ذلك ، » ضحكت تشيكو بصوت حميم .

مرَّ المطر مع الرعد .

« شكراً ، نايبكو . أظنّ أني على ما يرام الآن » . تحرّكت تشيكو كأنما تريد أن تقف .

« نعم ، لكن دعينا نبقى على هذا الوضع لفترة أطول . فقطرات المطر التي تجمعتْ على الأوراق ما تزال تسقط » . استمرّت نايبكو في حمايتها .

وضعت تشيكو يدها على ظهر نايبكو . « أنت مبللة تماماً . ألا تشعرين بالبرد ؟ »

« لقد تعوّدت عليه . إنه لا شيء » . قالت نايبكو . « أنا سعيدة جداً بمجيئك . أشعر بدفء في أعماقي . لقد تبللتِ قليلاً أيضاً » .

« نايبكو ، هل كان هذا المكان الذي سقط عليه والدنا من الشجرة ؟ » تساءلت تشيكو .

« لا أعرف . لم أكن إلاّ طفلة أنا نفسي في ذلك الحين » .

« أين قرية بيت والدتنا ؟ هل لدينا جدّ أو جدّة ؟ »

« لا أعرف هذا كذلك » . أجابت نايبكو .

« هل رُبّيتِ في القرية ؟ »

« يا آنسة لماذا تسألين مثل هذه الأسئلة ؟ » غمغمتْ تشيكو كلماتها ، حين سمعت نايبكو تتكلم بحدّة .

«أليست لديك عائلة ؟» تساءلت نابيكو .

لم تُجِبْ تشيكو .

«سأكون ممتنّة لو لم تفكري بي على أنّي أختك . أنا متأسفة لما قلتُه في مهرجان «گيون»»...

«كنتُ سعيدة» .

«كنت أنا كذلك ، لكني لا يمكنني الذهاب إلى بيتك» .

«لكن إذا جئتِ ، فسأرتبَ كل شيء... سأتحدث لوالدي ووالدتي...»

«لا ،» قالت نابيكو بحزم . «إذا وقعتِ في مشكلة في أيِّ وقت ، كما أنت عليه الآن ، فسأحميك حتى لو متُّ وأنا أفعل ذلك . تفهمين ما أقول ، أليس كذلك ؟»

اهتزّت مشاعر تشيكو ، فبكتْ . «نابيكو ، لم تعرفي ما الذي تفعلينه في المهرجان ذاك المساء ، حين حسبوك أنا ، أليس كذلك ؟»

«تعنين حينما تحدث الرجل معي عن الزنّار ؟»

«إنه حائك في محل زنانير في «نيشيجن» . قال إنه سيصنع زنّاراً لك . ألم يَقُلْ ذلك ؟»

«لأنه حسبني أنت ؟»

«جاء قبل أيام ليريني التصميم . قلتُ له إنها ليستْ أنا . أخبرته أنها أختي»...

«ماذا ؟»

«رجوته أن يصنع زنّاراً لأختي نابيكو ، كذلك» .

« لي ؟ »

« ألم يوعدك بصنع زنّار لك ؟ »

« لكنه حسبني أنت » .

« سيصنع زنّاراً لي وزنّاراً لك ، أيضاً... كرمزٍ على أننا شقيقتان » .

« لي ؟ » أُخِذتْ ناييكو على حين غرة .

« كان وعداً قطعه في « گيون » ، أليس كذلك ؟ » تساءلت تشيكو بحنان .

بات جسم ناييكو متصلباً حتى وهي ما تزال تغطّي تشيكو ، إلا أنها لم تبتعد .

« تشيكو ، إذا وقعت بمشكلة في أي وقت فسآخذ مكانك بسرور ، لكن لا يمكنني قبول هدية نيابة عنك . سيكون ذلك عاراً » .

« إنها ليست هدية نيابة عني » .

« بل هي » .

كيف يمكن لتشيكو أن تقنعها ؟

« ألا تقبلينها ، لو كنتُ أعطيتك إياها ؟ »

لم تُجِبْ ناييكو .

« سألتُهُ أن يحوكها حتّى أعطيك إياها » .

« لم يكن الأمر بتلك الصورة . ففي ليلة الاحتفال حسبني أنتِ وقال إنه يريد أن يعطيك زنّاراً » .

تكلمت نايیكو بوضوح شديد . «صانع الزنّار ذاك ، ذاك الحائك في الواقع يتشوّق إليك . أنا امرأة من نوع ما ؛ أفهم المسألة بهذا القدر» .

كتمتْ تشيكو حرجها .

«ألا تقبلينه ؟»

ظلّت نايیكو صامتة .

«لقد أخبرته أنك شقيقتي . سألته أن يحوكه لك» .

«سأقبله ، يا آنسة» . حنت نايیكو رأسها بطاعةٍ .

«آسفة إنني قلتُ ما قلتُ»

«سيأتي به إليك . ما اسم بيتك ؟»

«موراس» . أجابت نايیكو . «سيكون زنّاراً رائعاً . أنا على يقين من ذلك ، لكنَّ فتاة مثلي لن تكون لها فرصة لارتدائه أبداً» .

«نايیكو ، ما من أحد يعرف إلى أين سيأخذه طريق الحياة» .

«حقاً ما تقولين . حقاً ما تقولين ، » هزّت نايیكو رأسها . «لكني لا أريد أن أخرج الى العالم . حتى لو أنني لا استطيع ارتداءه ، فسأحتفظ به ككنز» .

«محلّنا لا يتاجر بالزنانير ، لكنني سأجد كيمونو مناسبة للزنّار الذي يقوم ايديو بصنعه» . واصلت تشيكو ، «أبي رجل غريب تماماً . لديه في المدّة الأخيرة مشاعر سيئة ضدَّ شغلنا . فما من نجاح لمحلّ بيع أشياء منوعة بالجملة مثل محلنا ، إذا ما اقتصر على بيع أفضل المواد فقط . لدينا في المدّة الأخيرة مواد اصطناعية ومنسوجات صوفية أكثر فأكثر» .

نظرتْ نـاييكـو إلـى أغصـان أشـجـار الأرز ونـهضـت عـن حمـايـة ظـهـر تشيكو .

«قطرات قليلة ما تزال تسقط . أُصبتِ بتشنج عضلي ، أليس كذلك ؟»

«لا... أنا ممتنة» .

«ماذا لو طُلِبَ منك أن تساعدي في المحل ، يا آنسة ؟»

«أنا ؟» انتصبتْ تشيكو وكأنها صُعقتْ .

التصقت ملابس نابيكو بجلدها ، منقوعة .

لم تشيِّع نابيكو ، تشيكو ، كلَّ المسافة إلى الحافلة ـ لا لأنها مبللة ، لكن خائفة من أن يراها أحد .

حينما عادت تشيكو إلى المحل . كانت أمّها خلف غرفة الدخول تحضّر وجبات خفيفة للموظفين .

«يا أمي ، أنا متأسفة لتأخري . هل الوالد في البيت ؟»

«إنه خلف الستائر التي صنعتها ، يفكّر بشيء ما» . نظرت أمّ تشيكو إليها . «أين كنت ؟ ثيابك نديّة ومجعّدة . عليك تغييرها» .

ذهبت تشيكو إلى الطابق العلوي ، وغيرّت ثيابها بتأنٍ . جلست لفترة ، ثم نزلت إلى الطابق السفلي . انتهت الأمّ من تقديم وجبة الساعة الثالثة بعد الظهر للموظفين .

«يا أمّي ،» تكلمت تشيكو بصوت مرتجف . «لديَّ شيء أودّ التحدث عنه معك على انفراد» .

هزّتْ «شگي» رأسها . «لنذهبْ قليلاً إلى الطابق العلوي في الخلف» .

بات أسلوب تشيكو رسمياً قليلاً . «هل كانت هناك عاصفة رعديّة أيضاً ؟»

«عاصفة رعديّة ؟ لا . لكن ليس هذا ما تريدين التحدث عنه» .

«يا أمّي ، ذهبت إلى قرية الأرز في كيتاياما . شقيقتي هناك . كنّا توأمين . التقيت بها لأوّل مرة في مهرجان «گيون» هذه السنة . قالت إن والدي وأمّي الأصليين قد ماتا منذ مدة طويلة» .

أدهش هذا بالطبع «شگي» . نظرت بسذاجة إلى وجه تشيكو . «قرية كيتاياما ؟»

«لم استطع كتمان الأمر عنك . لقد التقيت بها مرتين فقط... في مهرجان «گيون» ، وهذا اليوم» .

«ماذا تشتغل في الوقت الحاضر ؟»

«إنها تحت التدريب في أحد البيوت في قرية الأرز . إنها تشتغل هناك . إنها فتاة طيبة ، لكنها لا تريد أن تأتي إلى هنا ، إلى بيتنا» .

«همْمْ» . كانت «شگي» صامتة للحظة . «شيء جيّد ينبغي لك أن تعرفي ما الذي تنوين عمله ؟»

«يا أميّ ، هذا هو بيتي . لقد جَعَلْتِني طفلتَك» .

بات وجهها متوتراً .

«بالطبع . كنت ابنتي منذ عشرين عاماً» .

«آه يا أمّي» . وضعتْ تشيكو رأسها في حضن «شگي» .

«في الواقع منذ مهرجان «گيون» ، في بعض الأحيان ـ قليلاً ما ، لكن

في بعض الأحيان كنت تبدين ذاهلة . فكرتُ بأن أسألك إذا ما كنت وجدت شخصاً ما تودّينه! »

كانت تشيكو صامتة .

« لماذا لا تجلبين الفتاة إلى هنا في يوم ما... بعد أن يذهب الموظفون إلى البيوت . ربما في المساء » .

هزّت تشيكو رأسها قليلاً على حضن « شگي » . « لا تريد أن تأتي . إنها لا تدعوني إلاّ آنسة » .

« حقاً ؟ » مسّدت « شگي » شعر تشيكو . « شكراً على إخباري . هل تشبهك كثيراً ؟ »

بدأت الجداجد في جرّة التامبا تسقسق .

الحواشي

(١) مايبو : مدارس لتعليم الفتيات الصغار ، كيفية خدمة الرجال .

(٢) الدايموجي : حروف كبيرة ترسم على جبل وتُشعل .

خضرة أشجار الصنوبر

بعد أن سمع تاكيتشيرو عن بيت معروض للبيع بسعر معقول قرب صومعة «نانزجي» ، دعا زوجته وابنته لمصاحبته لمشاهدة البيت ـ جزئياً للنزهة في الطقس الخريفي الرائع .

«هل في نيّتك شراؤه ؟ تساءلت «شگي» .

«سأقرر بعدما أراه» . بدا فجأة غاضباً . «السعر جيّد ، لكنه بيت صغير» . لم تستجبْ «شگي» .

«دعونا نذهب حتى لو كان ذلك لمجرد النزهة . أليس ذلك شيئاً ممتعاً ؟»

«لا بأس... نعم» .

شعرت «شگي» بعدم ارتياح . إذا ما اشترى البيت ، فهل سيسافر إلى المحلّ ؟ كما في «جنزا» و«نيئونباشي» بطوكيو ، فإن كثيراً من بائعي الجملة في «ناكاجيو» بدأو ا بشراء بيوت منعزلة وراحوا يسافرون إلى محالّهم . قد لا يكون ثمة ضرر من الحذو حذوهم . فمحلّ سادا ، «ماروتا» يعاني من أزمات ، لكن ربما يوجد مال كافٍ لشراء بيت ثان صغير .

لكن هل كان تاكيتشيرو يخطط لبيع المحل «والانعزال عن العالم» في بيت صغير ؟ قد يكون من الأفضل تصفية المحل ما دام ما يزال لديه مال فائض عن الحاجة .لكن إذا كانت تلك هي الحالة ، فما الذي سيفعله تاكيتشيرو وهو يعيش في بيت صغير بالقرب من صومعة «نانزنجي» ؟ كان في أواخر خمسينياته . «شگي» تريده أن يعيش كما يشاء . سيعود المحل عليهم بسعرٍ معقول ، لكنَّ العيش على الفائدة من المصرف ، يجعل حياتهم بالأحرى خامدة بلا همة . فإذا ما استُثْمِرَ المال بحكمة ، فسيعيشون عيشة رضيَّة ، غير أن «شگي» لا تستطيع أن تفكّر بأيِّ شخص يعالج شؤون الاستثمار .

بدت تشيكو وكأنها أحسّتْ بعدم ارتياح والدتها ، على الرغم من أن «شگي» لم تذكرْ شيئاً . كانت تشيكو قليلة الخبرة . نظرت إلى أمّها بينما امتلأت عيناها بالمواساة . كان تاكيتشيرو ، على أي حال ، منشرحاً .

«يا أبي ، ما دمنا ذاهبين في ذلك الطريق ، هل لنا أن نذهب مسافة أخرى قليلة إلى «شورينيئين ؟» سألته تشيكو في السيارة . «أمام المدخل فقط» .

«أشجار الكافور ، هذا ما تريدين مشاهدته ، أليس كذلك ؟»

«عين الصواب» كانت تشيكو مندهشة من تخمين والدها الصائب . «أشجار الكافور» .

«وهو كذلك . دعونا نذهب ،» قال تاكيتشيرو . «كان من عادتي الجلوس تحت ظلّ أشجار الكافور الكبيرة ، والتحدث مع أصدقائي... لم يعدْ منهم أحد في كيوتو» .

تشيكو صامتة .

« كل المنطقة تلك تعيد لي الذكريات » .

تكلمت تشيكو بعد أن تركت والدها في حومة ذكريات شبابه لبرهة . « لم أرَ تلك الأشجار نهاراً ، منذ أن أنهيت المدرسة . يا أبي ، أنت تعرف الطريق الذي تسلكه حافلة النزهة الليليّة ؟ صومعة شورينئين هي واحدة من تلك الصوامع على الطريق . حين تصل الحافلة يخرج عدد من الكهنة حاملين فوانيس مضاءة للقاء الضيوف » .

الممر الذي يُقاد فيه الضيوف إلى المدخل المسقوف ، طويل نوعاً ما ، مضاء بفوانيس الكهنة . لكن كان ذلك تقريباً مساحة التأثير الفني .

صومعة الراهبات ، وفقاً لكراس حافلة النزهة ستقدم الشاي للزائرين ، إلا أن السياح يُرسلون في الواقع إلى صالة واسعة .

« إنها كلّها مخططة مقدماً ، لتكون النزهة في عجلة بالغة . مجموعة من الناس يضعون بعض أكواب الشاي غير المصقولة على صينية كبيرة ، بسرعة ، ويَعْدُون عائدين ، » قالت تشيكو ضاحكة .

« ربما للراهبات يد في ذلك ، لكن قد تكون خفة يدٍ مشعوذة مدهشة ، لم تقع عيني عليهنَّ البتة! إنها مخيّبة تماماً... والشاي لم يكن إلا بارداً » .

« لهم العذر في ذلك . أَلا يأخذ الشاي وقتاً طويلاً لإعداده باعتناء ؟ » قال والدها .

« نعم ، الأمر كما تقول ، ولكن كان كل شيء على ما يرام . الحديقة مضاءة من كلَّ الجوانب . يخرج كاهن في الوسط ، ويلقي كلمة رائعة ــ مجرد شرح للشورينئين . إنه بليغ للغاية » .

كان تاكيتشيرو صامتاً .

«بإمكانك سماع عزف آلة «الكوتو» في مكان ما في الصومعة. تناقشنا أنا وصديقتي، هل كان عزفاً حقيقياً، أم تسجيلاً. ثم ذهبنا لنرى «ماييكو» في گيون» واصلتْ تشيكو. «كنَّ يرقصن مجموعتين أو ثلاث مجموعات في «كابورنجو»، لكن عجباً، أيّاً من الـ «ماييكو» كنَّ!»

«لماذا تتعجبين؟»

«زنانيرهن فالتة، كما يجب أن تكون إلاّ أن كيموناتهنَّ رثّة».

«حقاً؟»

«من گيون ذهبنا إلى «سوميا» في «شيمابارا» لنرى حفل المحظيات الكبير. ملابسهنَّ حقيقيَّة... وكذلك ملابس وصيفاتهنَّ الشابات. في ضوء مائة شمعة ـ ألا يسمونه «تبادل الأكواب»؟ على أية حال، كن يرتدين على تلك الشاكلة. ثم ظهرنَ بموكب احتفالي».

«طيّب، حتّى ذاك ففيه شيء كثير لأن يُرى،» قال تاكيتشيرو.

«نعم، كانت مباركة القناديل في «شورينئين» و«وشيمابارا» رائعة». قالت تشيكو. «لكن، يبدو وكأني تحدثت عن هذا من قبل».

«خذيني معك في يوم ما. لم أرَ أبداً «سوميا» أو حفل المحظيات الكبير». وصلوا أمام شورينئين بالضبط لحظة ما كانت أمّها تتكلم.

لماذا أرادت تشيكو مشاهدة أشجار الكافور؟ ألانها كانت قد تمشّت بين صفوف أشجار الكافور في حديقة تربية النبات؟ ألأنها قالت إنها تفضل أشجار الطبيعة على أشجار أرز «كيتاياما» التي كانت تزرع كنوع من الغلّة؟

أربع شجرات كافور قائمة في صف فوق حائط صخري في المدخل إلى « شورينئين » . القريبات منها يبدين قديمات جداً .

وقفا ، تشيكو ووالدها بصمت ، ناظرين إلى أشجار الكافور .

بامكانهما أن يشعرا بالقوة الغريبة للأشجارالعملاقة . بطريقة غامضة موحشة ، فيما تنتشر الأغصان وتتشابك معاً .

« طيب ، هل سنذهب » بدأ تاكيتشيرو بالسير ناحية صومعة « نانزنجي »

تكلم تاكيتشيرو بينما كان يتبيّن الاتجاهات إلى البيت ، وكانت مكتوبة على ورقة أخرجها من محفظته .

« يا تشيكو ، لا أعرف الشيء الكثير عن أشجار الكافور ، لكنْ ألا تنمو في المناخ الدافئ ؟ أليست هي أشجار جنوبية ؟ ألا تزدهر في أماكن مثل « أتامي » أو « كيوشو » ؟ هذه أشجار قديمة العهد ، لكن ألا تعتقدين أنها تشبه أشجار الـ « بونساني » المفرطة الحجم ؟ »

« أليست تلك ، هي ما عليه الحالة مع « كيوتو » ؟ أليست هي نفس الحالة مع الجبال والأنهار... والناس كذلك ؟ » قالت تشيكو .

« قد يكون الأمر كما تقولين » . هزَّ والدها رأسه . « لكن ليس جميع الناس . إنها ليست حقيقة مطردة مع الناس » .

لم تردَّ تشيكو .

« سيان إن كانوا ناس الحاضر ، أو ناساً من التاريخ القديم » .

« أرى ذلك » .

« إذا وضعنا المسألة على طريقتك ، يا تشيكو ، ألا يكون ذلك منطبقاً على كل ما في اليابان ؟ »

اندهشت تشيكو من كيفيّة أُخذِ والدها ملاحظتها بعمق .

« إذا نظرتَ بدقة إلى جذوع تلك الأشجار ، وأغصانها المنتشرة بغرابة ، ألا تبدو مخيفة ، وكأنما هي تمتلك قوة ما عظيمة ؟ »

« إنها تمتلك مثل هذه القوة ، لكن ، هل تفكر فتاة شابة مثلك بهذه الأشياء ؟ » نظر والدها إلى الأشجار في الخلف . بعدئذ حدّق بابنته . « بالتأكيد إنها كما تقولين... وحتى في الطريقة التي نما فيها شعرك اللمّاع... لكنَّ والدك المسنّ بات متبلّد الحس إلى حدّ ما . ربما بلغتُ الهرم... لكنني سعيد أنْ تعلمتُ درساً نافعاً منك» .

« يا أبي » كان صوت تشيكو مشحوناً بعاطفة .

على الرغم من أن فِناء الصومعة واسع ، وهادئ ، إلاّ أنه لا توجد ، كالعادة ، إلا شارات قليلة على وجود ناس داخل البوابة الرئيسة في صومعة « نانزنجي » . انعطف تاكيتشيرو إلى اليسار بعد أن دقّق في خريطة البيت . إنه بيت صغير جداً ، لكنه يقع بعيداً من الشارع إلى الخلف ، وكان الحائط الطيني حوله عالياً . أزهرت أجمة برسيم أبيض بمساحات طويلة على كلا جانبي الممشى من البوابة الضيقة إلى الباب .

«انظر ، ياللروعة» . وقف تاكيتشيرو بلا حراك أمام البوابة مسحوراً بجمال أجمة البرسيم الأبيض . بيد أنه فقد فعلاً الرغبة في فحص البيت لشرائه . لقد لاحظ أن بيتاً كبيراً لا يبعد إلاّ بمسافة دارين ، قد حوّل إلى خان .

مع ذلك ، فثمة شيء له علاقة بالبرسيم ، جعل مغادرة المكان صعباً .

في السنوات منذ زيارة تاكيتشيرو الأخيرة لـ «نانزنجي» حُوّلتْ كثير من البيوت المجاورة المطلة على الشوارع إلى خانات ، وهذه الحقيقة أدهشته . فقد أُعيد بناء البيوت من الداخل لتتسع إلى مجموعات كبيرة . الطلاب القادمون من الريف لزيارة طوكيو في سفرات مدرسيّة ، يحدثون حركة كبيرة في المجيء والذهاب .

«البيت نفسه لا بأس به ، لكن هذا وحده لا يكفي ،» همس تاكيتشيرو بينما كان يقف أمام البوابة . «ماذا لو أن الزمن قلب كل «كيوتو» إلى خانات... تماماً مثل المناطق المحيطة بصومعة «كوائيجي» . الشريط الأرضي بين «كيوتو» و«أوساكا» بات منطقة صناعية . ما تزال ثمة أرض مكشوفة حول «نيشينوكو» ، لكن حتى لو استطعتُ تحمّل مضايقات العيش في تلك المنطقة البعيدة ، فمن يدري أية بيوت حديثة مبهرجة سيبنونها في الجوار» . بان على وجه تاكيتشيرو الانكسار .

ما يزال تاكيتشيرو ، على ما يبدو ، يشعر بتعلّق بصفوف أجمة البرسيم الأبيض . مشى سبع أو ثماني خطوات ، بعدئذ ، وحيداً ، التفت ونظر إليها مرة ثانية . وقفت «شگي» وتشيكو تنتظرانه في الشارع .

«سهر الرجل الذي يمتلك هذا البيت على تربيتها تربية حسنة جداً» . رجع إلى حيث كانت تشيكو وأمّها واقفتين معاً . «عجباً ما هو سّره ؟ من المحتمل أنه استعمل بعض دعائم الخيزران للبرسيم . حينما ينزل المطر فإنك لا تستطيع السير على حجارة الشارع دون أن تتبلل من الأوراق ،» قال تاكيتشيرو . «من المحتمل أنه لم تكن لديه النيّة لبيع البيت حين حاول

السهر على تنشئة البرسيم هذه السنة ، لكنْ ما إن اضطر الى بيعه ، لم يَعُدْ مهتماً إن أصبح معوجاً أو متشابكاً » .

لم تقلْ تشيكو وأمّها أي شيء .

« عجباً هل الإنسان على تلك الشاكلة » . عبس تاكيتيشرو قليلاً .

« هل تحبُّ ، يا أبي ، البرسيم إلى هذ الحدّ ؟ » قالت تشيكو ، محاولة أن تكشف الغمّة . « أصبح الوقت متأخراً جداً هذه السنة ، لكني سأصمم نقش أجمة البرسيم لك في السنة المقبلة » .

« سيكون البرسيم فصال امرأة . لا ، سيكون البرسيم لكيمونو صيفية لامرأة » .

« سأحاول أن أصنع شيئاً يبدو وكأنه لامرأة » .

« طيّب ، من أجل أي شيء ستستعمل نقش البرسيم ؟... ملابس داخلية ؟ » نظر تاكيتشيرو إلى ابنته ، وتحوّلت أفكاره بضحكة ، قال : « ولطيبتك سأصنع كيمونو أو سترة بنقش شجرة كافور . سيبدو وكأنه تصميم لشبح . سيكون وكأن النساء والرجال انقلبوا عكسيا » .

« لا ، لن يكون ذلك » .

« هل ترتدين نقش شجرة كافور شبحياً ؟ »

« نعم . سأفعل . في أيّ مكان » .

« همْمْ » . نظر والدها إلى الأسفل . يبدو أنه غارق بالأفكار . « يا تشيكو ، ليس السبب لأني أحبّ أجمة البرسيم الأبيض فقط . أية زهرة تؤثر فيَّ ويعتمد ذلك على الزمان والمكان الذي أراها فيهما » .

«افترض ذلك... ،» أجابت تشيكو . «ما دمنا ، يا أبي قد وصلنا إلى هذا الحدّ و«تاتسومورا» قريب ، بودي أن أقوم بزيارة قصيرة له» .

«آه ، مخزن الأجانب ذاك . ماذا ترتئين يا «شگي» ؟»

«إذا شاءت تشيكو أن تذهب...» أجابت بحبور .

«حسناً لا تظهر زنانير «تاتسومورا» في المحالّ» .

كان المحلّ إلى جوار بيوت قديمة رائعة في القسم الجنوبي من «كاوراماتشي» .

بدأت تشيكو وهي تدخل المحلّ ، بالنظر إلى النسيج الحريري النسائي ، الذي كان منضداً في صفوف على طول الجانب الأيمن . لم يكن من تصاميم محل «تاتسومورا» نفسه ، لكنها أنسجة من شركة «كانيبو» .

دنت «شگي» من ابنتها . «هل تنوين ارتداء ملابس من الطراز (الغربي) ؟»

«لا ، يا أمّي . كنت أتساءل فقط عن نوع الحرير الذي يفضله الأجانب» .

هزّت أمّها رأسها . وقفت وراء ابنتها وأحياناً تمدُّ يدها للمس الحرير .

في وسط الغرفة وفي الصالة عُلِّقتْ نقوش من ثياب «شوسوئن» وأنسجة قديمة .

كان هذا من صنع «تاتسومورا» . رأى تاكيتشيرو عروض «تاتسومورا» من قبل مرات عديدة ، وكثيراً ما رأى الأنسجة والنماذج الأصلية الكلاسيكية . يعرفها جميعها بالاسم وبالنظر ، لكنه لم يتمالك نفسه ، فراح يتفحصها عن كثب .

« تُبيِّن هذه للأجانب ، أننا نستطيع أن نصنع أشياء كهذه في اليابان ، » قال أحد المستخدمين . عرف تاكيتشيرو وجهه .

سمع تاكيتشيرو الشيء نفسه حينما زار المحلّ سابقاً ، لكنه هزَّ رأسه ثانية هذه المرّة . « كانت الأيام القديمة مدهشة... قبل أكثر من ألف عام... ، » قال بخصوص إعادة إنتاج الأنسجة الصينية القديمة .

يبدو أنهم لم يبيعوا قطعاً كبيرة من القماش بالنقوش القديمة . أحبَّ تاكيتشيرو هذا النوع من النسيج ، واشترى عدة زنانير مصنوعة منه لشگي وتشيكو ، لكنَّ هذا المحلّ كان موجهاً للأجانب ولا يبدو أن لديه زنانير . كان أكبر شيء باعوه هو أغطية الطاولات .

الأشياء الصغيرة ، مثل الحقائب ومساكات الورق ، وعلب السجائر ، وأغلفة الورق « الكريبي » ، مرتبة جميعها بصورة زخرفية في خزانات العرض .

اشترى تاكيتشيرو رباطين أو ثلاثة لا تبدو وكأنها من انتاج « تاتسومورا » كما اشترى محفظة جيب « كيكومومّية » . الكيكومي إعادة إنتاج على القماش لحرفة كانت تُدعى « دائيكيكومي » وكانت تصنع في « تاكاگامين » من قبل « كويتسو » قبل أكثر من ثلاثمائة عام .

« أين كانت في « توهوكو » ؟ ثمة مكان ما يزالون يصنعون فيه شيئاً شبيهاً بهذا ، من ورق ياباني قوي ، » قال تاكيتشيرو .

« نعم ، نعم ، » أجاب المستخدم . « لكن لا أعرف كثيراً عن العلاقة بـ « كيوتسو » . »

كانت ثمة راديوات « سوني » متنقلة معروضة فوق الصناديق المزخرفة

في الخلف ، فأدهشت بالطبع تاكيتشيرو وزوجته وابنته ، حتى لو أنها كانت مجرد بضائع مودعة لغرض الحصول على العملة الأجنبية .

أُخذ ثلاثتهم إلى غرفة الاستقبال في الخلف حيث قُدِّم لهم الشاي . أخبرهم المستخدم أن كثيراً ممن يُدعون «أشخاص ذوو شأن» من بلدان أجنبية جلسوا مرّة على الكراسي التي يجلسون عليها الآن .

خارج الشباك ثمة غيضة من أشجار الأرز ، صغيرة لكنها غير اعتيادية .

«ما نوع الأرز ذاك ؟» تساءل تاكيتشيرو .

«لست متأكداً ، لكن أظنّ أنها تدُعى أرز الـ «كويو» أو شيء من هذا القبيل» .

«أية علامة كتابية صينية تستخدم لكتابة «كويو» ؟»

«لا يعرف الجنائني كيف يكتب الأسماء دائماً ، لكن يمكن أن تكون علامة لورقة عريضة ؟ أياً كانت ، فإنها تنمو من «هونشو» ناحية الجنوب .

«ما الذي يجعل الجذع بذاك اللون ؟»

«الأشنة» .

التفتوا إلى صوت راديو متنقل بدأت فيه موسيقى ، ورأوا رجلاً شاباً يشرح شيئاً ما ، لثلاث أو أربع نساء (غربيات) .

«ذاك شقيق شنيتشي الأكبر» . وقفت تشيكو .

تقدم شقيق «شنيتشي» «ريوسوكه» ناحية تشيكو . حنى رأسه لوالدها في صالة الاستقبال .

«هل تعمل كمرشد سياحي لهؤلاء النسوة ؟» تساءلت تشيكو .

بينما يقتربان ، تشيكو وريوسوكه من بعضهما بعضاً ، وجدت تشيكو أنه من الصعب . التكلم مع هذا الرجل الشاب ، إنه مختلف جداً عن « شنيتشي » الهادئ . شعرت بعدم ارتياح .

« ليس كمرشد . أحد أصدقائي كان يطوف معهنَّ كترجمان ، إلاّ أن أخته الأصغر ماتت ، لذا فأنا أنوب عنه لأيّام قليلة » .

« ماذا ؟ أخته الأصغر ؟ »

« نعم ، أصغر من شنيتشي بحوالي سنتين . كانت طفلة ذكية » .

لم تتكلم تشيكو .

« لغة شنيتشي الانكليزية ليست جيدة جداً . إنه خجول . و ، طيّب ، إنّا... لا نحتاج إلى أي ترجمان هنا في المحلّ . هؤلاء النسوة من نوع الزبائن الذين يشترون راديوات متنقلة . إنهن نساء امريكيات يسكنَّ في فندق مياكو » .

« أفهم ذلك » .

« الفندق قريب ، لذا قمنا بزيارة إلى هنا . بودي لو ألقين نظرة على أنسجتنا ، لكن لا... إنها راديوات ، » ضحك « ريوسوكه » بهمس . أظن أن الوضع على ما يرام في كلتا الحالتين » .

« هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها راديوات للبيع في مكان كهذا » .

« راديوات متنقلة أم أقمشة حريرية ـ فالدولار هو الدولار . لا فرق » .

« أعي ما تقول » .

« منذ برهة فقط ، ذهبنا إلى الحديقة . هناك عدد من السرطان بألوان

مختلفة في البركة . كنت اتساءل كيف يمكنني أن أشرح لهنَّ السرطان إذا سألنني عن التفاصيل بشأنها . لكنْ كل ما قلنه «جميل ، جميل» . أنا مسرور بالتأكيد لأن أجدك هنا وابتعد عنهنَّ . لا أعرف أيّ شيء عن السرطان . لا أعرف ما الذي أقوله باللغة الانكليزية عن الألوان . «على بعضه بقع...» توقف ريوسوكه للحظة . «يا تشيكو هل نخرج ونشاهد السرطان ؟»

«ماذا عن السيدات ؟»

«سيكون من الأفضل تركهنَّ مع المستخدم ، هنا . سيرجعن إلى الفندق عما قريب لشرب الشاي . من المفروض أنهنَّ سيلتقين بأزواجهنَّ هنا حتى يذهبوا إلى «نارا» .

«سأخبر أبي وأمي» .

«عليَّ أن أذهب وأكلّم السيدات ، أيضاً ، وأعتذر لهنَّ» .

ذهب «ريوسوكه» إلى النساء وقال شيئاً . نظرت النساء جميعاً ناحية تشيكو في الوقت نفسه . خجلت تشيكو .

رجع «ريوسوكه» فوراً ، وقاد تشيكو إلى الحديقة .

جلس الاثنان بالقرب من البركة وراقبا السرطان الملّون تلويناً رائعاً ، وهو يسبح هنا وهناك . كان «ريوسوكه» وتشيكو صامتين لبرهة .

«تشيكو ، الموظف في محلكم ـ ما دام قد أصبح عملكم شركة محدودة في الوقت الحاضر ، فلا أدري ما الذي تدعونه : المدير أم المشرف ـ أعتقد أنه من الضروري أن تذهبي إليه بشجاعة وتسأليه بعض الأسئلة بإمكانكِ ، أليس كذلك ؟ سأذهب معك إن شئتِ» .

لم تتوقع تشيكو أن تسمع أيّ شيء مثل هذا . انكمش قلبها .

حلمت تشيكو في الليل بعد عودتها من محلّ «تاتسومورا» . أسراب من مختلف أنواع السرطان تجمّعتْ عند قدميها عندما جثتْ قرب البركة . تكوَمت فوق بعضها بعضاً ، راقصةً ، وهي تخرج رؤوسها فوق سطح الماء .

كان ذلك كل ما في الحلم . رأت نفسها في الحلم قرب البركة بعد الظهر . اقتربت الحيوانات المائية أكثر حينما وضعت تشيكو يدها في الماء وأحدثت تموجات على سطح البركة . ذُعرتْ ، لكنها شعرت بحبّ لا يمكن تفسيره للسرطان .

كان «ريوسوكه» الذي يقف إلى جانب تشيكو حتى أكثر اندهاشاً .

«أي نوع من العطر... أيّة روح طيبّة تنبعث من يدك ؟» قال «ريوسوكه» .

وقفت تشيكو وقد أصابها الحرج من تلك الكلمات . «من المحتمل أن السرطان تعوّد على الناس» .

حدّق «ريوسوكه» بمنظر وجهها الجانبي .

«تقع ايگاشيياما ، هناك ،» قالت تشيكو متفادية عيني «ريوسوكه» .

«ألا تبدو الألوان مختلفة قليلاً ؟... أقرب إلى ألوان الخريف ؟» تساءل «ريوسوكه» .

لم تستطع تشيكو بعد أن استفاقت ، أن تتذكر بالضبط هل كان «ريوسوكه» إلى جانبها في الحلم . لفترة لم تستطع النوم .

في اليوم التالي ترددت تشيكو أن تقول إن «ريوسوكه» كان قد شجّعها على مواجهة الموظف .

جلست تشيكو بينما كانت ساعة إغلاق المحلّ تقترب ، أمام مسجّل الحسابات . كان في حجيرة قديمة الطراز محاطة بأشغال مشبكة واطئة ، لاحظ «يوأمورا» رئيس الموظفين ، سيماء تشيكو الجادة غير المعتادة . «يا آنسة تشيكو ماذا تريدين ؟»

«هل لك أن تريني رجاءً شيئاً من قماش كيمونتي ؟»

«كيمونتك ؟ بدا «يوأمورا» وكأن حيرته انفرجت . «أنتِ سترتدين كيمونو من محلّنا . إذا أردتِ واحدة الآن ، إذن هل هي لعيد السنة الجديدة ؟ كيمونو زيارة أو كيمونو بأردان طويلة ؟ دعينا نرى ، هل ستشترين كيمونتك من محل الصباغة ، مثل «أوكازاكي» أو من مكان مثل «أريمان ؟»

«أريدكَ أن تريني بعضاً مما لدينا من «يوزن» إنها ليست لعيد السنة الجديدة» .

«سأريك كلَّ ما لدينا ، لكن عجباً هل هناك أيُّ شيء يناسب ذوق فتاة بعين مدرّبة كعينك» . «نهض يوأميرا» نادى على موظفين وهمس لهم . معاً أخرج ثلاثتهم عشر حِزَمٍ من القماش ونشروها في وسط الأرض ، مرتبين إياها بيد خبيرة .

«سيكون هذا رائعاً» . اختارت تشيكو بسرعة . «هل تستطيع أن تنجزه بخمسة أيام أو أسبوع ؟ سأترك التفاصيل لكَ... لون البطانة وما شاكل» .

اندهش « يوأمورا » بغتة تماماً . « نحن نبيع بالجملة ونادراً ما نرسل أشياء إلى غيرنا لتُنتج ، مع ذلك فالأمر كما ترتئين » .

لفَّ الموظفان القماش بحذق .

« هذه القياسات » . وضعت تشيكو ورقة على طاولة « يوأمورا » ، لكنّها لم تغادر . « يا سيد « يوأمورا » أودّ أن أتعلّم شيئاً عن العمل هنا ، شيئاً قليلاً في كلّ مرّة . آمل أن تساعدني » . تكلمت تشيكو بصوت مهذب ، حانية رأسها قليلاً .

« بالتأكيد » . تصلّب وجه « يوأمورا » .

تكلمت تشيكو بهدوء ، « الغد يوم مناسب ، أودّ أن تريني حسابات دفتر الأستاذ كذلك » .

« حسابات دفتر الأستاذ ؟ » بدا « يوأمورا » يبتسم بمرارة . « هل أنتِ عازمة على دراسة الحسابات ؟ »

« ليس لديَّ مثل ذلك الطموح الشديد . فكّرت أن ألقي مجرد نظرة . إنني لا أعرف أي شيء عن العمل ؛ كما تعرف » .

« نعم ، إن دفتر الأستاذ يتطلب معرفة كبيرة . لا يمكن أن أشرحه كلّه في جلسة واحدة . هناك كذلك أشياء مثل الضرائب وما شابه » .

« هل يستخدم محلّنا دفتر الأستاذ المزدوج ؟ »

« ماذا تعنين . بالتأكيد سأستعين بك إذا استطعتِ أن تقومي بحيلة كهذه . دفتر استاذنا في تحسّن » .

« رجاءً أرني إياه غداً ، يا سيد « يوأمورا » ، » قالت تشيكوبحدّة وخرجت .

«رَعيتُ هذا المحل منذ قبل ولادتك ، يا آنسة تشيكو ،» قال «يوأمورا» ، لكنها لم ترغب في الالتفات إلى الخلف .

«ماذا تعني... ،» تكلم «يوأمورا» بصوت غير مسموع . وبعد ذلك مطق لسانه . «ظهري يوجعني» .

حينما رجعت تشيكو إلى حيث كانت أمّها تعدّ العشاء ، بدت «شگي» مندهشة تماماً . «يا تشيكو ، لقد قلتِ أشياء شديدة إلى حدٍّ ما» .

«لم تكن المسألة سهلة» .

«من الممكن أن يكون الشبّان مرعبين ، حتى وإن بدوا رقيقين . كنت ارتجف تقريباً بمجرد الاصغاء لك» .

«أتتني الفكرة من شخص آخر» .

«حقّاً ؟ مَنْ ؟»

«شقيق شنيتشي الأكبر عند صومعة «تاتسومورا» . ما يزال والده يعمل بنجاح في مهنته . قال إن لديهم موظفيْن كفوئين ، لذا ، فلو تَرَك السيد «يوأمورا» العمل فإنه سيرسل إلينا واحداً منهم ، أو أنه سيأتي هو نفسه» .

«تعنين «ريوسوكه»»...

«نعم ، إنه سينصرف إلى العمل بأية حال ، لذا يستطيع أن يترك الدراسة في أيِّ وقت» .

«حقّاً ؟» نظرت «شگي» إلى وجه ابنتها الجميل المشعّ . «لكنَّ السيد «يوأمورا» لم يظهر أية إشارات على أنه يخطط لترك العمل» .

«قال لو أن ثمة بيتاً صالحاً قرب بيت البرسيم الأبيض ، فإنه سيحثّ والده على شرائه» .

«أعي ما تقولين» . لن تستطيع «شگي» أن تقول أي شيء آخر في هذه اللحظة . «بات والدك سئماً من العالم ؟»

«قال ألا يكون ذلك أصلح لوالدك ؟»

«هل قال «ريوسوكه» ذلك ؟»

«نعم ، آ ، ويا أمّي ، إنكِ سمعتِني أذكر ذلك للموظف ، ولكني سأرسل واحدة من كيموناتنا إلى الفتاة في قرية الأرز . هل في ذلك ضير ؟»

«ما من ضير بالطبع ، وماذا عن سترة تنسجم معها ؟»

نظرت تشيكو بعيداً وعيناها مغرورقتان بالدموع .

لماذا كانت تدعى «الأنوال العالية» ؟ بالطبع كانت الأنوال نفسها عالية . تُجوَّف الأرض تحتها قليلاً حتى تستقر واطئة في الأرض . يقول بعضهم إن سبب ذلك يعود إلى أن رطوبة الأرض نافعة للخيوط . في الأصل ، كان الرجل في بعض الأحيان يجلس فوق النول ، ولكنَّ الآن يضعون حجراً ثقيلاً في سلال ويعلقونها من الجانبين .

تستعمل بعض بيوت الحياكة الأنوال اليدوية والأنوال الميكانيكية .

في محلّ «ايديو» ثلاثة أنوال يدوية يحوكُ بها الأخوة الثلاثة . وما دام والدهم «سوسوكه» يشتغل أحياناً أيضاً في الحياكة ، فإنَّ محلّهم حالفه النجاح بين عدد لا يحصى من مهن الحياكة اليدوية الصغيرة في «نيشيجن» .

ازدادت بهجة ايديو لأن الزنآر الذي طلبته شيكو على وشك الانتهاء . ربما لأنه كان ينجز عملاً وضع فيه كلَّ قلبه ، أو لأنه كان يتصوّر تشيكو في حركة أمشاط النول وفي أصوات الحياكة ،

لا ، لم تكن تشيكو . كانت ناييكو . مع ذلك ، فعندما كان ايديو يحوك ، أصبحت تشيكو وناييكو واحدة .

وقف «سوسوكه» والد ايديو إلى جانبه لبرهة ، يراقبه . «ذلك زنّار جميل . ويا له من طراز غير اعتيادي» . حنى رأسه . «لمَنْ ؟»

«إنه لابنه سادا ، تشيكو» .

«والتصميم ؟»

«تشيكو صممته» .

«حقّاً . قامت به تشيكو ؟ همْمْ» . عُقد لسان «سوسوكه» نظر إلى الزنّار الذي ما يزال على النول ، لامساً إياه بأصابعه . «يا ايديو إن حياكتك دقيقة . ذلك شيء حسن» . تردد «سوسوكه» . «يا ايديو أظن أنني تحدثت عن هذا من قبل ، لكنني أشعر أني مدين للسيد «سادا»» .

«أعرف ، يا أبي» .

«أظن أنني كنت قد أخبرتك ،» قال لكنه واصل رغم ذلك . «كنت قد اقترضت المال الذي مكّنني من تشغيل أوّل نول لي وبدء مهنة الحياكة على حسابي . ، كلَّ مرّة أحوك فيها زنّاراً ، أبعثه إلى السيد «سادا» . كان من المحرج أن اخذ زنّاراً واحداً له لذا كنتُ أذهب دائماً بهدوء في الليل» .

كان ايديو صامتاً .

« لم يبدُ على السيد « سادا » الاستياء مطلقاً . والآن لدينا ثلاثة أنوال ، وبطريقة أو أخرى ، حسناً... نجحنا . على الرغم من أن منزلتنا الاجتماعية مختلفة... »

« أعرف ، لكن لماذا تتكلم عن أشياء كهذه ؟ »

« يبدو أنك متعلّق بتشيكو تماماً » .

« هل هذا ما تريد قوله ؟ » كان ايديو يأخذ قسطاً من الراحة ، لكنّه أرجع يديه وقدميه إلى النول وواصل الحياكة .

حالما انتهى الزنّار ، غادر ايديو بسرعة إلى نايبكو في قرية الأرز ، لاعطائها إياه .

كان الوقت عصراً . ظهر قوس قزح عدّة مرات ناحية « كيتاياما »

لاحظ ايديو القوس قزح بينما كان يدخل الشارع حاملاً تحت ذراعه زنّار نايبكو . كان القوس قزح واسعاً ، إلاّ أنَّ ألوانه شاحبة ، والقسم الأعلى من القوس غير موجود . توقف ايديو ، بينما كان يراقب ، انقلبت الألوان باهتة . كأنما ستتلاشى .

رأى ايديو ، قبل دخول الحافلة في الجبال ، هذا النوع نفسه من القوس قزح مرتين . ليس فيها واحد تشكّل تماماً إلى أعلاه ؛ فيها جميعاً بقع رقيقة متفرقة . لم يكن هذا النوع من القوس قزح غير شائع ، إلاّ أنَّ ايديو هذا اليوم كان قلقاً . هل كانت تلك الأقواس قزح فألاً حسناً أم سَيّئاً ؟

لم تكن السماء غائمة ، لكن بعد أن دخل الغابة ، لم يكن قادراً على معرفة ظهور قوس قزح آخر ، وذلك بسبب الجبال التي تحتشد فوق النهر .

نزل ايديو من الحافلة عند قرية « كيتاياما » . مشت إليه نابيكو فوراً وهي ترتدي ملابس العمل ، وتجفف يديها المبللتين على مريلتها .

كانت تنظف لوحاً خشبياً برمل « بودائي » . إنه لحد الآن اكتوبر/ تشرين الأول ، غير أن ماء الجبال يحتمل أن يكون بارداً . كان اللوح طافياً في حوض مصنوع . يبدو أن الماء الحارّ يجري من قِدْر بسيط على أحد الجوانب حيث كان يرتفع البخار .

« آ ، شكراً على مجيئك كل هذه المسافة إلى هنا في الجبال » . حنت نابيكو رأسها قليلاً .

« هذا هو الزنّار الذي وُعدتِ به . جئت لأسلّمه لك » .

« إنه الزنّار الذي أتسلّمه مكانَ تشيكو . لا أحبّ أن أكون بديلة عنها . كنتُ سعيدة بما يكفي لمجرد الالتقاء بها ، » قالت نابيكو .

« هذا الزنّار ، وُعِد أن يكون لك ، أليس كذلك ؟ وهو حتى من تصميم تشيكو نفسها » .

نظرت نابيكو إلى الأسفل . « يوم أوّل أمس ، يا ايديو ، تسلّمت كل شيء ينسجم مع الزنّار من الكيمونو إلى خفّ الصندل ، كلها من محلّ تشيكو . أين يمكنني أبداً ارتداء أشياء كهذه ؟ »

« ماذا عن(احتفال العصور) في اليوم الثاني والعشرين ؟ ألا تستطيعين أن تأتي آنذاك ؟ »

« نعم ، باستطاعتي ، » أجابت نابيكو بلا تردد . « سيروننا الناس هنا » . يبدو أنها كانت تفكر بذلك . « دعنا نذهب إلى مجرى النهر ، قرب تلك الصخور المستوية » .

لن يكون من المناسب لهما أن يتخفيا بين أشجار الأرز كما فعلت مع تشيكو في المرة السابقة .

« هذا الزنّار الذي صنعتَه سيكون كنز حياتي » .

« آ ، لا سأصنع واحداً لك ثانية » .

لم تستطعْ نايبكو الكلام .

كانت العائلة التي ترعى نايبكو تعرف ، بالطبع ، أن تشيكو أرسلت الكيمونو ، لذا فلن تكون هناك مشكلة لنايبكو إنْ هي أخذت ايديو إلى البيت . لكن ما دامت نايبكو تعرف عموماً ظروف تشيكو في الوقت الحاضر وتعرف عن المحلّ ، فإن ذلك وحده سبب كاف لاشباع الرغبة التي اعتزت بها منذ الطفولة في العثور على أختها . فضلاً عن ذلك ، إنها لا تريد أن تسبب المتاعب لتشيكو .

لا شك ما دامت عائلة « موراسه » التي تعهدت نايبكو بالرعاية ، ولهما الآن تعمل بلا كلل ، من أصحاب الأراضي في جبال الأرز ، فإن الحقيقة إذا ما كُشِفتْ لن تسبب أية مشكلة لعائلة تشيكو . قد يكون سبب ذلك ، أن صاحب الأراضي في جبال الأرز في وضعية أكثر أماناً من بائع بضائع جاهزة بالجملة .

لذا ، فعلى الرغم من أن حبّ تشيكو أثر في قلب نايبكو ، إلاّ أن نايبكو عزمت على تفادي رؤية تشيكو فيما بعد ، وتعميق تعارفهما .

قادت نايبكو ، ايديو إلى بعض الأحجار المستوية في سهل (نهر كيوتاكي) . حتى في مجرى النهر زُرعت بقدر ما يمكن أشجار الأرز بين الأحجار الصغيرة .

« آسفة لأني كنتُ فظّة » . قالت نايبكو . كانت فتاة قليلة الخبرة وأرادتْ أن ترى الزنّار بأقرب فرصة ممكنة .

« جبال الأرز جميلة » . قال ايديو ، ناظراً إلى الأعلى ، بينما كان يفكّ الرداء القطني حول الحزمة مرخياً الخيط حول الغلاف الورقي . « هنا حيث تكون شَدّة العقدة ، وهذا من المفروض أن يكون الوجه الأمامي » .

« آ ، » مسّدت نايبكو الزنّار . « إنه فاخر جداً بحيث لا يصلح لي » . التمعتْ عيناها .

« ما الذي يمكن أن يكون فاخراً جداً في زنّار حاكه شاب قليل الخبرة مثلي ؟ حين سمعتُ أنه سيكون أرزاً وصنوبراً أحمر ، فكرت ، ما دمنا قريبين من (رأس السنة) ، فإن شدّة العقدة تكون من أشجار الصنوبر ، لكنَّ تشيكو قالت يجب أن تكون من أشجار الأرز . والآن ، وقد جئت إلى هنا ، أدركت لماذا . حينما تفكرين بأشجار الأرز فإنك تفكرين بمجموعات من الأشجار القديمة ، لكن إذا رُسِمتْ برقّة فإن لها مزيّتها . هناك كذلك بعض جذوع أشجار الصنوبر الأحمر للتناسق اللوني » .

بالطبع ، إن لون جذوع الأرز لم يُنتج مرّة ثانية كما هو بالضبط في الزنّار . هناك أسلوب في اللون والتصميم .

« إنه زنّار رائع . شكراً جزيلاً . لكنَّ فتاة مثلي لا يمكنها ارتداء زنّار مزخرف » .

« هل ينسجم انسجاماً حسناً مع الكيمونو التي أرسلتها تشيكو ؟ »

« أظن أنهما منسجمان معاً تماماً » .

« تشيكو تعرف معرفة تامة أطرزة الكيمونات في « كيوتو » مذ كانت صغيرة . لم أرِها هذا الزنّار . أشعر بإحراج أن أقوم بذلك » .

«لكنه تصميمها هي . أريدها أن تراه» .

«سترتدينه من أجل «مهرجان العصور» ، أليس كذلك ؟» قال ايديو ، بينما كان يطوي الزنّار ويضعه داخل الغلاف الورقي .

حينما انتهى محاولاً تثبيت الخيط تكلم ايديو مخاطباً نابيكو «رجاءً تقبّلي هذا عن طيب خاطر . أنا الذي وَعدْتُ بالزنّار ، إلاّ أن تشيكو سألتني أن أصنعه . فكّري بي رجاءً على أنني الحائك فقط... لكنّي وضعت قلبي في حياكته من أجلك» .

وضع ايديو الزنّار على ركبتيها . كانت نابيكو صامتة . «لقد رأت تشيكو ، كيمونات طيلة حياتها . إنها حسنة الإطلاع على الأطرزة ، لذا فأنا متأكد أنه ينسجم مع الكيمونو التي أرسلتها... كما ذكرت آنفاً» .

أَحْدَثَ جريان المياه الضحلة في (نهر كيوتاكي) أمامهما ، صوتاً صغيراً رقيقاً . نظر ايديو حواليه إلى أشجار الأرز على كلا جانبي الضفتين . «أدركتُ أن جذوع الأشجار ، ربما تنتصب بتناسق جنباً إلى جنب ، مثل قطع مصنوعة ، لكنْ حتى الأوراق على الأغصان العليا تبدو وكأنها أزهار ، ولو أنها أزهار بسيطة ومعتمة» .

كانت على وجه نابيكو مسحة من الحزن . عمل والدها قاطعَ أغصان . لقد سقط بالتأكيد وهو يثب من غصن إلى غصن . هل تألم في أعماقه على الطفلة التي تخلى عنها ـ تشيكو ؟ في ذلك الوقت كانت نابيكو طفلة أيضاً ، ليس بوسعها معرفة أي شيء . الناس في القرية أخبروها بعد ذلك أنها كانت الأكبر . أرادت نابيكو لو كان ذلك ممكناً ، أن ترى أختها ، حتى لو كانت نظرة واحدة عرضية .

ما يزال بيت نابيكو الأصلي مهجوراً في قرية الأرز ، متآكلاً بفعل الطقس ، وخرباً ، ما دامت لا تستطيع العيش هناك وحيدة . لقد عاش هناك ، ولمدّة طويلة زوجان متوسطا العمر اشتغلا في جبال الأرز مع طفلتهما التي باشرت المدرسة الابتدائية . بالطبع لم يدفعا إيجاراً ، كان البيت خرباً جداً لدرجة لم تقبله نابيكو .

كانت بنت المدرسة الابتدائية متعلقة تعلقاً غريباً بالأزهار . ثمة في البيت شجرة زيتون واحدة عطرة ذهبية . تأتي البنت في بعض الأحيان لتسأل (نابيكو الأخت الكبيرة) لمساعدتها في تقليم الشجرة .

«اتركيها لوحدها وستكون على ما يرام» . أجابت نابيكو . بينما يمرّان على البيت ، كانت تشيكو قادرة على شمّ رائحة أزهار الزيتون من مسافة أبعد ، مما لا يقدر عليه معظم الناس . كان ذلك بالنسبة إلى نابيكو اكتشافاً حزيناً إلى حدّ ما .

حينما وضعت نابيكو ، الزنّار على حضنها ، بدأت ساقاها تشعران بثقل . الأفكار ملأت رأسها .

«الآن وقد عرفتُ أين هي تشيكو فإنني لا أريد الاستمرار في رؤيتها . سأرتدي الكيمونو والزنّار لمرّة واحدة فقط . تفهم ذلك ، أليس كذلك ؟ » تكلمت نابيكو من قلبها .

«نعم ، » قال ايديو . «تعالي رجاءً إلى (مهرجان العصور) . أودّ أن تراك تشيكو ترتدين الكيمونو والزنّار ، غير أني لا أريد أن أدعوك . يبدأ استعراض المهرجان من «گوشو» ، لذا سأنتظرك عند بوابة «أماگوري» في الجانب الغربي . هل توافقين ؟ »

تورد خدّا نايِيكو خجلاً ، توردا قليلاً لبرهة ، ثمَّ هزّت رأسها بشدة .

انتصبت شجرة صغيرة على حافة الماء في الجانب البعيد ؛ انعكاس اوراقها القرمزية يرتجف في جريان النهر . نظر ايديو إلى الأعلى . «ما نوع تلك الشجرة التي تغيّر لونها إلى أحمر لمّاع كهذا ؟ »

«تلك شجرة من فصيلة السمّاق» . قالت نايِيكو ، رافعة عينيها . وبينما هي تجيب جمعت شعرها بيدها المرتجفة ، ولكن بطريقة ما ، انحلَّ ونزل على ظهرها .

«آ» .

خجلت نايِيكو . حاولت أن تسحب شعرها إلى الأعلى ولفّه ، ممسكة دبابيس الشعر بفمها . ثبّتت الدبابيس في شعرها ، إلاّ أنَّ بعضها سقط على الأرض وتعذّر العثور عليها .

أعجب ايديو بالشعر ، وبحركات نايِيكو الجميلة .

«تتركينه طويلاً ،» قال .

«نعم ، تشيكو كذلك لا تقصُّ شعرها . ترفعه إلى الأعلى بشكل حسن جداً ، ما لا رجل يعرف» . وضعت نايِيكو منشفة على رأسها على عجل . «اسمحْ لي» .

لم يردّ ايديو .

«ها أنذا كأنني أقوم بتجميل الأرز حينما أصقل الألواح الخشبية ، بيد أني لا أستعمل مساحيق التجميل أنا نفسي» .

مع ذلك ، فيبدو وكأن هناك أثراً ضئيلاً من أحمر الشفاه . تمنّى ايديو

لو أنها نزعت المنشفة من على رأسها مرّة ثانية ، ودعته يرى شعرها نازلاً على ظهرها ثانية ، ولكنه لم يقوَ على طلب ذلك منها .

الجبل على الجانب الغربي من الوادي الضيق بدأ يعتم قليلاً .

« يا ناييكو ، أظنّ إنكِ لا بدّ أن تذهبي » . وقف أيديو .

« أصبح النهار أقصر . انتهى عمل اليوم تقريباً » .

نظر ايديو إلى ألوان الغروب الذهبية بين صفوف الجذوع المستقيمة للأشجار ، في قمة الجبال شرقيَّ الوادي .

« شكراً ، يا ايديو . شكراً جزيلاً » . وقفت ناييكو ، متقبّلة الزنّار بحركة رقيقة .

« إذا كان عليك شكر أحد ، فعليك شكر تشيكو ، » قال ايديو ، إلاّ أن البهجة في حياكة زنّار لبنت جبال الأرز هذه ، ازدادت دفئاً في داخله . « قد أبدو ملحاحاً ، لكنّ كوني متأكدة من مجيئك إلى البوابة الغربية في « گوشو » ، بوابة أماگوري » .

« سآتي إلى هناك » . هزت رأسها بشدّة . سأشعر بارتباك بزنّار وكيمونو لم ألبسهما من قبل مطلقاً ، لكن... »

« مهرجان العصور في الثاني والعشرين من اكتوبر ، مع مهرجان « أوئي » لصومعتي « كاميگامو » و« شيموگامو » ومهرجان « گيون » تدعى « المهرجانات الكبرى الثلاثة » للعاصمة القديمة . كان « مهرجان العصور » احتفال صومعة « هيئان » ، إلاّ أن الموكب من « گوشو » في كيوتو .

لم تقدرْ ناييكو منذ الصباح الباكر على تهدئة نفسها . إنها الآن تنتظر

ايديو في ظلِّ بوابة «أماگوري» منذ نصف ساعة قبل الموعد المضروب . هذه هي المرة الأولى التي انتظرت فيها رجلاً .

من حسن الحظ ، كانت السماء صاحية وزرقاء .

بُنيتْ صومعة «هيئان» عام ١٨٩٥ ، أي في السنة الثامنة والعشرين من عهد «مييجي» بعد انتقال العاصمة إلى طوكيو بألف ومائة سنة ، لذا فمن الطبيعي أنَّ «مهرجان العصور» هو أحدث «المهرجانات الكبرى الثلاثة» . وما دام الموكب يستعيد ذكرى تدشين طوكيو كعاصمة ، فقد عُرضتْ ألف سنة من التغييرات في العادات في الاستعراض ، وتُمثَّل كل حقبة بملابس يرتديها شخص مصوِّراً شخصية مشهورة ذات علاقة بزمنها .

مثلاً هناك ، الأميرة «كازونوميا» والشاعرة «رينگيتسو» ، والمحظيَّة العظيمة «يوشينو» ، وهناك أيضاً «أزومو نو أوكوني» المؤسس الخارق للمسرح الشعبي الياباني : الـ «كابوكي» و«يودوجيمي» محظيّة «ايدَيوشي» . تظهر كذلك الليدي «توكيوا» و«يوكوبوهْ» والليدي «تومومْ» ، بالإضافة إلى الليدي «شيزوكا» و«اونو نو كوماتشي» و«ومورا‌ساكي شيكيبو» و«سيئي شوناگون» .

ثم بعد ذلك ، نساء «أوهارا» ونساء «كاتسورا» . هؤلاء النسوة وأخريات ، ومحظيات ، ومقدّمات عروض ، ونساء بائعات مبثوثات في طول المواكب وعرضها . بالطبع يوجد رجال أمثال «كاسونوكي ماسا شيگي» و«أودا نو بوناگا» و«تويوتومي ايديوشي» و«نبلاء البلاط الامبراطوري» ومحاربون .

كان هذا الموكب مثل لفيفة رقّ طويلة من عادات «كيوتو» تُنشر أمام النظاّرة .

أضُيفت النساء إلى الموكب عام ١٩٥٠ فجعلنه أكثر بهرجة وجمالاً بكثير .

يقود الموكب (الموالون) في ذلك الزمن للاصلاح الميبجي ، وجنود « كيتاكووادا » الجبليّون في « تامبا » . في الخلف موظفو عهد « أنريياكا » المدنيون . حينما يشقّ الموكب طريقه إلى صومعة « هيئان » ، تتلى صلوات الشنتو أمام العربة الامبراطورية .

الموكب الذي انطلق من « گوشو » يمكن رؤيته بوضوح من الميدان في « گوشو » هذا هو السبب الذي حدا بايديو ، أن يدعو « نايبكو » إلى هذه البقعة .

على الرغم من أن الجموع المحتشدة تموج ، لكن ما من أحد كما يبدو قد انتبه إلى نايبكو وهي تنتظر ايديو في ظل البوابة . أخيراً جاءت سيدة ، يبدو أنها زوجة أحد أصحاب المخازن ، رأساً ناحية نايبكو . « يا آنسة ما أجمله من زنّار! من أيّ مكان اشتريته ؟ يبدو رائعاً جداً مع ثوبك» . شرعت بلمسه . «هل لك أن تريني شدّة العقدة في الخلف ؟ »

دارت نايبكو . باندهاش شعرت براحة ، لكون المرأة تراقبها .

وصل ايديو . « شكراً على انتظارك » .

كل المقاعد المجاورة لـ « گوشو » حيث ينطلق الموكب ، حجزتها نوادي السفر وجمعيات الصوامع ، إلاّ أن ايديو ونايبكو وقفا خلف مقعد السيّاح .

هذه هي المرّة الأولى التي ترى فيها نايبكو الاستعراض من بقعة حسنة كهذه . راقبت الموكب ناسية تماماً ملابسها الجديدة وملابس ايديو .حين

لاحظت نايبكو أنه لم يكن يراقب الموكب ، سألته ، «يا ايديو ما الذي تنظر إليه ؟ »

« إلى خضرة أشجار الصنوبر... والاستعراض . أشجار الصنوبر في الخلفيَّة تجعل الاستعراض يبدو أفضل . الحدائق الواسعة هنا في « گوشو » هي في الغالب أشجار صنوبر سوداء . إنها المفضّلة لديَّ... وكنتُ أيضاً أنظر إليكِ من زاوية عيني . لم تنتبهي ، هل انتبهت ؟ »

أسبلتْ نايبكو عينيها إلى الأسفل .

أخوات الخريف في أوْجه

تستمتع تشيكو ، من كلّ مهرجانات « كيوتو » بمهرجان (نار كوراما) ، حتى أكثر من استمتاعها بمهرجان « دايبمونجي » . كانت نايبكو أيضاً قد ذهبت إليه . لم يكن المهرجان بعيداً عن منزلها . لكن إذا مرّتْ إحداهما بالأخرى ، فما منهما مَنْ انتبهتْ للأخرى .

شُيِّدت حواجز من أغصان الأشجار قرب البيوت على طول الدرب من شارع « كوراما » إلى الصومعة ، ويُصبُّ الماء فوق السطوح . في منتصف الليل ، يحمل الناس أنواعاً مختلفة من المشاعل ، كبيرةً وصغيرة .

المشاركون وهم يرتّلون « ساريَا ، ساريَو » يصعدون التلّ إلى الصومعة . لهب المشاعل يحترق بعنف . وحينما تظهر المحفّة بعد ذلك ، تخرج جميع نسوة القرية لسحبها بالحبال . قبيْل نهاية المهرجان ، يُقدَّم مشعل عظيم كقربان . يستمر الاحتفال حتى منتصف النهار تقريباً .

لكنّ مهرجان النار في هذه السنة ، أُلغي . قال بعضهم لأسباب اقتصادية . على أية حال لقد أقيم مهرجان « قطع الخيزران » كالمعتاد .

أُلغي كذلك هذا العام مهرجان (بقلة القلقاس) في صومعة « كيتانو

تنجين » . قال بعضهم إنه بسبب حصاد القلقاس المجدب الذي تعذّر معه صنع محفّة قلقاس .

في طوكيو ، توجد كثير من الفعاليات مثل (صلاة اليقطين) في صومعة « أنرا كويوجي » ، في « شيشيگاتاني » والتقدمة الامبراطورية للقثاء في صومعة « رنجيجي » . هل هذه تكشف عن كلّ من العاصمة القديمة وسكّانها ؟

من بين التقاليد التي أحييتْ مؤخراً ، زوارق « كاريوبنگا » ذات الرؤوس التنّينيّة على النهر في « أراشيياما » والاحتفال الذي يقام على ضفاف الجدول المتعرّج في حديقة صومعة « كاميگامو » . كان كلاهما في الأصل من مسليّات طبقة النبلاء . يجلس المشاركون في احتفال النهر على الضفة وهم يرتدون ثياباً قديمة ، يؤلفون الشعر ويرسمون اللوحات . حين يأتي قدح النبيذ طافياً منحدراً إليهم ، يتناولونه ويشربون منه . بعد ذلك يبعثونه ، بمساعدة أولادٍ صغار إلى الشخص المجاور .

بدأ هذا الحدث في السنة السابقة . لقد ذهبتْ تشيكو لمشاهدته . كان زعيم العائلات النبيلة شاعراً تقليدياً يابانياً ، اسمه « سوشيئي إسامو » الذي انطمس ذكره منذ ذلك الوقت .

هذا الحدث القديم الذي أُحيي من جديد ، بعد سنوات من النسيان ، لم يكن على أية حال جذّاباً تماماً .

لم تَرَ تشيكو مهرجان « كاريوبنگا » في « اراشيياما » هذه السنة كذلك . كانت تميل إلى الاعتقاد ، أنه بعيد الاحتمال أن تكون لهذا الحدث الأناقة الريفية التي كانت له في الماضي . في طوكيو توجد مهرجانات قديمة أكثر مما يستطيع أن يراها شخص .

هل السبب ، لأن تشيكو ربّتها أمّها الكادحة ، أو لأن تشيكو من جبلّة كهذه ، بحيث تُفيق مبكراً وتلمّع القطع المشبكة ؟

« يا تشيكو يبدو أنكما صرفتما وقتاً طيباً في (مهرجان العصور) » . بعد أن أنهت تشيكو التنظيف للفطور ، تسلّمت نداءاً هاتفياً من « شينيتشي » . يبدو أنه هو كذلك حَسِبَ نايكو على أنها تشيكو .

« هل كنتَ هناك ؟ كان من الضروري أن تذكر لي شيئاً » . هزّت تشيكو كتفيها متذمرة .

« شرعتُ ، لكنَّ أخي أوقفني ، » قال « شنيتشي » بعفوية .

ترددت تشيكو في أن تخبره أنها كانت مسألة خطأ في الهوية . علمت تشيكو من « شنيتشي » أنها كانت ترتدي الزنّار الذي صنعه ايديو في (مهرجان العصور) بالإضافة إلى الكيمونو التي أرسلتها لها ، وأن الشخص الذي كان يرافق نايكو هو ايديو بالتأكيد . فاجأت تلك الأخبار تشيكو . لكنها في الحال شعرت بدفء قليل في فؤادها ، في حين طلعت ابتسامة على شفتيها .

« يا تشيكو ، يا تشيكو » نادى شنيتشي باسمها على الهاتف . « لماذا لا تتحدثين ؟ »

« هل أنت الشخص الذي ناداني ؟ »

« نعم ، » ضحك شنيتشي . « هل الموظفون موجودون الآن ؟ »

« لا ، لم يأتوا بعد » .

« هل أنتِ مصابة برشح ، يا تشيكو ؟ »

«هل أُعطيك انطباعاً بذلك ؟ كنتُ للتوّ في الخارج أنظّف الباب المشبك» .

«اصدّقكِ» لاحَ وكأن شنيتشي كان يهزّ السماعة .

ضحكت تشيكو هذه المرّة .

تكلم شنيتشي بنبرات خفيضة . في الواقع إنني أنادي على أخي . هو ذا» .

لا يمكن لتشيكو أن تتحدث إلى «ريوسوكه» بطريقة متحررة ، كما تتحدث إلى شنيتشي .

«يا تشيكو ، هل كلّمتِ الموظف ؟»

«أي» .

«عظيم» . تكلم ريوسوكه بصوت قوي . «عظيم» .

«سمعتْ أمّي شيئاً مما دار بيني وبين الموظف ، لذا فهي مستاءة قليلاً» .

«أتوقع ذلك» .

«سألته أن يريني دفتر الأستاذ لأنني أودّ تَعلَّمَ مهنة العائلة» .

«حسناً فعلتِ . مجرد التحدّث معه غيَّر وجهة نظره . أليس كذلك ؟»

«بعد ذلك طلبتُ منه أن يجلب لي حسابات المصرف ، والأسهم وما إلى ذلك من الخزانة» .

«ممتاز ، يا تشيكو . نِعْمَ ما فعلتِ...» لكنَّ ريوسوكه لم يستطع مقاومة عواطفه . «لفتاة رقيقة جداً» .

« كانت فكرتكَ... » .

« لم تكنْ فكرتي . كانت تدور إشاعة بين بائعي الجملة المجاورين . لو لم تقولي شيئاً له ، فإننا ، والدي أو أنا ، قررنا الذهاب إليه ، ولكن ما حدثَ هو الأفضل . تغيّرت وجهة نظر الموظف . أليس كذلك » ؟

« نعم ، بطريقة أو بأخرى » .

« أعتقد ذلك » . كان ريوسوكه صامتاً لفترة طويلة . « حسناً فعلتِ » .

شعرتْ تشيكو أن ريوسوكه كان متردداً .

« تشيكو ، هل سأكون عائقاً لو زرتُ محلكم عصر هذا اليوم ، مع شنيتشي ؟ » تساءل .

« عائقاً ؟ بالطبع لا ، » أجابت تشيكو .

« أيه ، أنت شابة قليلة الخبرة » .

« آه ، عنك هذا » .

« وماذا عن ؟ » ضحك ريوسوكه . « هل سيكون من الصواب لو جئتُ حينما يكون الموظف موجوداً ؟ سألقي نظرة أنا نفسي . لن تقلقي على شيء . أريد مجرد إلقاء نظرة على وجهه » .

« آ ، » وبقيّة كلماتها لا تريد أن تخرج .

يمتلك والد ريوسوكه محلاً واسعاً للبيع بالجملة قرب موروماتشي ، وله أصدقاء كثيرون من ذوي النفوذ . كان ريوسوكه في الجامعة ، لكنه بالفعل مهتم بالمهنة .

« بعد ذلك نذهب ونتناول حساء سلحفاة . لقد حجزتُ مقاعد في

« دائيتشي » في كيتانو . هل تأتين معي ؟ ليس من الأدب أن أسأل والدك ووالدتك المجيء أيضاً ، لذا فأن أدعوك أنت وحدك . سأجلب معي صبي المهرجان » .

كانت تشيكو مرتاعة . كل ما تقوى على قوله نَعَمْ .

مرّت أكثر من عشر سنوات منذ أن ركب شنيتشي في عربة الصومعة في مهرجان « گيون » ، إلاّ أن أخاه الأكبر ما يزال يدعوه « صبي المهرجان » ، جزئياً للسخرية منه ، ولكن أيضاً لأن شنيتشي ما يزال رقيقاً ومحبوباً مثل طفل مهرجان .

« جاء ريوسوكه وشنيتشي ليقولا إنهما آتيان عصر اليوم » . أخبرتْ تشيكو أمّها .

« ماذا ؟ » بدتْ « شگي » مندهشة كذلك .

ذهبت تشيكو بعد الظهر إلى آخر الطابق الثاني وبعناية وضعتْ المساحيق ، ولكن ليس بصورة واضحة .

على الرغم من أنها حاولت أن تلّف شعرها ، لكنها فشلت في أن تجعله كما يحلو لها . حاولت هذه وتلك ، متفكرة أي شيء ترتدي .

حينما نزلت أخيراً ، لم يكن والدها في البيت . لقد خرج .

حضّرتْ تشيكو نار الفحم في ردهة الاستقبال ، ثم نظرتْ حواليها إلى الحديقة . الأشنة على شجرة الاسفندان ما تزال خضراء ، إلاّ أن أوراق البنفسج تغيّرت الى صفراء قليلاً . أطلعت أجمة الـ « ساسانكوا » قرب قاعدة المشكاة المسيحية ، ازهاراً قرمزية ، مسّتْ ألوانها قلب تشيكو أكثر من تلك الأزهار الحمراء .

حيّا ريوسوكه وشنيتشي ، والدة تشيكو بكياسة حينما وصلا . بعدئذ جلس ريوسوكه أمام الموظف مباشرة قرب دفتر القيد . خرج الموظف ، يويمورا ، على عجل من حجيرة المحاسبة واستغرق وقتاً طويلاً بتحيتهما مرات ومرات . إلاّ أن وجه ريوسوكه المتجهّم لم يخفقْ أثناء ما كان يردّ على تحية الموظف . فطن « يويمورا » بالطبع إلى برودته .

أخذ « يويمورا » العجب ، مما يضمره له هذا التلميذ الأحمق . على الرغم من شعوره بغبن ريوسوكه له ، إلاّ أنه لا يوجد شيء يمكنه أن يقوم به لإصلاح ذات البين .

انتظر ريوسوكه وقفة في كلمات « يويمورا . « شيء مدهش أن يعمل المحلّ بنجاح » .

« شكراً » .

« يعزو والدي وزملاؤه هذا النجاح إلى اختياركَ هنا من قبل السيد « سادا » سنواتك الطويلة من الخبرة لا يمكن الاستغناء عنها » .

« ماذا تعني ؟ ليس هذا محلاً كبيراً كمحلّكم . إننا لا نستحق حتى التحدث عنّا » .

« لا ، كل ما عملناه ، هو التوسّع في ميدان شغلنا . سواء أكنّا محلّ بيع ملابس جاهزة في كيوتو ، أو سَمِّهِ ما شئت ، فإننا مخزن واسع رخيص . أنا لا أحبّه . لماذا... إذا أديرت المخازن من قبل أناس حصفاء ثقاة من أمثالك وتزول... »

وقف ريوسوكه تماماً في الوقت الذي كان فيه يويمورا على وشك الردّ . عبس الموظف أثناء ما كان يراقب شخص ريوسوكه يتراجع ويذهب إلى

ردهة الاستقبال في الخلف حيث كان يجلس تشيكو وشنيتشي . كان واضحاً ليويمورا أن هناك نوعاً من علاقة سرّية بين تشيكو التي أرادت أن ترى دفتر الحسابات وبين ريوسوكه .

نظرت تشيكو إلى وجه ريوسوكه كأنما لتتسقّط ما حدث .

« قرّبتُ أجله . أنا مسؤول عمّا نصحتك به » .

لم تتكلم تشيكو . نظرت إلى الأسفل بينما كانت تعمل الشاي لريوسوكه .

« نظر ريوسوكه إلى البنفسجتين على جذع شجرة الاسفندان » . أشار إليهما شنيتشي . أنظرْ ، توجد نبتتان . قبل بضع سنوات قالت تشيكو إن البنفسجتين مثل عاشقين . على الرغم من أنهما قريبتان إلى بعض ، إلاّ إنهما لم تلتقيا » .

« نعم » .

« الفتيات يفكرن بأشياء بارعة كهذه » .

« عنك عن ذلك . ألا تستحي يا شنيتشي ؟ » ارتعشت يد تشيكو قليلاً ، وهي تضع قدح الشاي أمام الشقيق الأكبر .

ذهبوا ،ثلاثتهم ، بسيارة ريوسوكه إلى « دائييتشي ـ محل حساء السلحفاة في منطقة كيتانو روكوبان . كان محلّ دائيتشي قديماً ، ومشهوراً لدى السيّاح . الغرف ذات طراز قديم . مع سقوف واطئة .

شربوا حساء السلحفاة التي كانت قد أُغليتْ بقدر مدوّر كما يدعى ، فأصبحت يخنة .

شعرت تشيكو بابتهاج في داخلها وكأنها ثملة . ظهرت بقعة حمراء

خفيفة على رقبتها . إنه لمنظر جميل أن ترى اللون يصعد في إهابها الأبيض الفتي ، ناعماً وبرقةٍ معرّقاً . بان سحر آسر في عينيها . أحياناً تحكُّ خدها برفق .

لم تضع تشيكو من قبل أبداً قطرة من شراب كحولي على شفتيها ، إلاّ أن حساء اليخنة تقريباً نصف شرابٍ من «الساكي» .

كانت السيارة تنتظر أمام المحلّ ، إلاّ أن تشيكو خائفة من أن ساقيها لا تستطيعان حملها ، مع ذلك فهي مسرورة . شعرت وكأنها تقدر على أن تتكلم بطلاقة أكثر من المعتاد .

«يا شنيتشي» تحدثتْ تشيكو إلى الشقيق الذي يسهل الحديث معه . «الفتاة التي رأيتَها في (مهرجان العصور) في حديقة «گوشو» ليستْ أنا . كنتَ مخطئاً . كانت متحفظة . أليس كذلك؟»

«ما من ضرورة لإخفاء أيّ شيء ، » ضحك شنيتشي .

«أنا لا أخفي أيّ شيء...» لم تعرف تشيكو ما تقوله . «في الواقع كانت تلك شقيقتي» .

«ماذا؟» كان شنيتشي متشككاً .

حينما كان الكرز متفتحاً في «كيوميزا» ، أخبرت تشيكو ، شنيتشي أنها طفلة مهجورة ، ولا شك أن اعترافها وجد طريقه إلى شقيقه ريوسوكه . حتى لو أن شنيتشي لم يخبره ، فقد يكون قد سمع الإشاعة ، ما دامت مخازننا متقاربة .

الفتاة التي رأيتَها في الحديقة في «گوشو» ، » ترددت تشيكو قليلاً . «كنّا توأمين... إنها أختي» .

هذه هي المرّة الأولى التي يسمع فيها شنيتشي ، عن أمر تشيكو . لم يردَ . كان الثلاثة صامتين لفترة .

« كنت الواحدة التي هُجرتْ »

تكلم بعدئذ ريوسوكه . « إذا كان ذلك صحيحاً ، فيا ليتها طُرِحت أمام محلنّا » . وأعاد ما قال .

« يا ريوسوكه » ضحك شنيتشي ، « لم تكن تشيكو التي تراها الآن . إنها طفلة كانت وُلدتْ من جديد » .

« ما الخطأ في ذلك ؟ » قال ريوسوكه .

« أنتَ تقول ذلك بينما تنظر إلى تشيكو الآن » .

« لا لستُ كما تظنّ » .

« إن الـ « تشيكو » التي تراها الآن هي الـ « تشيكو » التي رباها وأحبّها وتعهّدها « سادا » وزوجته » . قال شنيتشي « كنتَ أنت نفسك طفلاً في ذلك الوقت . هل يمكن لطفلٍ صغير أن يربّيَ طفلاً ؟ »

« نعم ، » أجاب ريوسوكه بحزم .

« همْمْ . تلك هي نفس ثقتك العنود بنفسك . تكره أن تكون خاسراً » .

« قد يكون ذلك ، لكني أحببتُ لو رعيت تشيكو طفلة . كانت ستساعدني أمّي لا ريب » .

صَحَتْ تشيكو . أصبح جبينها أبيض .

استمر مهرجان الخريف (لرقص كيتانو) أسبوعين . وقبل يوم من انتهائه ، ذهب سادا تاكيتشيرو لوحده . لقد تسلّم بالطبع أكثر من تذكرة

دخول من بيت المتعة لكنه لم يشعر بأية رغبة في دعوة أي واحد معه . شعر أن الذهاب إلى بيت المتعة سيكون مضجراً مع أصدقاء في طريق العودة .

قبل احتفالات الرقص ذهب تاكيتشيرو مغموماً إلى بيت المتعة . كان غريباً عليه أن تقوم «الگيشا» باحتفال الشاي .

وقفت سبع أو ثماني فتيات جانباً في صفٍ يساعدن في الأواني . كنَّ يرتدين ، ما عدا فتاة واحدة في الوسط بكيمونو زرقاء خفيفة ، كيمونات موحّدة طويلة الأردان بلون ورديّ فاتح كلون طائر «أبو منجل» ذي العرف .

نادى تاكيتشيرو عالياً في الغالب . إنها الآن بلا تبرّج . أليست هي نفس الفتاة التي ركبت في الترام مع المديرة من حيّ المتعة ؟ ربما تعني الكيمونوالزرقاء ، أنها كانت نوبتها لشيء ما .

جاءت الفتاة التي ترتدي الكيمونو الزرقاء بالشاي ووضعته أمام تاكيتشيرو . بالطبع كانت متكلفة الاحتشام ولم تبتسم ، وفقاً للسلوك الصحيح .

إلاّ أن تاكيتشيرو شعر بقلبه يبتهج . كانت الرقصة (تصوير شقائق نعمان السيدة «يو») ، وهي دراما تُمثَّل بالرقص في ثمانية مشاهد ، مستقاة من القصة الصينية المأساوية الشهيرة عن (السيدة يو وسيانگ يو) .

تطعن السيدة «يو» نفسها في الصدر وتموت بين ذراعي «سيانگ يو» ، بينما كان يستمع إلى إحدى أغنيات الحنين لـ «شئو» . في وقت تالٍ ، بعد أن يموت سيانگ يو في إحدى المعارك ، ينتقل المشهد إلى اليابان ، وقصة عن «كوماجائي نو ناوزانه» ، و«تاييرا نو أتسوموري» ، والأميرة تاما أوري . وبعد أن أدرك «كوماجائي» الذي قتل «أتسوموري»

زوال الحياة ، تبنّي الطقوس البوذية . حينما يذهب إلى ساحة القتال القديمة لزيارة قبر «أتسوموري» ، يرى الحقول عاجّة بأعداد ضخمة من أزهار شقائق نعمان «يو» ، وقد دُعيتْ بهذا الاسم تبعاً للسيدة «يو» في القصة الصينيّة . يسمع مزماراً . يظهر شبح «اتسوموري» ويخبر «كوماجاني» أنه يرغب أن يوضع مزمار «أوبا» الذي يخصه كتقدمة في صومعة في «كوراداني» . ثم يظهر بعد ذلك شبح الأميرة «تاما أوري» قائلة إنها تريد بعضاً من شقائق النعمان الحمراء تتفتح حول القبر ، لتكون تقدمة لبوذا .

بعد هذه الرقصة ، جاءت رقصة جديدة مثيرة تدعى «أناقة كيتانو» .

كانت رقصة «كميشيتشكن» من مدرسة «أناياجي» وهي بخلاف «گيون» التي هي من «انويوئي»

بعد أن غادر تاكيتشيرو كيتانو ، زار بيت المتعة القديم الطراز ، ورمى نفسه في مقعد . إن طريقته حثّت صاحبة بيت المتعة على أن تسأل مَنْ من الفتيات تناديها له . «همْمْ . ما رأيك بالفتاة التي عضّت لسان الرجل ؟ وكذلك الفتاة بالكيمونو الزرقاء ،» قال تاكيتشيرو .

«الفتاة في القطار ؟ لا بأس إذا اقتصر الأمر على الترحيب» .

كان تاكيتشيرو يشرب قبل وصول «الگيشا» ، لذا فقد مشى إلى الخارج عن عمد . حينما جاءت الگيشا لمصاحبته ، سألها «أما تزالين تعضين ؟»

«تذكرُ جيداً . لن أعضّ . أخرج لسانك» .

«أخاف أن» .

«حقاً ، لن أعضّ» .

أخرج تاكيتشيرو لسانه ، ومصّته بفمها الناعم الدفء .

لمس مؤخرة الفتاة مساً خفيفاً . «لقد أصبحتِ فاسقة جداً» .

«هل هذا فسق ؟»

أراد تاكيتشيرو أن يغرغر ويمضمض فمه ، ولكنه لم يستطع لأن «الگيشا» إلى جانبه . لقد عقد العزم على القيام بهذا الجزء الصغير من العمل المزعج مع «الگيشا» . حتى بالنسبة لها ، فقد كان عملاً هو ابن ساعته ، ليس له أي مغزى حقيقي . لم يكره تاكيتشيرو «الگيشا» ، كما أنه لم يعتقد أنها قذرة .

أوقفته «الگيشا» عندما شرع بالعودة إلى ردهة الاستقبال .

«رجاءً انتظرْ ،» قالت بينما أخرجت منديلاً ومسحت فم تاكيتشيرو . كان هناك أحمر الشفاه على المنديل . قرّبت الگيشا وجهها أكثر من تاكيتشيرو ، محدّقة به . «والآن كما ينبغي ، أليس كذلك ؟»

«شكراً» . وضع تاكيتشيرو كلتا يديه قليلاً على كتفي «الگيشا» .

بقيت «الگيشا» أمام المرآة في غرفة الاستراحة لوضع أحمر شفاهها .

حينما رجع تاكيتشيرو إلى ردهة الاستقبال ، لم يكن فيها أحد . شرب قدحيْن أو ثلاثة من شراب «الساكي» البارد ، كأنما ليغسل فمه .

مع ذلك فعطر «الگيشا» ـ هل كان عطرها ؟ انتقل من مكان ما . شعر تاكيتشيرو بغموض بأنه شاب مرّة ثانية .

على الرغم من أن غزل «الگيشا» لم يكن يتوقعه تاكيتشيرو إلاّ أنه احتار هل كان بارداً اتجاهها . ربما لأنه لم يمتّع نفسه بفتاة شابة منذ زمن

طويل . هذه «الگيشا» ذات العشرين سنة تقريباً ، قد تثبت في النهاية أنها امرأة ممتعة على وجه الخصوص .

جاءت صاحبة البيت مع الفتاة الشابة . ما تزال ترتدي الكيمونو الزرقاء ذات الأردان الطويلة . «ما دمتَ قد طلبتَ ، فإنني سألتها لتأتي للترحيب بك . كما ترى ، إنها ما تزال صغيرة جداً» . قالت صاحبة بيت المتعة .

نظر تاكيتشيرو إلى الفتاة . «لقد قدَّمت لي شاياً قبل فترة» .

«نعم» . لم تكن خجولة . لكونها فتاة في بيت المتعة . «حينما جلبت الشاي ، ادركتُ أنك كنتَ الرجل في القطار ؟»

«آ ، شكراً . تذكرينني ؟»

«نعم ، أذكرك» .

حينما رجعت «الگيشا» تكلمت صاحبة بيت المتعة معها . «لقد انجذب السيد «سادا» تماماً إلى هذه الفتاة الصغيرة» .

«ماذا ؟» نظرت الگيشا إلى وجه تاكيتشيرو . «لديك عين مدرّبة ، لكن عليك أن تنتظر حوالي ثلاث سنوات . فضلاً عن أنها ستذهب إلى (بونتوتشو) في الربيع القادم» .

«بونتوتشو ؟ لماذا ؟»

«تريد أن تكون «ماييكو» . تقول إنها تحلم أن تكون ماييكو» .

«إذا أرادت أن تكون ماييكو ، أليست «گيون» أفضل ؟»

«خالتها تعيش في «بونتوتشو» . هذا هو سبب ذهابها إلى هناك» .

حدّق تاكيتشيرو بالفتاة . ستصبح ماييكو من الطراز الأول ، أينما ذهبت .

اتخذ اتحاد حائكي الأنسجة في « نيشيجن » إجراء لم يسبق له مثيل ، وذلك بايقاف كل أعمال الحياكة لمدة ثمانية أيام من اليوم الثاني عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني حتى اليوم التاسع عشر . وبما أن يوميْ الثاني عشر والتاسع عشر يصادفان يومي أحد ، ففي الواقع أن التوقف هو ستة أيام عمل فقط .

لهذا التوقف جملة أسباب ، لكن باختصار ، فإن الغاية اقتصادية . فلقد فاض الانتاج عن الحاجة ، وزاد النسيج المتوفر عن ثلاث مائة ألف حزمة قماش . الغرض هو التخلص من بعض المخزون وتحسين العمل . وهناك أيضاً مشاكل مطردة في التمويل .

لقد أفلست شركات تجارية في «نيشيجن» منذ الخريف في السنة الماضية إلى نهاية الربيع .

قيل إنه بايقاف العمل لثمانية أيام ، نقص المخزون ، بمقدار ثمانين أو تسعين ألف حزمة . كانت النتائج مُرضية ، لذا بدتْ تلك الخطّة ناجحة .

من مجرد إلقاء نظرة سريعة على الشوارع في «نيشيجن» يدرك المرء أن بيوت الحياكة أطاعت القانون ما دامت لديهم كمية معتبرة من الأشغال اليدوّية الرائعة الأخرى التي يستطيعون عملها في المخازن .

انتصبت البيوت الصغيرة جنباً إلى جنب واطئة ، مخفيَّة تحت أفاريز السقوف القرميدية القديمة المهترئة ، وكأنها متمددة على الأرض . حتى تلك البيوت ذات الطابقين كانت خفيضة إلى حدّ ما .

الشوارع الجانبيَّة مثل متاهة شبكات كممرات الحقول . يمكن للمرء تقريباً أن يسمع أصوات أنوال الحياكة أثناء الليل القاتم . لم تكن كل أنوال الحياكة مملوكة لأفراد ؛ بعضها مؤجرّ .

قيل إن حوالي ثلاثين مخزناً ، قدموا طلباً باستثنائهم من إيقاف العمل .

عائلة ايديو لم تصنع النسيج ؛ يحوكون زنانير يستعملون بالطبع أضوية كهربائية عندما يشغلّون أنوالهم الثلاثة ، حتى في ساعات النهار . محلّهم أكثر اضاءة من المحال العادية ، لأنه توجد في الخلف أرض مفتوحة . مع ذلك فالمطبخ والأثاث رديئة ، ولَيَعجْب المرء أين ينام كل فرد في البيت .

كان ايديو مثابراً ، أنعم عليه اللّه بموهبة في عمله ، والكدّ المصاحب لها . ربما لديه بعض الرضوض على كَفَلِهِ من جراء جلوسه بتواصل على الشرائح الضيّقة لنول الحياكة .

حينما دعا ايديو ، ناييكو لمشاهدة (مهرجان العصور) ، لم يكن السبب في أنه كان مأخوذاً بخضرة الصنوبر في « گوشو » الفسيحة أكثر من استعراضات أزياء العصور المختلفة ، بل لأنه وجدها فرصة للهروب من حياته اليومية العادية . لم يكن المشهد الطبيعي ليلفت نظر ناييكو على وجه الخصوص ، وهي التي تعمل في الجبال والوديان الضيقة .

بعد أن رأى ايديو ، في « مهرجان العصوز » ناييكو وهي ترتدي الزنّار الذي قام بصنعه ، تشجع في عمله .

بعد أن ذهبت تشيكو إلى « اوييتشي » مع ريوسوكه وشنيتشي ، مرّت بها لحظات شعرت خلالها وكأنها فقدت قلبها في مكان ما ، على الرغم من أن مشاعرها لم تكن عنيفة جداً لتدعى ألماً . حينما لاحظت ذلك ، ظنّت أنه لا بد أن يكون بسبب قلق .

في اليوم الثالث عشر من ديسمبر/ كانون الأول مرّ « كوتو أجيمه »

وبدأ بسرعة ، شتاء كيوتو المتقلب . قد يتلألأ المطر الشتائي في الشمس عندما تكون السماء صاحية . قد يسقط البَرَد ممزوجاً بالمطر تصحو السماء بسرعة ، وبسرعة تصبح غائمة مرّة ثانية .

تحضيرات السنة الجديدة ـ بكلمات أخرى ، تقديم هدايا نهاية السنة ، تبدأ حسب الأعراف القديمة بعد الـ « كوتو أجيمه » . بالطبع إن المكان الذي يُحتفل به بهذا العرف بأكثر حرصاً هو حيّ المتعة . في حوالي ذلك الوقت يقوم الذكور المرافقون للگيشا والمايكو بتوزيع كعك الأرز الذي يتخذ شكل مرايا إلى بيوت المتعة وإلى بيوت الموسيقى ، ومعلمي الرقص ، وبيوت الگيشا الأعلى مقاماً ، ـ كل هؤلاء الذين كانوا مساعدين للگيشا والمايكو .

بعدئذ تقوم المايكو بالطواف هنا وهناك لتقديم التهاني بالسنة الجديدة . الغرض من ذلك هو تقديم الشكر إلى هؤلاء الذين ساعدوهنّ بطريقةٍ ما خلال العام الماضي ، وليلتمسن رضاهم في السنة المقبلة . في هذا اليوم ، في السنة الجديدة المبكرة ، تُحيي ذهابات وإيابات الگيشا والمايكو بملابسهن المبهرجة ، الجوّ حول « گيون » أكثر من أيِّ يوم أخر .

لم يكن محلّ تشيكو في مهرجان شديد تقريباً .

ذهبت تشيكو بعد الانتهاء من الفطور إلى الطابق العلوي وحيدة ، لتزيين نفسها قليلاً ، إلا أن يديها بقيتا ساكنتين .

اخترقت كلمات ريوسوكه العنيفة في محل الحساء ، قلب تشيكو . لقد كانت طريقة قوية وضعها فيها ، حينما قال إنه تمنّى لو أن تشيكو تُركت أمام محله يوم كانت طفلة .

كان شنيتشي رفيق طفولة تشيكو وصديقاً لها طيلة أيام الدراسة العليا . كان يتحلّى بجبلّة رقيقة ، وعلى الرغم من أنها تعرف أنه يودّها ، فإنه لم يقل قطَ شيئاً يقطع نَفَسها بالطريقة التي فعلها ريوسوكه . تستمتع تشيكو وشنيتشي ، برفقة بعضهما بعضاً بدون متاعب كهذه .

مشطت تشيكو شعرها الطويل ، تركته ينسدل على ظهرها ، بعدئذ نزلت إلى الطابق الأرضي .

قبل الانتهاء من الفطور بقليل ، جاء إلى تشيكو نداء هاتفي من قرية كيتاياما .

« هل هذه الآنسة تشيكو ؟ » تساءلت نايِيكو . « أريد أن أراك . في الواقع لديَّ شيء أريد أن أخبرك به » .

« نايِيكو ، شيء جميل أن أسمع صوتك . ما رأيك أن نلتقي غداً ؟ » تساءلت تشيكو .

« وهو كذلك ، في أيّ وقت تشائين » .

« رجاءً ، تعالي إلى المحلّ » .

« متأسفة ، الأفضل لا » .

« كل شيء على ما يرام . لقد حدّثت أمي عنك ، ووالدي يعرف عنك كذلك » .

« لكنَّ الموظفين موجودون » .

فكّرت تشيكو لبرهة... « طيّب إذا كان ذلك ما تشعرين به ، فيمكنني أن أقابلك في قريتك » .

«إنها باردة جداً هنا ، لكني مسرورة جداً بقدومك» .

«أودّ أن أرى أشجار الأرز على أية حال» .

«حقّاً . إنها باردة ، وربما تمطر رذاذاً ، لذا تأكدي أنك ستلبسين ما يناسب الطقس . بإمكاني تهيئة نار . إنني اشتغل قرب جانب الطريق ، لذا سأعرف حينما تصلين إلى هنا» . قالت نابيكو .

أزهار الشتاء

لم تلبس تشيكو قطّ في الغالب بنطلوناً فضفاضاً وسترة صوفية ، إلاّ أنها فعلت ذلك هذا اليوم ، مع جوارب ثخينة براقة اللون .

ما دام والدها في البيت ، فقد جلستْ تشيكو للترحيب به . نظر تاكيتشيرو بعين مندهشة إلى منظر ابنته غير المعتاد . «هل أنت ذاهبة للتمشي في الجبال ؟»

«نعم... الفتاة من قرية «كيتاياما» قالت إنها تودّ أن تراني اليوم لأنها تريد أن تتحدث عن شيء ما» .

«أفهم ذلك» . لم يبدُ على تاكيتشيرو أثر للتردد . «يا تشيكو» .

«نعم ؟»

«إذا كانت لديها مشكلة ما ، أو صعوبة ، فرجاءً إجلبيها معك إلى البيت . سنرعاها» .

خفضت تشيكو عينيها .

«سيكون رائعاً ، أن تكون لدينا ابنتان . أنا وأمّك ، كلانا ، سنكون سعيديْن جدّاً» .

«شكراً يا أبي . شكراً» . انحنت تشيكو له . ساحت دموع دافئة على خدّيها .

«يا تشيكو ، لقد ربّيناك مذ كنت طفلة رضيعة . كنتِ أحلى طفلة ، أقصى ما يتمناها أيّ إنسان . سنعامل تلك الفتاة بما يليق قدر المستطاع . إذا كانت تشبهك ، فلا بدّ انها طيّبة . اجلبيها إلى هنا . قبل عشرين سنة كانت التوائم لا تُقبل ، أمّا الآن فلا شيء من هذا القبيل ،» قال والدها . «ياشگي ، يا شگي!» نادى على زوجته .

«يا أبي ، أعي ما تقول . أعتقد سيكون ذلك رائعاً ، لكن نايكو لن تأتي إلى هنا ، إلى بيتنا أبداً ،» قالت تشيكو .

«لماذا ، لا ؟»

«من المحتمل إنها لا تريد أن تكون عائقاً في طريق سعادتي» .

«لماذا ينبغي لها أن تفكّر أنها عائق ؟»

لم تردّ تشيكو .

«لماذا ينبغي لها أن تفكّر أنها ستكون عائقاً ؟» تساءل مرّة ثانية ، حانياً رأسه .

«حتى في هذا اليوم ، سألتُها أن تأتي إلى المحلّ ، ما دمتَ أنتَ وأميّ ، بالفعل على علم بها» . غصّ صوت تشيكو بالدموع . «إنها خائفة من المشاكل مع الموظفين أو الجيران» .

«الموظفين ؟» كان صوت تاكيتشيرو عن غير عمد ، عالياً .

«أفهم ما تفكّر به ، لكن في الأقل سأذهب هذا اليوم وألتقي بها» .

«لكِ ذلك» هزَّ والدها رأسه . «انتبهي إلى نفسك . وقد يكون شيئاً حسناً ، إذا أخبرت تلك الفتاة ، نايبكو ، بما قلته الآن» .

«نعم ، سأخبرها» .

ربطت تشيكو القلنسوة إلى معطفها المشمّع . لبست «الكلوش» فوق حذائها .

مع أن السماء فوق «ناكاجيو» صافية إلاّ أنها قد تصبح غائمة في أي وقت . قد تُمطر رذاذاً في كيتاياما . ومن داخل المدينة ، بدا وكأنها أمطرت . ولو لم تكن تلك جبال كيوتو الصغيرة الوديعة ، لبدت أشبه شيء بثلج .

أخذت تشيكو حافلة (خطوط السكك القومية) .يمرّ خطّان للحافلات بـ «ناكاگاوا كيتاياما» . تنعطف حافلة المدينة ، بالضبط قبل شِعْب الجبل على الضواحي الشمالية من القسم المضاف حديثاً إلى مدينة كيوتو ، إلاّ أن الحافلة تقطع كل الطريق إلى «أوباما» في «فوكوئي برفكتوره» .

تقع «أوباما» على حافة خليج «أوباما» ، الذي يُفضي إلى خليج «واكاسا» ، الذي ينفتح هو بدوره على (بحر اليابان) .

لم يكن في الحافلة سوى أنفار قليلين ، ربما بسبب الشتاء .

حدّق شاب بتشيكو بحدّة . كان برفقته رجل آخر . شعرت تشيكو بخوف مرتقب ، فلبست القلنسوة .

«يا آنسة ، أعملي عليَّ فضلاً . رجاءً لا تُخفي نفسك بهذه الطريقة» . تكلم الرجل بصوت خشن لا يتناسب مع عمره .

«هِهْ ، اسكتْ ،» قال الرجل الجالس إلى جانبه .

كان في يديْ الرجل الذي كلّم تشيكو قيد . أيّ نوع من المجرمين هو ؟ هل كان الرجل إلى جواره شرطياً ؟ إلى أين يقوده هذا الرجل ، بعيداً خلف الجبال العميقة الأغوار ؟

لم تُرِدْ تشيكو أن تنزع القلنسوة لتُريَ وجهها .

وصلت الحافلة إلى تاكاو .

« أين غابت تاكاو ؟ » تساءل أحد الركاب .

لقد بدا بالفعل وكأن تاكاو قد تلاشت ؛ أوراق الاسفندان سقطت جميعها ، واستقرّت مسحة من شتاء على رؤوس الأغصان . كان المتنزّه في أسفل « تاگانو » خالياً .

خرجت نايِيكو إلى موقف الحافلة قرب (شلالات بودائي) لانتظار تشيكو . كانت بملابس العمل .

لبرهة ، لم تتعرّف نايِيكو على تشيكو بالملابس التي كانت ترتديها .

« شكراً على مجيئك . مكاننا بعيد جداً في الجبال » .

« ليس بذلك البعد » . أمسكت تشيكو بيدي نايِيكو بدون أن تنزع القفاز .

« أنا بمنتهى السعادة . لم أرَكِ منذ الصيف . قضّيتُ وقتاً طيّباً هنا » .

« عجباً ما الذي كان سيحدث ، لو ضَرَبنا برق ؟ مع ذلك ، فقد قضّيت وقتاً طيباً عندئذ » .

« يا نايِيكو ، » تكلمّت تشيكو بينما هما تسيران في الشارع . « كان الذي دعوتني من أجله للقدوم ضرورياً عاجلاً . أليس كذلك ؟ أريدك أن

تخبريني عنه قبل كلِّ شيء . هل لك أن تتحدثي عنه برباطة جأش ؟ »

لم تتكلم نايكو . كانت ترتدي ملابس العمل ، وعلى رأسها منشفة .

« ما هو ؟ » تساءلت تشيكو .

« في الواقع... قال ايديو إنه يريد أن يتزوّجني . و... » تلعثمت نايكو . أمسكتْ بها تشيكو ، بينما كانت تترنح .

كان جسم نايكو قوياً ومتعضلاً ، من جراء كدحها كل يوم . أثناء العاصفة الرعدية ، كانت تشيكو خائفة ولم تنتبه .

استعادت نايكو رباطة جأشها ، وهي سعيدة لأن تشيكو ما تزال تمسكها . لم تطلب منها الكفَّ عن إمساكها . بدلاً عن ذلك استمرت على الاتكاء على تشيكو أثناء ما كانت تمشي .

في الوقت نفسه ، بدأت تشيكو بالاتكاء على نايكو ، ولكن لم تنتبهْ أية من الفتاتين .

رفعت تشيكو قلنسوتها . « يا نايكو ، ما الذي قلتِهِ لايديو ؟ »

« جوابي ؟ لم أستطع إجابته على الفور » .

لم تتكلم تشيكو .

« لقد حسبني أنتِ ـ تعرفين الفرق الآن ـ لكن ، في قلبه ، في أعماق قلبه ، هيَ أنتِ هناك ، يا آنسة » .

« لا ، ليس ذلك صحيحاً » .

« صحيح ما أقول . متأكدة مما أعرف . حتى لو أنها لم تكن مسألة خطأ في الهوية ، فسيكون الزواج بديل شخصٍ بشخص . يرى ايديو فيَّ

صورة وهمية عنك ، يا آنسة . هذه هي المشكلة الأولى » . قالت نايبكو .

استعادت تشيكو إلى ذاكرتها تأنيب أمّها لأبيها لأنه سألها ما الذي تعتقده بايديو كزوج حينما كانا عائدين من حديقة تربية النباتات على ضفة نهر كامو . كانت أزهار الخزامى في ريعان تفتّحها .

« وثانياً ، فإن محلّ ايديو يصنع زنانير . أصحيح ما أقول ؟ » قالت نايبكو بقوّة . « سأتسبب في خلق مشكلة لك ، إذا ما كانت لي علاقة بمحلّك بصورة من الصورة . سينظر الناس الذين حواليك ، إليك باستغراب . لا يمكنني أن أعوّضك عن كلّ المتاعب التي أسببّها لك ، حتى إذا تجرأتُ وحاولت . أودّ لو استطيع إخفاء نفسي حتى أبعد من السابق في الجبال » .

« هل هذا ما تعتقدينه ؟ » هزّت تشيكو كتفي نايبكو . « لقد أخبرتُ والدي هذا اليوم بصريح العبارة بأنني ذاهبة لزيارتك ، يا نايبكو... وأمّي تعرف ، كذلك... » هزّت تشيكو ، كتفي نايبكو هزّاً أقوى . « ما تظنين ما الذي قاله أبي ؟... قال ، إذا احتاجت تلك الفتاة نايبكو إلى مساعدة فاجلبيها إلى هنا . أنتِ مسجلة على أنك ابنتي ، ولكن سأكون عادلاً بأفضل ما استطيع وأعاملها معاملة حسنة . من المحتمل أنها حزينة ، لأنها وحيدة هناك » .

نزعت نايبكو الفوطة من على رأسها . « شكراً » أسندتْ وجهها على يديها « إنني متأثرة بطيبتكم . شكراً » . لم تستطيع تشيكو التكلم لبرهة .

« ليس لي من أحد ألجأ إليه . أنا وحيدة ، لكنني أنسى ذلك واشتغل »

حاولت تشيكو تلطيف الحالة . « الشيء المهم هو ايديو . ما رأيك به ؟ »

« لم أستطع إجابته بسرعة ، » قالت نايبكو بصوتٍ باكٍ بينما كانت تنظر إلى تشيكو .

«أعطيني تلك» . أخذت تشيكو فوطة نابيكو . «لا يمكنك الذهاب إلى القرية باكية كما أنت عليه الآن» . مسحت عيني نابيكو ووجهها .

«لا أهتمّ . أنا صاحبة إرادة قوية ، وأقوم بقسطي من العمل ، لكنني بكّاءة كالأطفال» .

حين انتهت تشيكو ، وضعت نابيكو وجهها على صدر تشيكو ونشجت بارتجاف .

«لا شيء ، فلا تقلقي ، يا نابيكو . لا تحزني» . ربّتتْ تشيكو على ظهر نابيكو برفق . «إذا استمررت على ما أنت عليه من بكاء ، فسأضطرّ للعودة إلى البيت» .

«لا ، لا» . أصيبتْ نابيكو بالهلع . بعدئذ أخذت الفوطة التي كانت تمسكها تشيكو وفركتْ وجهها بخشونة .

بما أن الفصل فصل شتاء فمن الصعوبة على المرء أن يعرف إن كانت تبكي ، ما عدا بياض عينيها كان أحمر قليلاً . وضعت نابيكو الفوطة على رأسها ، مُخفيةً وجهها قليلاً .

لم تتكلم الاثنتان للحظة .

بعد قطع الأغصان ، تُترك الأوراق الدائرية على الأغصان العليا في أشجار أرز كيتاياما . بدت تلك الأوراق لتشيكو وكأنها أزهار شتاء خضراء بسيطة .

أحسّت تشيكو بأن اللحظة قد حانت ، فتكلمت إلى نابيكو ، «تصاميم ايديو للزنانير جيّدة وهو حائك ممتاز» .

«نعم ، أعرف ذلك ،» أجابت نابيكو . «حينما دعاني إلى مهرجان العصور ، كان يراقب الألوان المنعكسة من «هيگاشياما» والصنوبرات

الخضراء قرب « گيون » ، أكثر مما كان يراقب استعراضات ملابس كل عصر » .

« مهرجان العصور ليس شيئاً غير عاديّ بالنسبة له ، »

« لا ، لم تكنْ تلك هي المسألة » . وضعت نايبكو قوّة في كلماتها . كانت تشيكو صامتة ، لذا واصلتْ . « بعد انتهاء الاستعراض ، دعاني » .

« إلى بيته ؟ »

« نعم » .

كانت تشيكو مندهشة قليلاً .

« لديه شقيقان أصغر منه . أراني الأرض خلف المحلّ ، وقال ماذا لو تزوجنا ، إنه سيبنى منزلاً صغيراً هناك ، ويحوك الأشياء التي يحبّها » .

« وما الخطأ في ذلك ؟ »

« ما الخطأ ؟ أعتقد أن ايديو يريد أن يتزوجني كوهمٍ بديلٍ عنك ، يا آنسة . أنا فتاة . أنا أعرف » .

مشت تشيكو متسائلة مع نفسها ما الذي قد تقوله .

في غور صغير ، متفرع من الوادي الضيّق ، جلست بعض نساء مسنّات ، كن يغسلن أخشاب الأرز ، في دائرة يُدفئن أيديهنَّ وأقدامهنَّ قرب نار ينبعث منها الدخان .

مرّت نايبكو أمام بيتها ، وكان في واقع الأمر لا أكثر من كوخ . سقف الباب التبنيّ بحاجة إلى تصليح إنه مائل ويبدو تقريباً وكأنه يتموّج . لكونه بيتاً جبلياً ، فله حديقة صغيرة حيث أثمار العليق الحمراء معلقة من سبع أو ثماني أشجار « ناندينا » طويلة ، نامية بلا نظام .

ربما كان هذا الكوخ التعيس ، كوخ تشيكو كذلك .

قبل أن يمرا على البيت ، جفت دموع نابيكو القليلة . هل ينبغي لها أن تُخبر تشيكو : كان هذا هو البيت ؟ ما دامت تشيكو قد ولدت في قرية أمّها ، فمن المحتمل إنها لم تكن في هذا البيت بتاتاً . حتى نابيكو ، لا تتذكر تذكّراً قاطعاً : هل كانت هنا حينما كانت رضيعة ، بعد أن فقدت والدها ووالدتها .

من حسن الحظّ ، لم تلاحظ تشيكو البيت ، عندما مرّت به ، محدقة بأشجار الأرز المصفوفة باتساق . لم تذكر نابيكو الكوخ .

لا ريب ، إن تلك الأوراق المدوّرة التي تُرِكتْ على الأغصان في الأشجار المستقيمة ، كانت «أزهار الشتاء» ، كما تخيّلتها تشيكو .

معظم البيوت محاطة بأخشاب الأرز ، التي غُسلت وصُقلتْ ، وتُركتْ واقفة جنباً إلى جنب بين الطنوف والطابق الثاني لتجفّ . تقف الأخشاب البيضاء مصفوفة وقد وُضعتْ قواعدها بانتظام . حتى لهذا السبب وحده جعلها جميلة ـ ربما أكثر جمالاً من أيّ حائط قد يكون جميلاً .

الأشجار المنسقة على جبال الأرز ، جميلة كذلك مع نباتات جافة قرب قواعدها . بإمكان الإنسان أن يلمح السماء من خلال الفراغات بين الجذوع .

«أليس الشتاء أكثر الفصول جمالاً ؟» تساءلت تشيكو .

«ليتني أعلم» . تعوّدت على رؤية الفصول . لا أعرف . بالطبع ، تتخذ أوراق الشتاء لون التبن» .

«ذلك ما يجعلها تبدو وكأنها أزهار ،» قالت تشيكو .

«أزهار ؟... أزهار ؟» لم يكن وصف تشيكو متوقعاً . نظرت ناييكو إلى أشجار الأرز .

وبينما هما سائرتان ، رأتا منزلاً أنيقاً . هل هذا من أملاك أصحاب الأراضي ؟ النصف السفلي من الحائط الواطئ ، نوعاً ما ، مصنوع من صفائح خشبية مصبوغة باللون الأحمر ، بينما كان النصف الأعلى أبيض . له سقف قرميدي صغير .

توقفت تشيكو . «هذا بيت جميل . ألا ترين ذلك ؟»

«ياآنسة ، هذا هو البيت الذي أقيم فيه . تعالي رجاءً وتطلعي عليه... إنهما لا يهتمان . لقد رعياني هنا قرابة عشر سنوات» . قالت ناييكو .

لقد سمعتْ تشيكو ما قالته ناييكو مرتين أو ثلاث مرات أن ايديو يريد أن يتزوجها لأنها خيال لتشيكو أكثر منها تعويضاً عنها .

يمكن لتشيكو ، بالطبع ، فهم ما تعنيه بالتعويض ، ولكنها ما الذي تعنيه يا ترى بـ «خيال» ، لا سيما بالإشارة إلى الزواج ؟

«يا ناييكو... خيال . قلتِ ، «خيال» . ما الذي تعنينه ؟» قالت تشيكو بحزم .

لم تُجبْ ناييكو .

«أليس الخيال شيئاً بلا شكل لا تستطيعين أن تلمسيه بيدك» ؟ استمرت تشيكو ، خجِلةً بلا توقّع . ناييكو قد تقترن برجل ـ هذه الناييكو ، التي تشبه تمام الشبه ، تشيكو ليس في الوجه فقط ، لكن من المحتمل في كلّ شيء .

«نعم ، ذلك صحيح . ذلك هو الخيال الذي لا شكل له ،» أجابت

نـاييـكـو . «الخيـال في قـلـب إنسـان ، أو عقـلـه... أو قد يـكـمـن فـي مـكـان سـواهمـا ، لا أعرف . حتى حينمـا أكون عجوزاً في السـتين مـن عمـري ، ألا تبقى «تشيكو خياله» شابّة كما أنتِ الآن ؟»

لم تتوقع تشيكو كلاماً كهذا . «لقد فكّرت بالأمرّ إلى هذا الحدّ ؟»

«لن يأتي وقت أبداً يتحول فيه خيال جميل إلى خيال قبيح» .

«ليس ذلك بالضرورة صحيحاً ،» قالت تشيكو أخيراً .

«لا يمكن لإنسان أن ينام مع خيال» .

«همْمْ» . يمكن لتشيكو أن ترى حسداً حتى في نايبكو . «هل هناك ، كذا أشياء كخيالات حقيقة ؟»

«هنا...» لمست نايبكو صدر تشيكو .

«أنا لستُ خيالاً . أنا توأمك» .

لم تتكلم نايبكو .

«إذن هل ستصبحين أختي ، لشبحي ؟»

«لا ، أريد أن أكون الأخت لتشيكو التي هي أمامي ، لكن ، من جهة أخرى... من أجل ايديو في الأقل...»

«تفكّرين كثيراً للغاية» . نظرت تشيكو إلى الأسفل ومشت لبرهة . «في يوم ما ، ماذا لو تحادثنا معاً ، ثلاثتنا ، إلى أن نسوّي الأمور ؟»

«نتحادث ؟... في بعض الأحيان أريد أن... في أوقات أخرى لا أريد» .

«نايبكو ، هل أنتِ شاكّة جداً ؟»

«لا ، ليس ذاك ، لكن لدّي قلب فتاة صغيرة ، كذلك» .

نظرت نايكو إلى الأعلى . «مَطَرُ الشتاء ينزل من «شوزان» . أنظري إلى أشجار الأَرز على قمم الجبل» .

رفعت تشيكو عينيها .

«لِنَعُدْ إلى البيت بسرعة . يبدو كأنها ستُمطر بَرَداً» .

«خطر ببالي أن الطقس قد يكون سيئاً . لذا جلبت بعض الملابس الواقية من المطر» . نزعت تشيكو أحد القفازين وأرَتْ يدها إلى نايكو . «ليست هذه يد «آنسة» صغيرة» .

كانت نايكو مرتعبة . لفّتْ يديها حول يدي تشيكو .

بدأت السماء تنثّ ، قبل أن تدرك تشيكو ذلك . على الرغم من أن نايكو هي من تلك الجبال ، إلاّ أنها أُخذتْ على حين غرّة .

جالت تشيكو بنظرها حول الجبال . بدتْ باردة ، مغطاة بالضباب ، إلاّ أن جذوع أشجار الأرز في أسفل المنحدر بدت أكثر وضوحاً .

أصبحت الجبال الصغيرة في لحظة غير واضحة ، كأنما غُلفتْ بالسديم . إنه مختلف بالطبع ، عن سديم الربيع الذي ينزل من السماء ، لكن ربما يليق هذا السديم بكيوتو أكثر .

نظرت إلى الأرض فأدركت أنها رطبة .

وبينما كان الضباب يحيط بهما ، تعتّمت الجبال بلون رماديّ فاتح ، راح يدكن وبدا وكأنه ينحدر إلى جانب الجبل . شيء أبيض اختلط بالضباب . إنه بَرَد .

«من الأفضل أن نعود بسرعة إلى البيت» . قالت نابيكو حينما لاحظت الذرات البيضاء التي تلاشت وعادت للظهور .

أصبح الوادي الذي أظلمّ على غير العادة في هذه الساعة من اليوم ، بارداً . لم يكن المطر شيئاً غير عاديّ بالنسبة إلى فتاة من كيوتو مثل تشيكو .

«من الأفضل أن نعجّل في العودة ، قبل أن تتحولي إلى خيال بارد ،» قالت نابيكو .

«خيال ؟ عُدتِ إلى عادتك مرّة ثانية ،» ضحكتْ تشيكو . جئت بملابس واقية من المطر . الطقس في كيوتو يتغيّر دائماً في الشتاء .

نظرت نابيكو إلى السماء . «من الأفضل أن تعودي إلى البيت الآن» . أمسكت بقوة بيد تشيكو التي كانت بلا قفّاز .

«يا نابيكو ، هل أنتِ حقّاً تفكّرين بالزواج ؟» تساءلت تشيكو .

«قليلاً جداً لا أكثر ،» أجابت نابيكو . ثمَّ بمحبّة ألبستْ تشيكو القفاز .

«رجاءً تعالي إلى بيتي في يوم ما» . قالت تشيكو ، إلاّ أن نابيكو لم تردّ عليها . «رجاء تعالي... بعد أن يذهب المرظفون إلى بيوتهم» .

«في الليل ؟» كانت نابيكو مندهشة .

«يمكنك أن تباتي . أبي وأمّي يعرفان كل شيء عنك» .

امتلأت عينا نابيكو بالبهجة ، إلاّ أنها ترددت .

«أريد في الأقل مرّة واحدة ، أن تنامي في غرفة واحدة معي» .

نظرت تشيكو إلى الجانب البعيد من الطريق ، وقبل أن تعرف تشيكو ، كانت نايكو تبكي . لم تستطع تشيكو إلاّ أن تنتبه إليها .

حينما عادت تشيكو إلى البيت في « موراماتشي » ، كانت السماء غائمة هناك فقط .

« عُدتِ إلى البيت في الوقت المناسب ، قبل أن تبدأ السماء بالمطر ، » قالت أمّها : « شگي » . « والدك ينتظرك هناك في الخلف » .

قبل أن تنتهي تشيكو من تحيّتها إلى والدها ، سألها بتحمسّ ، « كيف سارت الأمور ، يا تشيكو ، حينما تكلمتِ معها ؟ »

« إيه... » تحيّرت تشيكو مما ينبغي لها أن تقوله . من الصعوبة أن تشرح بوضوح ، بكلمات قليلة .

« كيف سارت الأمور ؟ » تساءل كرّة أخرى .

« إيه... »

فهمت تشيكو ما قالته نايكو ، لكنْ ثمة أمور كذلك لم تتمكن تشيكو من استيعابها . أراد ايديو أن يتزوج من تشيكو حقاً ، لكن تخلّى عن ذلك لأنه شيء مستحيل ، قائلاً بدلاً عن ذلك إنه يريد أن يتزوج من نايكو ، توأم تشيكو . ميّز قلب نايكو اليافع مشاعره ، لذا أخبرت تشيكو عن نظريتها الغريبة في « الخيال » . هل عزم ايديو على منع رغبته في تشيكو عن طريق الفوز بنايكو ؟ لا تعتقد تشيكو أن غرورها وحده جعلها تشعر أنَّ ذلك حقيقة .

لكن ربما أن ذلك السبب ليس هو الكل في الكل .

لم تتمكن تشيكو من النظر إلى وجه والدها مباشرة ، وإن بدت الأعصاب في رقبتها تنمُّ عن شعورها بالحرج .

« هكذا أرادت ناييكو هذه مجرد أن تراك » . تساءل والدها .

« نعم » . رفعت تشيكو رأسها بعزم . « قالت إن ايديو بن اتومو يريد أن يتزوجها » . ارتجف صوت تشيكو .

« همْمْ ؟ » راقبها والدها وللحظة كان صامتاً . بدا وكأنه كان ينظر إلى شيء بعيد ، لكنه لم يتكلم .

« إذن... ايديو . سيكون ذلك شيئاً حسناً لو تزوجت ولداً مثل ايديو . القدر بالتأكيد شيء غريب ، لكن من جهة أخرى ، يعود لكِ كلّ الفضل » .

« لكن ، يا أبي ، لا أعتقد أنها ستتزوج ايديو » .

« ماذا ؟ لِمَ لا ؟ »

لم تردَّ تشيكو .

« لِمَ لا ؟ يبدو لي أنه عين الصواب » .

« أنتَ على حق ، لن يكون سيئاً ، لكن ، ياأبي ، هل تتذكر حين سألتّني في حديقة تربية النباتات ، كيف سيكون ايديو كزوج لي ؟ باستطاعتها أن تُحسَّ بذلك إحساساً خفياً » .

« حقاً ؟ كيف ؟ »

« تعتقد أن لمحلّ ايديو ومحلّنا ، بعض التعاملات المهنية في الأقل » .

كان لهذه الكلمات صدى في صدر تاكيتشيرو . ما لبث أن وجم .

« يا أبي مرَّة واحدة ستكون كافية . هل لها أن تأتي إلى هنا لتبقى معنا ليلة واحدة فقط . رجاءً » .

«بالطبع... لكن لماذا تسألين ؟ لقد أخبرتكِ أننا حتى قد نؤويها بصورة دائمة ، ألم أقلْ ذلك ؟»

«لكنها لن تأتي مطلقاً إلى هنا لتعيش . لكنْ لليلة واحدة فقط» .

نظر إليها والدها بشفقة .

سمعا صوت «شكّي» وهي تغلق مصاريع النوافذ لصدّ المطر .

«سأذهب لمساعدتها» . نهضت تشيكو .

الضربات الخفيفة التي لا تكاد تسمع ، لمطر الشتاء ، دقّت على السقف . جلس والد تشيكو بلا حراك .

كان تاكيتشيرو مدعواً إلى الغداء من قبل والد «ريوسوكه» و«شنيتشي» في مطعم «سنام» في متنزّه «ماروياما» . أيام الشتاء قصيرة ، لذا فإن أضواء المدينة يمكن مشاهدتها من أعالي ردهة الاستقبال ، السماء رمادية ، وما من توهج ليليّ . كانت المدينة نفسها ، لولا الأضوية ، رمادية كذلك... لون شتاء كيوتو .

والد «ميزوكي ريوسوكه» شخصية قوية هي أهل للثقة ، لكونه مالك بيت تجاري واسع للبيع بالجملة في «موراماتشي» . ازدهر ازدهاراً معتبراً ، إلاّ أنه كما يبدو في الوقت الحاضر يجد صعوبة في التعبير عن نفسه . يتردد ، صارفاً الوقت بالتحدث بالقيل والقال التافهة .

«في الواقع» تكلم أخيراً ، بعد أن استجمع القوة من شراب «الساكي» . تاكيتشيرو رجل سلبيّ ينزع إلى التشاؤم . كان هذا كافياً له ليخمن غرض حديث «ميزوكي» .

«في الواقع ،» بدا «ميزوكي» على وشك التعثر بكلماته مرة ثانية . «هل قالت ابنتك شيئاً ما ، بشأن «ريوسوكه» ؟

«نعم... بالكاد تستحق مؤسستنا اعتباراً كهذا ، لكنني أفهم نوايا «ريوسوكه» الطيّبة» .

«أعي ما تقول» كان ميزوكي أكثر ارتياحاً . «إنه يشبهني كثيراً يوم كنتُ شاباً . ما أن يقولها فلا يهمّه مَنْ يحاول أن يوقفه ، لن يسمع . إنه مشكلة» .

«لا ، إنني ممتنّ له» .

«لقد فرّجتَ عني بسماعي ما قلتَ» . قال «ميزوكي» وقد بدا عليه الارتياح حقاً .

«رجاء اعذرني» . حنى رأسه بأدب .

على الرغم من أن محلّ تاكيتشيرو يعاني من صعوبات مالية ، إلاّ أنه عارٌ عليه أن يأتي مجرد صبيّ للمساعدة ، لا سيّما صبي من المهنة .نفسها مع ذلك لا يمكنه أن يتظاهر أنه جاء ليتعلم ما دام المحلان متعارضان بأساليبهما .

«أنا ممتنّ ، لكن...» تاكيتشيرو قال . «لا يمكنك أن تستغني عن «ريوسوكه» في محلّك» .

«ماذا ؟ «ريوسوكه» يراقب العمل لا غير . لا يعرف كثيراً . بما أنني والده فإنني أتردد أن أقول ، إنه صبي دؤوب» .

«نعم ، لقد كنتُ مندهشاً تماماً حينما جاء إلى المحلّ . جلس أمام واحدٍ من موظفيّ وأعطاه نظرات قاسية تماماً» .

«تلك هي طينة هذا الصبي ،» قال «ميزوكي» . شرب شراب «ساكي» أكثر بصمت . «يا سيّد سادا» .

« نعم » .

« إذا تهيّأ لريوسوكه أن يأتي إلى محلّك لمساعدتك ـ ليس بالضرورة كلَّ يوم ـ فإنني أعتقد أن ذلك سيساعد أخاه « شنيتشي » ليصبح مسؤولاً ، مسؤولية أكبر ، وسيكون ذلك مساعدة لي كذلك . شنيتشي صبي دمث . حتى الآن كثيراً ما يناكده فيدعوه « صبيّ المهرجان الصغير » . ذلك أسوأ شيء . جاءته التسمية عندما كان في العربة في مهرجان « گيون » .

« لأنه وسيم جداً . كان صديقاً لتشيكو مذ كانا طفليْن » .

« عن تشيكو... » مرّة ثانية ضاعت منه الكلمات . « عن تشيكو ، كرّر قوله . يُخيَّل أنه كان غاضباً . كيف جاءت فتاة جميلة ، وطيبة كهذه للوجود ؟ »

« ليس بسبب جهود والديها . إنها خُلقِتْ على تلك الشاكلة ليس إلاّ » . قال تاكيتشيرو في الحال .

« أنا متأكد من أنك تفهم ، ياسيد سادا . شغلك شبيه بشغلي ، والسبب الذي حدا بريوسوكه لأن يقول إنه يريد أن يساعد في محلّك ، هو حتى يتسنى له أن يبقى إلى جانب تشيكو لثلاثين دقيقة أو ساعة في اليوم » .

هزَّ تاكيتشيرو رأسه . مسح ميزوكي جبينه .

« إنه ليس ابناً بالجودة التي تعتقد ، لكنه يعمل بجد ، لا أريد أن أطلب المستحيل ، لكن إذا صادف وقررت تشيكو في يوم ما ، أن قريناً مثل « ريوسوكه » سيكون مناسباً لها ، وإذا وافقتَ على ذلك... حسناً إنها لوقاحة مني أن أسأل ، لكن إذا كانت تلك هي الحالة ، هل لي أن أسألك أن

تقبله صهراً مُتبنّى ؟ سأحرمه من الإرث حتى يتمكن من الزواج في عائلتك» . خفض رأسه .

«تحرمه من الإرث ؟ وريثك ؟»

«ليس ذلك ما يجلب السعادة للناس . ذلك ما أعتقده حينما أنظر إلى ريوسوكه في الوقت الحاضر» .

«نواياك طيبة ، لكن دعنا نترك الأمر لهما . إنهما شابان» . تجنب تاكيتشيرو تجهّم «ميزوكي» .

«وتشيكو كانت لقيطة» .

«ماذا تعني «لقيطة» ؟ تساءل «ميزوكي» . «إيه... رجاءً لا تنسَ ما قلته لك هل لي أن أُرسل ريوسوكه إلى محلّك كمساعد ؟»

«نعم» .

«شكراً . شكراً» . بدا جسم «ميزوكي» يرتاح . حتى طريقة شربه تغيّرتْ .

في اليوم التالي حينما جاء ريوسوكه إلى محلّ سادا جمع الموظفين على عجل لجرد مخزون البضائع . كان يراقب فقط ، ولم ينطق بشيء . منذ زيارة «ريوسوكه» الأخيرة ، كان رئيس الموظفين خجلاً منه ، فلم يرفع حتى رأسه .

حاولت عائلة سادا أن تبقيه ساعات أطول ، إلاّ أنه كان يغادر قبل العشاء .

في ذلك المساء قُرِع الباب المشبّك قرعاً متردداً . سمعته تشيكو فقط . كانت نابيكو .

«آ ، يا نايیكو ، لقد جئتِ... والطقس بارد جداً هذه الليلة» .

لم تتكلم نايیكو .

«لكن النجوم طالعة» .

«تشيكو ، هل من ضير إذا التقيتُ بوالديك» ؟

«لقد أخبرتك بكلِّ شيء عنهما . لذا فكل ما ينبغي عليك أن تقوليه : «أنا نايیكو» . احتضنت تشيكو كتفي نايیكو أثناء ما كانت تسير إلى ناحية البيت الخلفية معها . «هل تناولتِ عشاءك ؟»

«نعم ، شكراً لقد أكلت شيئاً من «السوشي» قبل مجيئي» .

كان تصرّف نايیكو رسمياً . وقد اندهش والدا تشيكو اندهاشة شديدة من الشبه بين الفتاتين لدرجة لا يستطيعان معها ، الكلام .

«إذهبا إلى الطابق العلوي في الخلف . خذا حريتكما وتحادثا» . كانت «شگي» الوحيدة القادرة على التعبير عن نفسها .

أخذت تشيكو يد نايیكو بينما هما تجتازان الشرفة الضيّقة ، إلى الطابق العلوي وأشعلت المدفئة .

«نايیكو ، تعالى إلى هنا للحظة ،» دعتها تشيكو إلى المرآة . حدقت تشيكو بوجهيهما .

«بالتأكيد ، نحن نتشابه» . شعرت تشيكو بفورة ساخنة في جسمها . استبدلتا موقعهما . «إننا حقاً نفس صورة بعضنا بعضاً» .

«هذا ما يكون عليه التوأمان» . قالت نايیكو .

«ما الذي يحدث لو كل امرأة أنجبت توأماً ؟»

« سيخطئ الناس دائماً في التمييز بين الواحد والآخر . سيسبّب ذلك مشاكل بلا شك» . حينما تراجعت نايكو ، كانت عيناها نديّتين . «لا يمكن للإنسان أن يعرف القَدَر مطلقاً » .

خَطَتْ تشيكو صوب نايكو وأمسكتْ بكتفيها بقوّة . «يا نايكو ألا تستطيعين البقاء هنا دائماً ؟ قال أبي وأمي إنهما يريدانك هنا . أنا وحيدة جداً لوحدي . ربما جبال الأرز مكان بهيج ، لكن... »

بدتْ نايكو وكأنها غير قادرة على البقاء واقفة . ركعت نايكو مخافة أن تترنح ، وهزّت رأسها . سقطت قطرات دموع على ركبتيها .

« يا آنسة ، حياتنا وتربيتنا مختلفة ، لا يمكنني أن أعيش في مكان مثل «موروماتشي » . مرّة واحدة . مرّة واحدة فقط جئت إلى منزلك . أردت أن أريكِ الكيمونو التي أعطيتني إياها... وكنتِ طيبة بما فيه الكفاية لأنك زرتني مرتين في جبال الأرز» .

تشيكو صامتة ، لذا استمرّت نايكو ، «يا آنسة ، أنت الواحدة التي نبذها أبوانا . لا أدري لماذا » .

« لكني نسيت ذلك ، » قالت تشيكو رأساً . «لا أفكر به أبداً . كأنما لم يكن لديَّ أبوان مثلهما » .

« أعتقد أن كليهما ربما قد نالا جزاءهما . كنت مجرد طفلة . لكنْ أعذريني رجاءً » .

« أيّ نوع من الذنب ، أيّ نوع من المسؤولية تقع عليك ؟ »

« ليست تلك هي المسألة ، لقد أخبرتك من قبل ، بأنني لا أريد أن أكون عائقاً ، ولو أقل عائق في طريق سعادتك» . خفضت نايكو صوتها . «من الأفضل أن أختفي تماماً » .

«لا ، لا تقولي ذلك» . تكلمت تشيكو بحزم . «لا يبدو في كلامك أيّ إنصاف . يا نايكو ، هل أنتِ غير سعيدة ؟ »

«لا ، أنا وحيدة» .

«الحظ السعيد قصير ، بينما الوحدة طويلة . أليس ذلك حقيقياً ؟ » تساءلت تشيكو . «دعينا نتمدد . أريد أن أتحدث أكثر» . أخرجت تشيكو الفراش من الدولاب . ساعدتها نايكو .

«سعادة . هذه سعادة» . كانت نايكو ترهف السمع إلى صوت آتٍ من السقف

وقفت تشيكو بلا حراك وهي ترى نايكو جاهدة في الإصغاء ، وتساءلت «هل هو مطر الشتاء ؟ أم بَرَد ؟ أم كلاهما ؟ »

«ربما . أم أنه ثلج ؟ »

«ثلج ؟ »

«إنه هادئ . من الصعوبة أن يُدعى ثلجاً... إنه مجرد مسحوق ناعم . يأتي في بعض الأحيان في القرية الجبلية ثلج كهذا بينما نحن نشتغل ، وقبل أن ننتبه تكون سطوح الأوراق قد أصبحت بيضاء كالازهار... وحتى ذؤابات الأغصان الرائعة في أشجار الشتاء الميتة» .

أصغت تشيكو .

«في بعض الأحيان يتوقف الثلج ، أو يتحول إلى بَرَد ، أو إلى مَطَر شتائي» .

«هل لنا أن نفتح مصراعي النافذة ونرى ؟ سنعرف رأساً» .

نهضت تشيكو ، إلاّ أن نايكو أرجعتها .

«لا ، إنها باردة ، وفضلاً عن ذلك ، فقد تُدمِّر الخيال» .

«خيال ؟ هل قلتِ «خيال» ؟ تتحدثين عن الخيال كثيراً» .

ابتسمت نابيكو كان ثمة حزن ضئيل في وجهها .

تكلمت نابيكو ، متعجلة قبل أن توشك تشيكو على نشر الفراش . «تشيكو فقط لهذه المرّة ، دعيني أحضّر فراشك» .

دخلت تشيكو في فراشها . انطرحت الاثنتان جنباً إلى جنب .

«آ ، نابيكو إنها دافئة جداً» .

«عملنا مختلف... تماماً مثل الأماكن التي نعيش فيها» .

نابيكو احتضنت تشيكو . «ستكون باردة في ليلة كهذه ،» قالت نابيكو كأنما لم تكن ترتجف بتاتاً . في هذه الليلة سينحدر رذاذ الثلج... يتوقف... ثم يتهفف إلى الأسفل ، مرّة أخرى .

جاء تاكيتشيرو وشگي إلى الغرفة المجاورة في الطابق الأعلى . ولكونهما كبيري السن ، فقد استعملا بطانية مكهربة لتدفئة الفراش .

همست نابيكو في إذن تشيكو . «فراشك دافئ الآن ، لذا سأدخل في فراشي» .

في وقت تالٍ ، فتحت أمّ تشيكو شقاً في الباب الزلاج لتختلس النظر إلى غرفة الفتاتين .

في الصباح التالي ، استيقظت نابيكو في ساعة مبكرة جداً . هزّت تشيكو لايقاظها «يا آنسة ، كان هذا أسعد أيّام حياتي . سأغادر الآن قبل أن يراني أحد» .

بالضبط أثناء ما كانت نايبكو تتكلم كان يسقط رذاذ ثلج خفيف وينقطع خلال الليل . والآن تلألأ الصباح البارد .

استيقظت تشيكو . «ليس لديك مشمّع واقٍ من المطر ؟ خذي هذا » . أخرجتْ أجود معطف مخمليّ لديها ، ومظلّة قابلة للطيّ ، وقبقابيْن عالييْن لنايبكو .

« هذه لكِ . تعالي مرّة أخرى... رجاءً » .

هزّت نايبكو رأسها . وقفت تشيكو قبالة باب «بنگارا» المشبك ؛ مراقبة نايبكو وهي تبتعد . لم تنظرْ نايبكو إلى الوراء . سقطت نُدفُ ثلج رقيقة قليلة على شعر تشيكو وتلاشت بسرعة .

كانت ما تزال المدينة كما ينبغي أن تكون عليه ، صامتة غارقة في النوم .

ياسوناري كاواباتا

نوبل ١٩٦٨



- ولد في ١١ حزيران ١٨٩٩ ، وتوفي في ١٦ نيسان ١٩٧٢ . تميزت طفولته بوحدة عميقة . فقد والده ثم والدته فأخته الوحيدة فجدته ، ولم يبقَ له سوى جده الذي توفي في عام ١٩١٤ . وهكذا عاش وحدة مطلقة منذ عامه الخامس عشر . رسم صورة فذة لجده في كتابه الأول « يومياتي الشخصية لسنتي السادسة عشرة » ، الذي صدر في ١٩٢٥ .
- بدأ نشاطه الأدبي في وقت مبكر (عام ١٩١٦) . ولكن سيرته الأدبية الفعلية بدأت في ١٩٢١ عندما أسس مع أربعة من رفاقه في جامعة طوكيو مجلة أدبية اسموها « الفكر الجديد » ، كما ساهم في تأسيس مجلتين اشتهرتا في تلك الحقبة هما « الحوليات الأدبية » و« عصر الأدب » . ومنذ تخرجه في عام ١٩٢٤ اعتبر أحد ألمع الوجوه الأدبية الواعدة في المدرسة اليابانية الحديثة التي عرفت باسم « شينكانكا كوها » .

ISBN => 2-84305-183-5
EAN => 9782843051838